

التاريخ النبأ في الدولة العباسية

(بالمؤصل)

تأليف

علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري
(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

تحقيق

عبد الفتاد أحمد طليمات
ماجستير في التاريخ
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتب الحديثة بالقاهرة
ومكتبة المشتى ببغداد

الإسلام والمسلمين ومحافظة من تغورهم بجلادهم ، وما صب (١) على الفرنج من العذاب بأيديهم (٢) واستنقذه من ممالكهم بجهادهم ، وأخلد محاسن أفعالهم على مر الدهور ، وتعاقب السنين والشهور ، جزاء لإحسانهم المستمر ، وطولهم الثابت المستقر ، وكانت (٣ - أ) الأعذار تحول بيني وبين ما أومله من هذا الغرض ، والعوائق تحيل جواهر إمكانى إلى العرض . ولما استأثر الله تعالى بالمولى السعيد نور الدين - تغمدته الله الكريم برضوانه ، وأسكنه فسيح جناته - وقام بالملك بعده ولده المولى المالك الملك القاهر العادل العالم المؤيد المنصور ، عز الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أبو الفتح مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زكي بن آقسنقر ناصر أمير المؤمنين - نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ، ومن فلق الصباح غمورا (٣) ، لازالت الأقدار جارية على وفق اختياره ، ومقتضى إشارته ، ولا برحت الحوادث عن جنباته الشريف مصروقة ، وأعين الكوراث عن دولته القاهرة مطروقة - وملاً ذلك الدست ، وشرف ذلك الصدر ، وظهرت هذه الشمس بعد أفول ذلك البدر ، ولاغرو إذا أشبه الوالد الولد ، وقام الشبل (٣ - ب) في عزيمة (٤) الأسد :

وأنت من القوم الذين هم هم إذا زال منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب بدا كوكب يأوى إليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
وما زال منهم حيث كانت مهالك (٥) تسير المنايا حيث سارت كتابه

وحيث كانت الحال هذه ، تجدد ذلك العزم ، وأحببت أن أجلو مناقب الموالى الملوك السعداء من آبائه عليه ، وأزف عقيلة محاسنهم إليه ، وأذكر من مشاهدتهم (٦) في نصرة الدين وذهبهم عن حوزة المسلمين ، ما انتهى إليه علمي ، وأثبتته قلبي : شعر

أخيار قوم بنوا (٧) وما نقضوا (٨) فالذكر يحيا (٩) وإن هم قبضوا
جادوا فما قصرت أكتفهم (١٠) عن غرض في الندى ولا عرضوا
وانتهزوا فرصة التمكن إذ تصوروا أن مكثها عرض

(٤ - أ) في دولة القاهرة الملك عز الـ دين عن كل من مضى عوض
قال . ليعلم قدر الله نعمة الله تعالى عنده أولا وآخرآ ، ويقتدى بأفعالهم وارداً وصادراً ،

(١) بالأصل : وماصبيهم . (٢) بالأصل : بما يمد بهم . (٣) بالأصل : عمورا . (٤) بالأصل : عريضة . (٥) بالأصل : كان ذلك . (٦) بالأصل : مشاهدتهم . (المراد في النص ، موافقتهم في الحروب) . (٧) بالأصل : بنو . (٨) بالأصل : نقضوا . (٩) بالأصل : يحيا . (١٠) بالأصل : أكفهم . (والبيت مكسور في شطره الثاني . ويمكن إبدال اللفظ : غرض ، باللفظ : غاية ، فيصح الوزن ويكون المعنى أكمل) .

وليتيقن (١) أنه لم يكن لأحد من الملوك المتقدمين والخلفاء الراشدين ، منقبة دينية ودينية (٢) وتجربة في حفظ (٣) الممالك والرايا شرعية وسياسية ، إلا وفي بيته الشريف — ثبت الله تعالى قواعده ، وشد من عزه معاقده — ما يضاهاها ، وظهر عنهم ما يماثلها ويناويها ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٤) » . لا بل والله من قاس غيرهم بهم قاس التمد إلى البحر ، والمخشب (٥) إلى الدر ، والهشيم بخضرة الريح ، والأرض الجزز (٦) بنضرة الروض المريع ، ولكأن القائل إياهم أراد بقوله :

لم تحمل الأرض ملوكا مثلهم	ولا أظلتها السماوات العلى
معاد كل راغب وراهب	إذا أتى ديارهم ألقى العصي
لا ينطق العوراء في نادهم	ولا يحلون إلى الجهل الحبي
(٤ - ب) لا يصطلى بنارهم عند اللقاء	ويصطلى بنارهم عند (٧) القرى
هم النجوم طالع وآفل	يعلوهم غرس (٨) إذا غرس (٩) ذوى
هم الجبال امتنعت أن ترتقى	هم البحور ليس يغلوها القذى
إن سئلوا لم يبتخلوا أو عاهدوا	لم يغدروا أو ذكروا (١٠) طاب الثنا

ونقلت أكثره عن والدى رحمه الله تعالى ، فإنه كان راوية (١١) حسنتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فانتى كثير مما سمعته منه ، لأننى جمعت هذا القدر من حفظى بعد وفاته ، ولم أثبت به بقلبى فى حياته ، ومع هذا فإننى تعمدت ترك الإكثار ، لميل الناس فى زماننا إلى الاختصار ، وابتدأت بذكر المولى الشهيد الكبير قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه ، لأنه أول من ملك منهم فيما علمناه ، وذكرت ما حضره من الحروب قبل ملكه وبعده ، وكذلك ولده المولى الشهيد عماد الدين (٥ - أ) زنى قدس الله روحه . ولم أذكر أحداً غير ملوك هذا البيت الشريف ، إلا وفاة (١٢) خليفة واستخلاف آخر ، وموت سلطان سلجقى وولاية غيره ، إذا الضرورة تدعو إليه ، وبالله التوفيق وهو المستعان وهو حسبي ونعم الوكيل .

(١) بالأصل : ولتيقن . (٢) بالأصل : وديناوية . (٣) بالأصل : حفص . (٤) سورة الحديد : ٢١ .
(٥) المخشب : قطع الزجاج المنكسر ، وقيل الخرف . محيط المحيط (مادة : خشب) . (٦) الأرض الجزز : الأرض التى لا نبات فيها . (مختار الصحاح) . (٧) بالأصل : عن . (٨) بالأصل : عرش .
(٩) بالأصل عرس . (١٠) بالأصل : ذكر . (١١) بالأصل : رواية . (١٢) بالأصل : وافاه .

في ذكر ابتداء حال قسيم الدولة آقسنقر

رضى الله عنه

قال صاحب التاريخ . كان قسيم الدولة (١) تركيا (٢) من أصحاب (٣) السلطان جلال الدولة ركن الدين (٤) ملكشاه بن ألب أرسلان وأترابه ، ومن ربي معه في صغره وصحبه إلى حين كبره ، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه ، وأفاضت تاجها عليه ، رعى لقسيم الدولة صحبته ، فجعله من أعيان أمرائه ، وأخص أوليائه ، فصادف الإحسان أهله ، ورفع قدره وأعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وأفضى إليه بأسراره في خلواته وجلواته ، ووثق به ووثقا حسده عليه سائر أمرائه (٥ - ب) وأجناده ، لما رأى من شجاعته وحزمه وسداده ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والإيناس (٥) ، وزاد قدره علوا إلى أن صار يتقبه مثل نظام الملك مع تحكمه على السلطان ، وتمكنه من المملكة بعلو المنصب وكثرة الأعوان ، فأشار على السلطان بأن يوليه مدينة حلب وأعمالها ، ويحكمه في عساكرها وأموالها ، ويضيف إلى حكمه غيرها من البلاد الشامية ، وكان قصده أن يتخذ عند قسيم الدولة يدا ، ويبعده عن خدمة السلطان . ومن أعظم الدلائل على علو منزلته وسمو مرتبته لقبه ، وهو قسيم الدولة ، وكانت الألقاب حينئذ مصونة [لا تعطى إلا لمستحقها (٦)] حتى إن السلطان — مع جلالة قدره — لم يكن يعرف إلا بجلال الدولة ولم يكن لقبه في الدين مشهورا . وكان قسيم الدولة أيضاً يقف إلى جانب (٦ - أ) تحت السلطنة عن يمينه ولا يتقدمه أحد ، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده . وهكذا كان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي رضى الله عنهما يقف عند السلطان غياث الدين مسعود ، ولما توجه المولى السعيد شرف الدين بن المولى المعظم قطب الدين قدس الله روحهما إلى همدان — وبها حينئذ السلطان ألب أرسلان [بن] طغرل بن محمد وأتابكة البهلوان ، وهو أخو السلطان لأمه والبلاد له وبحكمه ليس للسلطان معه غير اسمه — وكان البهلوان يقف عن يمين التخت ، فلما حضر شرف الدين انتقل البهلوان عن مقامه ، وقال لشرف الدين : هذا لكم

(١) في زبدة الحب (ح / ٢ / ص / ١٠٣) . أن اسم أبيه « النعمان » ، وفي الحاشية (رقم : ٤) ، آل ترعان .
 (٢) في زبدة الحب (ح / ٢ / ص / ١٠٣ / حاشية / ٤) ، أنه من قبيلة « ساب يه » . (٣) في ابن واصل (ح / ١ / ص / ١١) ، أن قسيم الدولة كان مملوكاً للسلطان ألب أرسلان السلجوقي فربي مع ولده السلطان ملكشاه . وفي ابن خلكان (ح / ٢ / ص / ٢٥٢) ، أنه كان مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان . وفي زبدة الحب (ح / ٢ / ص / ١٠٣) ، « وقيل إنه كان مملوكاً لملكشاه » ، وقيل إنه لصيق به . وفي السكامل (ح / ٨ / ص / ١٤٥) ، أنه كان زوج دادة السلطان ملكشاه . (٤) لم يلقب أحد من المؤرخين ، السلطان ملكشاه بلقب « ركن الدين » سوى ابن الأثير ، ولما لقبه « جلال الدين » ، والسلطان السلجوقي الملقب بـ « ركن الدين » هو بركياروق بن ملكشاه . (أنظر زامباور : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص / ٥٢ / ٧٤) . (٥) يظهر أن قسيم الدولة حجب للسلطان ملكشاه . حيث يطلق كل من ابن واصل (ح / ١ / ص / ١١) : ابن خلكان (ح / ٢ / ص / ٢٥٢) : ابن كثير (ح / ١٢ / ص / ١٤٧) ، على قسيم الدولة لقب الحاجب ، فهو عندهم « قسيم الدولة آقسنقر الحاجب » .
 (٦) الإضافة من ، الروضتين (ح / ١ / ص / ١٤) .

من قديم الزمان ليس لأحد غيركم أن يقف [فيه] مع حضوركم . وكل هذا يدل على ما ذكرناه من جلالة قدر قسم الدولة وعلو محله .

ذكر مسير قسم الدولة

مع نحر الدولة بن جهير إلى الموصل بأمر السلطان ملكشاه

(٦ - ب) في سنة سبع (١) وسبعين وأربعمائة ، سير السلطان ملكشاه الوزير نحر الدولة ابن جهير وزير الخليفة (٢) إلى ديار بكر ليملكها ويحلي عنها بني مروان (٣) على ما ذكرناه في المستقصى في التاريخ (٤) ، وسير عميد الدولة بن نحر الدولة بن جهير — وكان زوج ابنة نظام الملك — إلى الموصل ، وكانت لشرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، وسير معه جيشا عظيما ، وجعل المقدم على الجيش قسم الدولة آقسنقر ، وتقدم إلى عميد الدولة ليكون فعله في حروبه وحصاره برأى قسم الدولة ، لمعرفته بتدبير الجيوش وحصر البلاد وشجاعته في حروبه كلها ، فساروا نحو الموصل ، فلقبهم في الطريق الأمير أرتق بن أكسب التركاني — جد ملوك الحصن (٥) وماردين يومنا هذا — ومعه خلق كثير من التركان فاستصحبوه معهم — وكان مشهورا بالعقل والدين — فلما وصلوا إلى الموصل حصروها وضيقوا على من بها (٧ - أ) وأرسل أرتق إلى من بها يشير عليهم بالدخول في طاعة السلطان وترك العصيان عليه ، وخوفهم عاقبة فعلهم إن امتنعوا وأصروا على الخلاف ، فقبلوا نصحه وأذعنوا له وأطاعوا وسلبوا البلد (٦) ، فأخذ عميد الدولة ما كان به من مال شرف الدولة وأهله وذخائره . وكان السلطان عازما على أخذ جميع البلاد التي لشرف الدولة واستئصال ملك العرب ، فأتاه الخبر بخروج أخيه تكش عن طاعته بخراسان واجتماع العساكر عليه ، فأرسل مؤيد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة فطيب قلبه ، وذكر له أن أباه نظام الملك قد شفع فيه إلى السلطان فأجاب شفاعته ، وأمره بالمسير معه إلى خدمة السلطان ، فسار صحبته ولقي السلطان بالبوازيج (٧) ، فخلع عليه ورد عليه الموصل وجميع ما أخذ له من أهل ومال ، وسار السلطان نحو خراسان فظفر بأخيه .

(١) في الكامل (٨/ص/١٣٣) سنة ست وسبعين ، وكذلك في ابن كثير (١٢/ص/١٢٤) ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/٦٩ . (٢) لم يكن نحر الدولة وزيراً للخليفة المقتدى بأمر الله حين أرسله السلطان ملكشاه إلى ديار بكر ، وإنما كان معزولاً واستوزر الخليفة ابنه عميد الدولة ، ثم عزله الخليفة في صفر سنة ٥٧٦ هـ ، فطلب ملكشاه من الخليفة أن يرسل إليه بني جهير — وكان ملكشاه بأصبهان — فأرسلهم إليه ، فأكرمهم ملكشاه ، وعقد لفضله الدولة على ديار بكر وأرسله إليها في نفس السنة بالعساكر . (الكامل ، ٨/ص/١٣٣) . (٣) بالأصل : بني مروان . (٤) المستقصى في التاريخ هو كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير . (٥) الحصن : هو حصن كيفا . وأرتق بن أكسب هو جد ملوك بني أرتق ، وترجمته في ، ابن خلكان (١/ص/٧٦) . (٦) في السلوك (١/ص/٣٣) ، أن السلطان ملكشاه أرسل قسم الدولة آقسنقر — والد عماد الدين — إلى الموصل فملكها . وهذا وهم من المقرئ ، وسببه تشابه اسمه باسم آقسنقر البرسقي الذي ولي الموصل سنة ٥١٥ هـ ، في عهد السلطان محمود ابن محمد بن ملكشاه . (٧) البوازيج : في (ياقوت) : بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة ، ويقال لها بوازيج الملك . .

(٧ - ب) ذكر ملك قسيم الدولة مدينة حلب وغيرها

كانت حلب لشرف الدولة مسلم وكانت أنطاكية للروم قد ملكوها سنة ثمان (١) وخمسين وثلاثمائة ، ولم يزلوا بها إلى سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وكان صاحبها حينئذ روميا يسمى الفردوس (٢) ، فسار عنها إلى بلاد الروم ، فكتب أهلها (٣) إلى سليمان بن قتلمش — وهو جد هذا الملك غياث الدين كيخسرو (٤) صاحب قونية وغيرها — وراسلوه ليحضر عندهم ليسلموا إليه أنطاكية ، فسار إليهم وتسلم البلد وملكه ، وقتل من أهله خلقا كثيرا ، وأخذ منهم مالا عظيما . وكان لشرف الدولة على صاحب أنطاكية الرومي جزية يأخذها منه كل سنة ، فلما ملك البلد سليمان ، أرسل إليه شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الروم ، وتهده وخوفه عاقبة (٨ - أ) (معصية السلطان ، فأعاد الجواب : إنني في طاعة السلطان وهذا الفتح بسعاده ، والخطبة والسكك له فيه ، ولست بكافر حتى أعطيك ما كنت تأخذه من الروم ، فأعاد شرف الدولة الجواب يتهده ويلزمه بالمال ، فأخذت سليمان الحمية فسار إلى بلد شرف الدولة ونهبه ، فقصده الذين نهبهم واستعاثوا إليه ، فقال لهم : صاحبكم أخرجني إلى مافعلته ، وإلا فليس من عادتي أخذ مال مسلم ، ورد عليهم ما أخذ منهم ، فجمع شرف الدولة العرب والتركمان عن بكرة أبيهم وسار نحو أنطاكية ، فلقيه سليمان في أول أعمالها مما يلي حلب في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فاقتتلوا أشد قتال فانهمزمت العرب والتركمان عن شرف الدولة (٥) ، فاضطر إلى الهزيمة فقتل منهزماً وذاق عاقبة بغيه . وكان ملكه (٨ - ب) من السندية (٦) بالعراق على نهر عيسى إلى

(١) ذكر ابن الأثير في « الكامل » تاريخين مختلفين عن استيلاء الروم على أنطاكية ، التاريخ الأول ، شهر المحرم سنة ٣٥٩ (٧/ص/٣٦) والتاريخ الآخر سنة ٣٥٨ (٨/ص/١٣٦) وهو التاريخ الذي ذكره هنا وبدون تحديد الشهر . وكان المسلمون قد استولوا على أنطاكية من الروم سنة ١٥ هـ ، أثناء فتوح الشام . (٢) في ابن القلانسي (ص/١١٥) ، الكامل (٨/ص/١٣٦) ، الفردوس . (٣) لم يكتب أهل أنطاكية إلى سليمان ليسلموه البلد ، ودليل هذا أنهم قاتلوه كما يتبين من الخبر نفسه . والخبر الذي ذكره ابن الأثير في « الكامل » (٨/ص/١٣٦) أوضح مما ذكر هنا . فهو يذكر أن الفردوس كان مسيئاً إلى أهل أنطاكية وإلى جنده ، حتى أنه حبس ابنه . فانهزمت الابن فرصة مسير والده إلى الروم فاتفق وشحنة البلد على اسدعاء سليمان بن قتلمش لتسليم البلد إليه ، فسار سليمان إليها واجتمع بالشحنة في شهر شعبان ، فقاتله أهل البلد فهزمهم واستولى عليها عنوة . ومعنى هذا أن سليمان جاء على غير رضا من أهل أنطاكية .

ويعلق « دى سلين » على اسم الفردوس وعلى الخبر نفسه بقوله (ص/١٤) : « من الممكن أن يكون المؤلف كتب الاسم «التدروس» (يعني دى سلين أن ابن الأثير كتب الاسم صحيحاً ، ثم حرقه ناسخ المخطوط) ، وفي هذه الحالة يكون المقصود هو ابن « فيلاريت » حاكم أنطاكية ، ويكون هو الذي ثار عندما علم بنية أبيه على اعتناق الإسلام ، كما تقول « آن كومنين » في كتاب « الكسياد » Alexiade (الكتاب الخامس ، ص ١١٦) حتى أنه رحل إلى نيقية وحرّض سليمان على المسير إلى أنطاكية للاستيلاء عليها ، ويبدو أن رواية بنت ألكسيس غير محتملة ، والمقول أن نفترض أن فيلاريت أرسل ابنه إلى سليمان لكي يعقد محادثة معه . ويتضح أن فرض دى سلين ، لعللاقة بينه وبين استيلاء سليمان على أنطاكية . (٤) كان غياث الدين صاحباً لقونية وغيرها من سنة ٥٨٨ — ٥٩٢ ، من سنة ٦٠١ — ٦٠٧ (زامباور) . (٥) في الكامل (٨/ص/١٣٧) ، أنه كان مع شرف الدولة ، أمير التركمان « جبق » ، فركه « جبق » وانضم إلى سليمان ب رجاله ، فلما رأى العرب ذلك ، انهزموا وتبعهم شرف الدولة منهزماً . (٦) السندية : في (ياقوت) بكسر أوله وسكون ثانيه ، نسبة إلى السند . وهي قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد والأنبار .

منبج (١) وما بينهما من البلاد الفراتية : كهيت (٢)، والأنبار (٣) وغيرها ، وملك الموصل (٤)، وديار ربيعة (٥)، والجزيرة (٦) بأسرها ، وملك مدينة حلب . وكان عادلا حسن السيرة عظيم السياسة . ولما قتل شرف الدولة قصد سليمان مدينة حلب فحصرها (٧) فأرسل إليه أهلها : إذا انفصل الأمر بينك وبين تاج الدولة تنش، سلمنا إليك البلد . وكان تاج الدولة له مدينة دمشق ونواحيها قد أقطعه (٨) إياها أخوه السلطان ملكشاه (٩) ، وقد سار نحو حلب بعد قتل شرف الدولة ليملكها ، وكان معه أرتق بن أكسب — وقد أقطعه تاج الدولة البيت المقدس (١٠) — فلما أرسل أهل حلب إلى سليمان ما ذكرناه ، سار نحو تاج الدولة فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا صبر فيه الفريقان ، وانجلى الحرب عن هزيمة (٩ — أ) عسكر سليمان ، وثبت هو فقتل . وسار تاج الدولة إلى حلب فحصرها فملك المدينة وحصر القلعة ، فكتب أهلها السلطان ملكشاه ليسلموها إليه وهو بالرها (١١) . وكان سبب مسيره إليها ، أن ابن عطير النخري كان قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار وسلمها إليهم ، فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها (١٢) ، فسار ملكشاه إليها هذه السنة (١٣) فحصرها وفتحها وأقطعها الأميران ، فلما أتاه رسل أهل حلب بالتسليم إليه ، سار إليهم . فلما بلغ خبر مسيره إلى تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق . ووصل السلطان إلى حلب ، وبالقلعة

(١) منبج : في (ياقوت) ، مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة . بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . (٢) هيت : في (ياقوت) ، بالكسر وآخره تاء مثناة . بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ، ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، وهي مجاورة للبرية . (٣) الأنبار : في (الاصطخرى ص/٥٤) تقع شرقي الفرات ، وهي ذات نخل وزرع وشجر . وفي (ياقوت) ، أنها تقع غربي بغداد ، بينهما عشرة فراسخ . (٤) الموصل : في (الاصطخرى ص/٥٣) ، مدينة على غربي دجلة ، صحيحة التربة والهواء ، ليس لأهلها سوى ماء دجلة للشرب ، وليس لهم من دجلة زرع ولا شجر إلا الشيء اليسير في عدوة دجلة من شرفيها ، وزروعهم مباحس ، وفواكههم تحمل من سائر النواحي . وهي مدينة عامة أبنيتها بالجص والحجارة ، كبيرة غناء . (٥) ديار ربيعة : في (ياقوت) ، تقع بين الموصل ورأس عين نحو بقاء الموصل ، ونصيبين ، ورأس عين ، ودينسر ، والخابور جميعه وما بين ذلك من المدن والقرى . ويرجع بين ديار بكر وديار ربيعة ، وسميت كلها ديار ربيعة لأنهم كلهم (أى القبائل التى تسكنها) من ربيعة . وهذا الاسم لهذه البلاد قديم ، كانت العرب تحله قبل الإسلام في بواديها . (٦) الجزيرة : في (ياقوت) ، جزيرة أقور بالقاف ، وهي التى بين دجلة والفرات ، مجاورة للشام ، وتشتمل على ديار مضر . وديار بكر . وسميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات بهامدن جليلة ، وحصون وقلاع كثيرة ، ومن أمهات مدنها : حران ، والرقه ، والرها ، ورأس عين ، ونصيبين ، وسنجار ، والخابور ، وماردين ، وآمد ، وميافارقين ، والموصل . (٧) في الكامل (٨ / ص / ١٣٧) ، أن سليمان قصد حلب وحاصرها في مستهل ربيع الأول من السنة ، فأقام عليها إلى خامس ربيع الآخر فلم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها . (٨) بالأصل : أقطعها إياها . (٩) كان ذلك سنة ٤٧١ ، (الكامل ، ٨/ص/١٢٦) . (١٠) عن إقطاع تنش ، بيت المقدس ، لأرتق ، أنظر ، الكامل (٨/ص/١٣٤ / ١٣٥ / ١٤٠) . (١١) الرها : في (ياقوت) ، الرها ، بضم أوله والماء والقصير ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ . وفي باركر (ص/٥٦) أنها شديدة القرب من الطريق التجارى الكبير الذى يمتد على الفرات إلى الرقة ، ومنها يتفرع إلى طريقتين ، أحدهما يسير إلى أنطاكية ، والآخر يتجه إلى دمشق . (١٢) جاء الخبر عن ابن عطير والرها في الكامل (٨/ص/١٦ — حوادث سنة ٤٢٩) هكذا : « وفيها صالح ابن وثاب النخري — صاحب حران — الروم الذين بالرها لعجزه عنهم ، وسلم إليهم رضى الرها : وكان تسلمه على ما ذكرناه أولا (أنظر ، ص/١١ من المرجع) فتركوا من الحصن الذى للبلد إليه ، وكثر الروم بها ، وخاف المسلمون على حران منهم . وعمر الروم الرها العمارة الحسنة وحصنها » . (١٣) في الكامل (٨/ص/١٤٠) ، أن ملكشاه حصر الرها سنة ٤٧٩ ، وهو في طريقه إلى حلب للاستيلاء عليها بدعوة من أهلها .

سالم بن مالك بن بدران العقيلي — وهو ابن عم شرف الدولة — فسلها إلى السلطان بعد قتال ، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر ، وكان قد ملكها هذه السفرة من صاحبها جعبر النيرى ، وكان شيخاً كبيراً أعمى ، فبقيت (٩ — ب) بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى رضى الله عنهما ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . فلما ملك السلطان حلب ، أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكنانى (١) صاحب شيزر ودخل فى طاعته وسلم إليه لاذقية (٢) ، وفامية (٣) ، وكفرطاب (٤) فأجابه ملكشاه إلى الصلح وترك قصده . ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها ، وحماة ، ومنبج ، ولاذقية ، وما معها إلى قسيم الدولة آقسنقر فأقطعه الجميع ، فبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغى سيان ، وهو صاحب صلاح الدين محمد الباغيسيانى (٥) الذى صار (٦) أمير حاجب المولى الشهيد عماد الدين زنكى . ولما استقر (١٠ — أ) قسيم الدولة فى الشام ، ظهرت كفايته وحمايته وهيبته فى جميع بلاده . وأن السلطان استدعاه إلى العراق (٧) فقدم إليه فى تجميل عظيم لم يكن فى عسكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن ذلك منه ، وعظم محله عنده ، ثم أمره بالعود إلى حلب فعاد إليها ، ولما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت فملكها .

معرفة حسنة

يذكر أهل التواريخ أنه ليس من مشهورى (٨) العرب من قتل هو وأبوه وجده وجد أبيه ، غير عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد . فإن عبد الله قتله الحجاج ، والزبير رضى الله عنه قتل يوم الجمل ، وقتل العوام وخويلد فى الجاهلية . وليس من مشهورى الترك من هو هكذا ، غير (٩) قليج أرسلان [فقد] قتله جاولى سقاووا بالخابور غريقاً . وهذا سليمان قتله تاج الدولة تتش كما ذكرناه . وأما أبوه قتلش بن أرسلان بيغو (١٠ — ب) بن سلق (١٠) فقتله صاحب مدينة

-
- (١) بالأصل : الكنانى . (والتصحیح من ، الكامل ، ٨/ص/١٤١) . (٢) لاذقية : فى (ياقوت) ، اللاذقية ، بالذال المعجمة مكسورة وقاف مكسورة وياء مشددة . مدينة فى ساحل بحر الشام ، وهى غربى « جبلة » ، بينهما ستة فراسخ . وهى مدينة عتيقة رومية . فيها أبنية قديمة مكيمة . وهى بلد حسن فى وطاء من الأرض وله مرفأ جيد محكم وقلعتان متصلتان على تل مشرف على الرض ، والبحر على غربها وهى على ضفته . (٣) فامية : فى (ياقوت) ، أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص ويسمى بعضها فامية . (٤) كفرطاب : فى (ياقوت) ، بالطاء المهملة وبعد الألف باء موحدة . بلدة بين المعرة (معرة النعمان) ومدينة حلب فى برية معطشة ، ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار فى الصهارى . (٥) بالأصل : الباغيسانى ، (والتصحیح من اسم ياغى سيان ، الوارد فى النص نفسه . ومن الكامل ، ٨/ص/١٨٦) . (٦) بالأصل : الذى كان . وما بالأصل خطأ ، لأن صلاح الدين صار حاجباً لعماد الدين بعد أن ولى الموصل سنة ٥٢١ بينما الكلام هنا عن سنة ٤٨٧ . (٧) فى الكامل (٨/ص/١٥٩) أن ذلك كان فى سنة ٤٨٤ ، للاحتفال بالميلاد ببغداد . (٨) بالأصل : مشهور . (٩) بالأصل : غيره . (١٠) يرد هذا الاسم أيضاً فى النص ، هكذا : سلق . وكل من الرسمين يستعمله المؤرخون القدامى .

أستوا (١) لأنه جمع خلقا كثير من الأتراك وخرج على السلطان ألب أرسلان (٢) ، فلقبه صاحب أستوا (٣) فقاتله ، فانهزم قتلش وسقط عن فرسه فمات . وأما أبوه أرسلان ييغو بن سلاجق ، فإن صاحب غزنة من أولاد محمود (٤) بن سبكتكين أخذه فقتله ، وأخذ ابنه قتلش حتى خلصه الملك داود والد السلطان ألب أرسلان لما ملك خراسان .

ذكر قتل نظام الملك وزير السلطان ملكشاه رحمه الله

في عاشر رمضان سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، قتل الوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق ، قتله صبي ديلبي بعد الإفطار ، وقد تفرق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس ، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم ، فلقبه صبي ديلبي مستغيثا به فقربه (١١ — أ) منه ليسمع شكواه فقتله ، وقتل الصبي أيضاً ، فعدمت الدنيا واحدا الذي لم تر مثله . وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين ، إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته ، فاستبشر نظام الملك بذلك ، وأظهر السرور به ، وقال : هذا أبغى وإياه أطلب . وبلغ من الدنيا مبلغا عظيما لم ينله غيره .

وكان عالما ، فقيها ، دينيا ، خيرا ، متواضعا ، عادلا يحب أهل الدين ويكرمهم ويجزل صلاتهم . وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ، ويبحث عن غوامض المسائل ، لأنه اشتغل بالفقه في حياته مدة .

وأما صدقاته ووقوفه فلا حد لها ، ومدارسه في العالم مشهورة ، لم يخل بلد من شيء منها ، حتى جزيرة ابن عمر (٥) — التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه لها — بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة ، وهي الآن تعرف بمدرسة رضى الدين .

وأعماله (١١ — ب) الحسنة ، وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ ، لم يسبقه من كان قبله ولا أدركه من كان بعده ، رحمه الله ورضى عنه .

وكان من جملة عباداته أنه لم يحدث إلا تَوْضُأ ، ولا تَوْضُأ (٦) إلا وصلى . وكان يقرأ القرآن حفظا ، ويحافظ على أوقات (٧) الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة ، حتى إنه كان إذا أغفل المؤذن أمره بالأذان ، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه ، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة . وأما ابتداء أمره ، فإنه كان يحب التصرف ، فاتصل بأمرير كان صاحب بلخ يعرف بالأمير يآخر

(١) أستوا : في (ياقوت) ، بالضم ثم السكون وضم التاء المثناة وواو وألف . كورة من نواحي نيسابور .
(٢) بالأصل : أرب ألب أرسلان . (٣) بالأصل : استوى . (٤) خطأ «ديسلين» ما في النص واستبدل الاسم بمحمد بن سبكتكين . وهذا خطأ من «ديسلين» ، لأن عمدا لم يحكم أولاده في غزنة ، وإنما كان الحكم فيها لعقب غيره من أبناء سبكتكين . (أنظر ، زامباور) . (٥) جزيرة ابن عمر : (في ياقوت) : (٢/ص ٧٩ ، ٣/ص ١٠٢) ، بلدة فوق الموصل بينهما ثلاثة أيام ، ولها رستاق خصب واسع الحيرات . وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة شبه الهلال . ثم عمل هناك خندق أجرى فيه الماء ونصبت عليه رحي فأحاط بها الماء من جميع جوانبها بهذا الخندق . (٦) بالأصل : توضىء . (٧) بالأصل : الأوقات .

— وكان مقدم عسكر الملك جعري بك داود جد السلطان ملكشاه — وكان ياخر لا يعطيه إلا ما يقوم به حسب ، وفي آخر كل سنة يصادره بما يفضل معه ، فضجر من هذه الحال ، وأخفى أولاده — وكان له نحر الملك ومؤيد الملك — وركب فرسه وهرب . وكان فرسه (١٢ — أ) بطيئاً ، فدعا الله تعالى أن يرزقه فرساً يخلصه عليه ، فلم يسر إلا قليلاً حتى لقيه تركاني تحت فرس جيد فسلبه إليه وأخذ فرسه عوضه ، وقال له : يا حسن أذكر هذه . قال نظام الملك : فلما ركبت الفرس قويت نفسى ، وعلمت أن السعادة قد جاءت ، ووصلت إلى مرو ، ودخلت على الملك داود فأخذ بيدي وسلبنى إلى ولده الملك عضد الدولة ألب أرسلان وقال : تسلبه واتخذه والداً لا تخالفه . ثم إن الأمير ياخر سأل عنى فلم يجدنى وأخبر بهربى ، فسار بنفسه فى طلبى حتى دخل على الملك داود فطلبنى منه ، وقال : إنه أخذ ما لى وهرب ، فقال له داود : حديثك مع ولدى ألب أرسلان ، فلم يحسر يخاطبه فيه . ووزر (١) نظام الملك للسلطان ألب أرسلان قبل أن يلى السلطنة فى حياة عمه السلطان طغرلبك . فلما توفى طغرلبك سعى نظام (١٢ — ب) الملك فى أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان ، وقام المقام الذى تعجز عنه الجيوش والكثرة ، واستقرت السلطنة له ، وبقي معه إلى أن توفى . ثم وزر بعده لابنه السلطان ملكشاه إلى أن قتل . وكان قد تحكم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه لكثرة مما لىكه ومحبة الأمراء والعساكر له ، وميل عامة الناس وخاصتهم إليه بحسن سيرته وعدله .

ذكر وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان رضى الله عنه

فى منتصف شوال سنة خمس (٢) وثمانين [وأربعمئة] توفى السلطان ركن الدين ملكشاه رضى الله عنه . وسبب وفاته أنه أكل لحم صيد فأكثر منه ، فأخذته حمى حادة فتوفى منها . وكان مولده [فى] جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأربعمئة ، فكان عمره ثمانية (٣) وثلاثين سنة وستة أشهر . وكان ملكه نحو عشرين سنة .

وكان أحسن الناس صورة ومعنى (١٣ — أ) ويكفيه أن من جملة حسناته ، نظام الملك ، وكانت سعادتهما متقارنة (٤) . حكى لى والدى رحمه الله تعالى — ثم لى (٥) رأيت ما حكاه بعد ذلك مذكوراً فى كتب التواريخ (٦) — قال : إن السلطان ملكشاه عتب على نظام الملك فى شىء فعله بعض أولاده ، وقال له فى جملة عتبه : إن كنت شريكى فى الملك فعرفنى ، وإن كنت وزيرى فاسلك ما يسلكه الوزراء وإلا أطبقت دواتك وعزلتك . فقال للرسول : قل للسلطان عنى ، إن كنت ما تعلم أنتى شريكك فاعلم ، واذكر ما فعلت معك حين خرج عليك أعمامك وإخوتك ونازعوك فى الملك وكادوا يقهرونك ، فتوليت ردهم بنفسى ، وقمت المقام الذى تعلمه حتى صفا لك الملك والسلطنة ، وذكر له عدة مواقف جزع فيها ملكشاه وخاف ، فردها نظام

(١) بالأصل : وزر : (٢) بالأصل : خمسة . (٣) بالأصل : ثمانية . (٤) بالأصل : متقاربة . (٥) بالأصل : إن . (٦) لعل ابن الأثير يقصد كتاب « المنتظم » لابن الجوزى . فخر مقتل ملكشاه ، كما جاء فى السكامل (١٦٣ / ص / ٨ / ح) يطابق خبر ابن الجوزى (٦٩ / ص / ٦٩) ويتفق معه فى كثير من المعلومات والألفاظ .

الملك بالرأى والحرب، فأين كان هذا [من] كلامه ذلك الوقت. وأما قوله إنه يطبق (١٣ - ب) الوقت دواقي (١)، فقل له : أعلم أن هذه الدواة متعلقة بزر قلنسوته التي على رأسه، فمتى أطبق هذه سقطت تلك. فيقال إن هذا كان سبب قتل نظام الملك، وأن السلطان وضع ذلك الديبلى حتى قتله، وصح قول نظام الملك، لما طبقت دواته لم يعش السلطان غير خمسة وثلاثين يوماً ومات. وكان هذا كالكرامة لنظام الملك. وكانت (٢) مملكة السلطان ملكشاه قد (٣) اتسعت [اتساعاً] عظيماً، أطاعته (٤) البلاد جميعها وملكها، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه الين والحجاز، وكان يأخذ خراج ملك القسطنطينية كل سنة، وأطاعه صاحب طراز (٥)، وأسبيج (٦)، وكاشغر (٧)، وبلاساغون (٨) وغيرها من الممالك البعيدة، وملك (٩) سمرقند (١٠) وجميع ما وراء النهر (١١). ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر (١٤ - أ) هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان. وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر كثيراً، منها ما أصلحه وعمله من المصانع (١٢) بطريق مكة، وحفر من الأنهار، وبني مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة. رضى الله عنه، وبني الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة. وهو الذي بنى منارة القرون (١٣) في طرف البر بما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبيع (١٤)، وبني مثلها بسمرقند أيضاً. ولما مات ضببطت زوجته [تركان (١٥)] خاتون العسكر، وكتمت موته فلم يلطم أحد وجهها، ولم يشق عليه ثوب، ولم يسمع بسلطان مثله توفي فلم يصل أحد عليه. ولم يجلس أصحابه للغزاء سواه. وأرضت زوجته العسكر وحلفتهم لولدهما محمود، وعمره أربع سنين، وسارت إلى أصفهان.

(١) بالأصل : دواقي . (٢) بالأصل : فكانت . (٣) بالأصل : وقد . (٤) بالأصل : اطاعة . (٥) : طراز : في (ياقوت) : قال أبو سعد ، بالفتح ، ورواه غيره بالسكسر وآخره زاي لاجعاً ، بلد قريب من أسبيج من ثغور الترك . (٦) أسبيج : في (ياقوت) : أسبيج ، بالفتح ثم السكون وكسر الفاء (تلاحظ أنه ذكرها في « طراز » بالياء) وباء ساكنة وجيم وألف وباء موحدة . اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان ، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة . (٧) كاشغر : في (ياقوت) : مدينة وقرى ورساتيق ، يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي . وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون . (٨) بلاساغون : في (ياقوت) : السين مهملة والغين معجمة . بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيجون قريب من كاشغر . (٩) بالأصل : والملك . (١٠) سمرقند : في (ياقوت) : بفتح أوله وثانيه . ويقال لها بالعربية « سمران » . بلد معروف مشهور بما وراء النهر ، وهو قصبه الصفد ، مبنية على جنوبي وادي الصفد مرتفعة عليه . وينقل ياقوت عن الأزهري : بناها شمر أبو كرب ، فسميت « شمركنت » ، فأعربت فقيل : سمرقند ، هكذا تلفظ به العرب في كلامها وأشعارها . (١١) ما وراء النهر : في (ياقوت) : يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان . فما كان في شرقيه يقال له بلاد الهياطلة ، وفي الإسلام سموه ما وراء النهر . وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم . وخوارزم ليست من خراسان إنما هي إقليم برأسه . وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأكثرها خيراً . (١٢) المصانع : هي الصهاريج التي يخزن فيها الماء . ففي الكامل (ح/٩/ص/٨٨) أن جمال الدين وزير الموصل ، المتوفى سنة ٥٥٩ هـ ، « عمل بعرفات مصانع للماء وأجرى إليها الماء من نهران ... » (١٣) منارة القرون : سميت هكذا لأن السلطان ملكشاه وضع فيها قرون الظبي وحوافر الحمر الوحشية التي صادها في هذه المنطقة عندما خرج لتوديع الحجاج في إحدى السنين . (الروضتين ، ح/١/ص/٥٦) . (١٤) بالأصل : السبيعي . والتصحيح من (ياقوت) ، حيث يذكر : محلة السبيع . بفتح أوله وكسر ثانيه ثم ياء وآخره عين مهملة . وهي المحلة التي كان يسكنها الحجاج بن يوسف الثقفي . وهي مسماة بقبيلة السبيع ، رهط أبي أسحاق السبيعي . (١٥) الإضافة من (الكامل ح/٨/ص/١٦٢) .

وظهر الملك بركياروق بن ملكشاه - وهو الأكبر - فطلب السلطنة فأخذها (١٤-ب) وتوفي محمود. ثم ظهر السلطان محمد بن ملكشاه، فنزع أخاه بركياروق، وجرت بينهما حروب كثيرة دامت نحو اثنتي عشرة سنة، إلى أن توفي بركياروق واستقرت السلطنة لمحمد (١). وفي مدة تلك الحروب ظهر الفرنج إلى الساحل، وملكوا أنطاكية (٢) أولاً ثم غيرها من البلاد، وقد استوفينا ذلك في المستقصى في التاريخ.

ذكر صلاح قسيم الدولة آقسنقر

وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان وما شهدته من الحروب معه (٣)

قد ذكرنا أن السلطان ملكشاه كان قد أقطع أخاه تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس وغيرها، فلما توفي ملكشاه واختلف أولاده وهم صغار، جمع تاج الدولة العساكر وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر، فعلم قسيم الدولة أن أولاد صاحبه صغار، وأن الملك لا يستقيم لهم لصغرهم (١٥-أ) وللخلف الواقع بينهم، ولم يكن له طاقة بتاج الدولة فصالحه وخطب له بحلب، وراسل نور الدين [بوزان (٤)] صاحب حران وياغى سيان صاحب أنطاكية يشير عليهما بطاعة تاج الدولة حتى ينظروا ما يكون من أولاد ملكشاه، ففعلوا ذلك، وساروا معه نحو الرجة فملكها، وخطب لنفسه بالسلطنة في محرم سنة ست وثمانين وأربعمائة. ثم سار إلى نصيبين فحصرها، فسهب أهلها ففتحها عنوة وقهرأ، وقتل بها خلقاً كثيراً، واستناب [بها] محمد بن شرف الدولة العقيلي.

وراسل ناصر الدولة إبراهيم بن قريش بن بدران - وهو صاحب الموصل حينئذ - يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع عليه، وسار كل واحد منهما إلى صاحبه، فالتقيا بالمضيق من بلد الموصل، وكان على ميمنة تاج الدولة، قسيم الدولة آقسنقر، وعلى ميسرته بوزان، فحملت العرب على بزان فانهزم، وحمل قسيم الدولة (١٥-ب) على العرب مما يليه فهزمهم، وأسر إبراهيم وجماعة من أمراء العرب، فقتلهم تاج الدولة صبراً وملك بلادهم جميعها، الموصل وغيرها. وسار في ربيع الآخر من هذه السنة إلى ميفارقين (٥) فملكها وسائر بلاد ديار بكر.

(١) عن خلاف البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه، أنظر، الكامل، (١٦٤/ص/٨)، و١٠ بعدها).
(٢) كانت لغارة الصليبيين على الشام سنة ٤٩١، واستولوا على أنطاكية في نفس السنة. (٣) لم يذكر ابن الأثير خبر الخصومة بين قسيم الدولة وتاج الدولة تتش في هذا الكتاب، وإنما ذكره في الكامل (١٦٠/ص/٨) في أخبار سنة ٤٨٥، تحت عنوان: « ذكر استيلاء تتش على حمص وغيرها من ساحل الشام ». (٤) الإضافة من الكامل (١٦٧/ص/٨).
(٥) طبعة محمد فريد رفاعي. ولقب بوزان صلة قديمة، فقد كان كل منهما من ممالك السلطان ملكشاه. (ابن خلكان، ٢٥٢/ص/١ - ٢٥٣/ص/١) وقب بوزان عند ابن واصل (١٩/ص/١): مجاهد الدولة. (٥) ميفارقين: في (ياقوت): بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء، وبعد الألف راء وقاف مكسورة وياء ونون. أنها بالقرب من آمد، وأشهر مدينة بديار بكر (٢١٦/ص/٨).

ثم سار منها إلى أذربيجان (١) فقصده الملك ركن الدين بركياروق — وكان قد ملك كثيراً من البلاد منها: الري وهمذان وما بينهما — فلما تقارب العسكران ، قال قسيم الدولة لبوزان : إنما أطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من أولاد (٢) صاحبنا ، والآن فقد ظهر بركياروق ، والرأى والمروءة تقتضى بأننا نقصده ونكون معه ، ففارقا (٣) تاج الدولة وسارا إلى بركياروق وصارا معه ، فلما رأى تاج الدولة ذلك ، رجع إلى الشام ، وأقام قسيم الدولة عند بركياروق ، فخرج عليه خاله إسماعيل بن ياقوق ثم أطاعه ، فخلا به قسيم الدولة وبوزان وبسطوه في الحديث (١٦ — أ) فأعلمهم أنه يريد السلطنة وقتل بركياروق ، فوثبا عليه فقتلاه محافظة على صاحبهما ، ثم أمرهما ركن الدين بالعود إلى الشام لينعما (٤) تاج الدولة عن البلاد إن قصدها فعادا .

ذكر وفاة أمير المؤمنين المقتدى بأمر الله وولاية ابنه المستظهر بالله

في المحرم (٥) من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، توفي الإمام المقتدى بأمر الله أمير المؤمنين رضى الله عنه فجأة . واسمه أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله . وعمره تسع (٦) وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام .

وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة (٧) أشهر .

وأنشأ ببغداد عدة محال ، منها : البصلية ، والبساتين التي كانت بباب الأزج ، والحلبة ، والأجمة ، ودرب القيار ، والمقندية ، وخرابة ابن جردة ، والخاتونية (٨) .

وهو استوزر نخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جبير ، وهو من الموصل . وكانت (٩) خلافته بعهد من جده القائم بأمر الله (١٦ — ب) أمير المؤمنين ، وأمه تركية . وكان لين الجانب ، كثير الحلم . وعاش وادعا مرفها .

وتوفي وتعلم على منشور السلطان بركياروق بالسلطنة (١٠) . وكنتم القهر مائة شمس النهار موته ، وأحضرت الوزير وأعيان الدولة وجددت البيعة لأولده أبي العباس أحمد المستظهر بالله أمير المؤمنين ، فلما بايعوا أظهرت وفاة المقتدى .

ولما بويع المستظهر بالله أرسل إلى السلطان بركياروق لأخذ البيعة — وكان ببغداد — فأنفذ بركياروق وزيره عز الملك (١١) بن نظام الملك والأمير برسق (١٢) وكوهرائين شحنة بغداد ، فبايعوا ،

- (١) بالأصل : اذربيجان . (والاسم مخرف في النص باستمرار) . (٢) بالأصل : اولاده . (٣) في ابن العديم (ح / ٢ / ص / ١٠٨) ، أن سبب انفصال قسيم الدولة وبوزان عن تاج الدولة هو تقريره ياغيسيان وميله إليه . وقيل أنه لم يولهما شيئاً من البلاد التي فتحها . فتركاه لهذا السبب . (٤) بالأصل : لينعنا . (٥) في السكامل (ح / ٨ / ص / ١٧٠) ، أن وفاته كانت في يوم السبت خامس عشر المحرم . (٦) في السكامل (ح / ٧ / ص / ١٧٠) ، ثمان وثلاثون . (٧) في السكامل (ح / ٨ / ص / ١٧٠) ، وثمانية أشهر غير يومين . وما في النص أصح لأن المقتدى بويع بالخلافة يوم الخميس ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ ، وتوفي يوم السبت ١٥ محرم سنة ٤٨٧ . (٨) في السكامل (ج / ٨ / ص / ١٧٠) والخاتونيتين . (٩) بالأصل : وكانة . (١٠) بالأصل : وبالسلطنة . (١١) بالأصل : وعز الملك . (١٢) بالأصل : يرسق ، (والتصحيح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ص / ٦٥) .

ثم بايع هو ، فلما تمت بيعة السلطان أحضر الغزالي (١) والشاشي (٢) وغيرهما من العلماء فبايعوا .
ثم أرسل إلى غزنة ، وما وراء النهر ، وكرمان ، والشام لأخذ البيعة .
ولما استخلف (٣) أقر عميد الدولة بن جهير على وزارته .

ذكر نسب المستظهر بالله (٤)

هو المستظهر بالله (١٧ — أ) أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم أبي إسحاق بن محمد الرشيد أبي جعفر هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم ، بينه وبين العباس عشر خلفاء ووليا عهد ، وأربعة لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد .

فأما الخلفاء : فالمقتدى ، والقائم ، والقادر ، والمقتدر ، والمعتضد ، والمتوكل ، والمعتصم ، والرشيد ، والمهدي ، والمنصور .

وأما وليا (٥) العهد : فالذخيرة محمد بن القائم — وهو والد المقتدى بأمر الله — (١٧ — ب) والموفق الناصر لدين الله أبو أحمد بن المتوكل — وهو جد المقتدر بالله — .
وأما الذين لم يلوا الخلافة ولا ولاية العهد : فإسحاق — والد القادر بالله — ، ومحمد — والد المنصور — ، وأبوه علي ، وعبد الله بن العباس .

وقد ولي الخلافة من بنى العباس من غير آباء المستظهر سبعة عشر (٦) خليفة ، وهم : أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح (٧) — أول خلفاء بنى العباس — ، والهادي موسى بن المهدي ، والأمين محمد والمأمون عبد الله ابنا الرشيد ، والواثق — وهو أخو المتوكل — . ثم المنتصر والمعتز والمعتمد أولاد المتوكل . ثم المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم — وهو ابن أخى المتوكل — . ثم المهتدي محمد بن الواثق ابن المعتصم . وولى المستكنى علي بن المعتضد بالله وأخوه القاهر بالله . ثم ولى الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وأخوه المتقي بالله أبو إسحاق إبراهيم . ثم ولى المستكنى بالله عبد الله (١٨ — أ) ابن المستكنى بالله بن المعتضد بالله . ثم ولى المطيع لله أبو القاسم الفضل ، وولده الطائع لله أبو بكر عبد الله .

(١) هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي ، توفي سنة ٥٠٥ . (أنظر ترجمته في شذرات الذهب ، ٤/ص/١٠) . (٢) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين شيخ الشافعية ، المعروف بالمستظهرى . توفي سنة ٥٠٧ . (أنظر ترجمته في شذرات الذهب ، ٤/ص/١٦) . (٣) بالأصل : استخلف . (٤) : أسقط « دى سلين » نسب الخليفة المستظهر بالله في طبعته . وقد أشار في (ص/٢٨) أنه حذفه لأنه لا جديد فيه ، ولا يتصل في شيء بتاريخ الحروب الصليبية . (٥) بالأصل : ولى . (٦) بالأصل : سبع عشرة . (٧) بالأصل : ابن السفاح (والتصحیح من شذرات الذهب ، ٤/ص/١٩٤) .

ذكر قتل قسيم الدولة آقسنقر رضى الله عنه

في جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وأربعمائة ، قتل قسيم الدولة آقسنقر وبوزان صاحب حران . وكان سبب قتلها ، أن تاج الدولة تنش لم يزل يجمع العساكر بعد عوده من أذربيجان إلى الآن ، فكثرت جمعه ، وعظم حشده ، وسار عن دمشق نحو حلب ، فاجتمع قسيم الدولة وبوزان وأمدهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كرى بوغا (١) - وهو الذى صار فيما بعد صاحب الموصل - فلما اجتمعوا وبلغهم مسير تاج الدولة عن دمشق ، تقدموا نحوه والتقوا برويان [على] نهر سبعين (٢) بالقرب من تل السلطان ، بينه وبين حلب نحو ستة فراسخ ، واقتتلوا واشتد القتال ، فحاصر بعض عسكر قسيم الدولة وانهمزوا (١٨ - ب) وتبعهم الباقون ، وثبت قسيم الدولة فأخذ أسيرا وأحضر عند تاج الدولة ، فقال له : لو ظفرت بى ما كنت صنعت . قال : كنت أقتلك . قال : فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم على فقتله صبورا . وسار نحو حلب ، وكان قد دخل إليها الأمير كرى بوغا وبوزان فحفظاها (٣) منه ، ولج في قتالها حتى ملكها وأخذها أسيرين ، وأرسل إلى حران والرها ليملكهما - وكانتا لبزان - فامتنع من بهما (٤) من التسليم إليه ، فقتل بوزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين . وأما كرى بوغا فإنه أرسله إلى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة .

وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظا لهم . وكانت بلاده بين عدل عام ، ورخص شامل ، وأمن (٥) واسع ، وكان قد شرط على أهل كل قرية فى بلاده ، متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس ، غرم أهلها جميع (١٩ - أ) ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير ، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقيوا رحالهم وناموا ، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ، فأمنت الطرق ، وتحديث الركبان بحسن سيرته . وأما وفاءه وحسن عهده فكفاه (٦) فخرا أنه قتل فى حفظ بيت صاحبه وولى نعمته .

ذكر حال عماد الدين (٧) زنكى بعد [قتل] والده رضى الله عنهما

لما قتل قسيم الدولة آقسنقر ، لم يخلف من الأولاد غير ولد واحد ، وهو المولى الشهيد عماد الدين زنكى ، وكان حينئذ صبيا له من العمر نحو عشر سنين ، فاجتمع عليه بمالك والد وأصحابه ، وفيهم زين الدين على ، وهو صبي أيضا .

ثم إن الأمير كرى بوغا خلاص من السجن بحمص بعد قتل تاج الدولة سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وتوجه إلى حران - وقد اجتمع معه عسكر صالح - فملكها . ثم صار إلى نصيبين فملكها أيضا .

(١) جاء رسمه أيضا فى النص : كرى بوغا . وكل من الرسمين مستعمل عند المؤرخين القدامى .

(٢) بالأصل : برويان ونهر سبعين . (٣) بالأصل : فحفظها . (٤) بالأصل : بها .

(٥) بالأصل : أمر . (والتصحيح من السكامل ، ح/٨/ص ١٧١) . (٦) بالأصل : فكفيه .

(٧) بالأصل : ذكر حال ولده عماد الدين ... (وقد حذف المحقق اللفظ : ولده ، لعدم ضرورته فى العنوان) .

ثم إلى الموصل فملكها (١) وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، (١٩ — ب) فإنه كان مالكا لها. وسار نحو ماردين فملكها أيضا.

وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدين بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر ممالك (٢) قسيم الدولة آقسنقر، وأمرهم بإحضار عماد الدين زنكي. وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربته، فأحضره عنده، فأقطعهم الإقطاعات السنوية وجمعهم على عماد الدين زنكي، واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزلوا معه.

ثم أن كربوقا (٣) توجه إلى آمد وصاحبها من أمراء التركان، فاستنجد صاحبها بمعين الدولة سقمان بن أرتق (٤) — جد صاحب الحصن يومنا هذا (٥) —، فجمع من التركان خلقا كثيرا وسار نحو آمد وتصاف هو وقوام الدولة كربوقا، فرأى كثرة التركان فخافهم، فأخذ عماد الدين زنكي وألقاه بين ممالك والده، وقال لهم: قاتلوا عن ابن صاحبكم، فحينئذ اشتد قتالهم وحمى الوطيس (٦) فهزموا سقمان وأسروا ياقوتى (٢٠ — أ) ابن أخيه، فحبسه كربوقا ثم أطلقه. وكان هذا أول مصاف حضرة الشهيد عماد الدين بعد قتل والده. ولم يزل عماد الدين [مع] كربوقا إلى أن توفي (٧) سنة أربع وتسعين وأربعمائة (٨).

وملك بعده موسى التركاني (٩) من أصحابه، فلم تطل أيامه وقتل. ومملك الموصل شمس الدولة جكرمش (١٠) — وهو أيضا من ممالك السلطان ملكشاه — وأخذ الشهيد عماد الدين وقربه وأحبه، واتخذ ولد المعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسائة. ولا جرم أن الشهيد قدس الله روحه، رعى هذا الجكرمش (١١) لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كورى (١٢)، فأكرمه وقدمه وأقطعه إقطاعا كثيرا، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذ صهرا.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش، جاولى سقاوا (١٣) فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر فظهرت عليه أمارات السعادة (٢٠ — ب) والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان

(١) في الكامل (ج/٨/ص/١٨٠)، أنه ملكها في ذى القعدة سنة ٤٨٩. (٢) بالأصل: ممالك. (٣) بالأصل: أمر. (٤) كان سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وآمد من سنة ٤٩٥ إلى سنة ٤٩٨ (زامباور). وقد توفي سنة ٤٩٨. (انظر ترجمته في شذرات الذهب، ج/٣/ص/٤٠٩). (٥) كان صاحب حصن كيفا في سنة ٦٠٧ — وهى السنة التى ألف فيها ابن الاثير كتابه هذا — هو ناصر الدين محمود بن محمد الأرتقى (٥٩٧ — ٦١٩ (زامباور). (٦) بالأصل: القطيس. (٧) بالأصل: توفى. (٨) في الكامل (ج/٨/ص/٢١٠) أن كربوقا توفي في ذى القعدة سنة ٤٩٥. (٩) كان موسى التركاني نائبا عن كربوقا بحصن كيفا، فلما مات كربوقا كاتبه أعيان الموصل ليسلموا إليه البلد، فسار إليه وقتل سنقرجه الذى عهد إليه كربوقا بالموصل عند وفاته، وتسلم البلد. وقد قتل موسى في نفس السنة (الكامل، ج/٨/ص/٢١٠). (١٠) كان جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر، فقاتل موسى التركاني وهزمه، واستولى على الموصل بعد أن قتل موسى بيد بعض الغلمان القوامية. (الكامل، ج/٨/ص/٢١١). (١١) بالأصل: الجكرمش. (١٢) بالأصل: السورى. (والتصحيح من الروضتين، ج/١/ص/٢٧). (١٣) ملك جاولى الموصل من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٠٢.

جاوولى قد عبر إلى الشام ليلسكه من الملك رضوان . فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود [بن التونتكين (١)] وأقطعه إياها سنة ثنتين (٢) وخمسمائة ، فلما اتصل الخبر بجاوولى فارقه الشهيد وغيره من الأمراء ، وفيهم الأمير التونتاش الأبرى ، وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك أكرمه وأعظمه وأكثر إقطاعه . فحكى لى والدى قال : كنت أراه إلى جانب المولى الشهيد لا يتقدم عليه أحد من الأمراء ، وله عقب بالموصل إلى الآن فى خدمة الدولة القاهرة (٣) .

فلما استقر الأمير مودود بالموصل ، واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له ذلك ، مضافاً إلى منزلة أبيه ، ولما رأى منه من العقل والشجاعة ، فزاد فى إقطاعه وشهد معه خروبه . فمما بلغنى منها ، أن الأمير مودوداً سار إلى الغزاة بالشام (٤) ففتح فى طريقه قلاعاً من شبختان (٥) كانت للفرنج (٢١ - أ) وقتل من بها منهم ، ثم سار إلى الرها فحصرها ولم يقدر على فتحها ، وكانت عقيلة ومكرمة وفضيلة قد ادحرها الله سبحانه وتعالى للمولى الشهيد .

فاستوضحت سبل الآمال حايدة	عن الملوك إلى أعلام حسبها
أبهرهم (٦) فضلاً ، أغرهم (٧) بذلاً	أنغرهم (٨) [أبدأ] فعلاً ومنتسباً
أشتم (٩) أشوس مضروباً (١٠) سرادقه	على الممالك مرخى (١١) دونها الحجباً
ممتنع (١٢) العز ، معمور الفناء [به]	مظفر العزم ، والآراء منتخبا
من معشر طالما شبوا (١٣) بكل وغى	ناراً يظل (١٤) أعاديهم لها خطبا

ثم إن الأمير مودوداً رحل عنها وعبر الفرات (١٥) إلى الشام ، فحصر تل باشر (١٦) خمسة وأربعين يوماً ولم يبلغ منها غرضاً . ثم سار عنها إلى معرة النعمان (١٧) فحصرها ، وجاء إليه الأمير طغديكين (١٨) صاحب دمشق ، فلما رأى كثرة عسكره خاف أن يأخذ منه دمشق (١٩) ، فشرع فى

- (١) الإضافة من ، الكامل (٢٥٢/ص/٨/ح) (٢) بالأصل : ستين .
 (٣) أى دولة الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاء صاحب الموصل (٦٠٧ - ٦١٥) .
 (٤) سنة ٥٠٥ . (الكامل ، ٢٦٢/ص/٨/ح) (٥) بالأصل : شختان (والاسم محرف بالأصل باستمرار)
 (٦) بالأصل : ثم أبهرهم . (٧) بالأصل : واغرهم . (٨) بالأصل : وأنغرهم . (٩) بالأصل : اشتم .
 (١٠) بالأصل : مضروباً . (١١) بالأصل : مرخ . (١٢) بالأصل : ممتنع . (١٣) بالأصل : شبق .
 (١٤) بالأصل : بطل . (١٥) بالأصل : الفرات . (ويرد الاسم بالأصل بانباء المربوطة باستمرار) .
 (١٦) تل باشر : فى (ياقوت) : قلعة حصينة ، وكورة واسعة فى شمالى حلب ، بينها وبين حلب يومان ، وأهلها نصارى وأرمن ، ولها رىض وأسواق ، وهى عامرة آهلة . (١٧) معرة النعمان : فى (ياقوت) : « مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص ، وتقع بين حلب وحماء » . وكان حصار تل باشر ومعرة النعمان سنة ٥٠٥ .
 (الكامل ، ٢٦٢/ص/٨/ح) . (١٨) هو ظهير الدين طغديكين . كان من أمراء تاج الدولة تنش السلجوق صاحب دمشق ، وزوجه تنش بأم ولده دقاق ، ثم صار أتابكاً لدقاق . ولما مرض دقاق مرض الموت أوصى بولاية طغديكين على دمشق وحضانة ابنه الصغير تنش (الثانى) وتوفى طغديكين سنة ٥٢٢ . (مرآة الزمان ، ج٨/ص/١١) ، (شذرات الذهب ، ج٤/ص/٦٥) . ويرسم ابن الأثير وغيره من المؤرخين اسم طغديكين : طغتكين (بالتاء المثناة) وكل من الرسامين مستعمل عند المؤرخين . (١٩) فى الكامل (٢٦٣/ص/٨/ح) : « ونزل على الأمير مودود ، فاطلع من الأمراء على نيات فاسدة فى حقه ، فخاف أن تؤخذ منه دمشق » .

صلح الفرنج سرّاً من مودود فصالحوه ، وكانوا قد ضعفوا (٢١-ب) عن قتال المسلمين لكثرتهم فإن السلطان محمدآ ، كان قد أمد الأمير مودودآ بعسكر مقدمهم الأمير سبكان القطبي صاحب تبريز وغيرها ، فرض سبكان واشتد مرضه فعاد ، فأدركه الموت ببالس (١) ، فأخذ أصحابه تابوته وقصدوا بلاده ، فاعتزضهم إيلغازى (٢) بن أرتق ليأخذهم ، فصافوه (٣) وجعلوا تابوت سبكان في القلب كما كان حياً ، وقتلوا فظفروا ، وانهمز إيلغازى وعادوا إلى بلادهم .

فلما رأى مودود تفرق العساكر ، واصلح طغديكين [للفرنج] ضعفت نفسه وعاد عن الفرنج ، ولم يكن في عسكره من ظهر اسمه غير الشهيد ، وأذن لعسكره في العود والإستراحة ثم الاجتماع لقتال الفرنج فتفرقوا .

وراسل (٤) [مودود] طغديكين وأصلحه وجمع العساكر وعاد إلى الشام ، وحضر عنده أتاك طغديكين وساروا جميعاً إلى طبرية (٥) وحصروها وقتلوا قتالا شديداً (٦) . وظهر (٧) من أتاك (٨) الشهيد رضى الله عنه شجاعة لم يسمع بمثليها (٢٢ - أ) فمنها : أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد ، فحمل عليهم هو ومن معه ، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه وتقدم وحده ، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد ، ووصل رحه إلى الباب فأثر فيه وقتلهم عليه ، وهو ينتظر وصول من كان معه ليقاتلوا الفرنج ويتقدم باقي العسكر فيملكون البلد ، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً ، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخرآ ، وهذه الحادثة مشهورة بالشام لاسيما عند الفرنج .

وجمع الفرنج فرسانهم ورجالتهم وملوكهم وقمامصتهم ، فيهم الملك بردويل (٩) صاحب القدس ، وعكا (١٠) ، وصور (١١) وغيرها ، وجوسلين صاحب تل باشر والرها وغيرها ، فتصافوا ثالث

- (١) بالس : في (ياقوت) : بلدة بالشام بين حلب والرقّة ، بينها وبين الفرات أربعة أميال . (٢) هو إيلغازى ابن أرتق بن أ كسب ، صاحب مارددين . توفي سنة ٥١٦ هـ . وكان له جهاد مشكور في قتال الصليبيين . ترجمته في شذرات الذهب (ح / ٤ / ص / ٤٨ ، الكامل ح / ٨) وأخباره في الكامل موزعة على السنين . (٣) بالأصل : فصافوه . (٤) بالأصل : وأرسل . (٥) طبرية : في (ياقوت) : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة ببجيرة طبرية ، وهى في طرف جبل ، وجبل الطور مطل عليها . وهى من أعمال الأردن في طرف الغور . بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين بيت المقدس ، وبينها وبين عكا يومان . وهى مستطيلة على البحيرة ، عرضها قليل حتى تنتهى إلى جبل صغير ، فعنده آخر العبارة . (٦) كانت موقعة طبرية سنة ٥٠٧ هـ (الكامل ، ح / ٨ / ص / ٢٦٦) (٧) بالأصل : ظهر . (٨) المقصود به عماد الدين زنكى . وقد لقب بهذا اللقب ، لقيامه على تربية الملك ألب أرسلان بن السلطان محمد السلجوقى ، وذلك حين ولاء السلطان محمود لأمرة الموصل سنة ٥٢١ هـ . وأتاك . لفظ تركى مركب من مقطعين : « آنا » أو « آطا » ومعناه « أب » و « بك » ومعناه « أمير » (صبح الأعشى ، ح / ٤ / ص / ١٨) فاللقب معناه « الأب الأمير » . (٩) بردويل : ذكره ابن الأثير في الكامل (ح / ٨ / ص / ٢٦٦) ، بغدوين . (١٠) عكا : في (ياقوت) : عكة . بفتح أوله وتشديد ثانيه . اسم بلد على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) من عمل الأردن . وينقل ياقوت عن البشارى : أنها مدينة حصينة ، ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون — وقد رأى « صور » ولمستدارة الحائط على مينائها — فأحب أن يتخذ لعكة مثل تلك الميناء . (١١) صور : في (ياقوت) : بضم أوله وسكون ثانية وآخره راء . مدينة مشهورة ، كانت من غور المسلمين . وهى مشرفة على بحر —

[عشر (١)] [محرم [سنة ٥٠٧ (١)] عند بحيرة طبرية ، فظفر المسلمون وانهزم الفرنج لعنهم الله ، ووصلوا إلى مضيق دون طبرية فاجتمعوا به ولم يكن فيه سعة ، فتبعهم (٢) (٢٢-ب) المسلمون . فلما كان من الغد وصل إلى الفرنج عسكر قوى من أنطاكية وغيرها ، فقويت نفوسهم واحتموا ، وحصرهم المسلمون وهم على رأس جبل [غرب طبرية (٣)] والمسلمون في الغور ، وصابروهم ستة وعشرين يوماً ، واشتد الحر على المسلمين لمقامهم في الغور ، فرحلوا نحو بيسان (٤) ، فنزل إليهم الفرنج وتوافقوا خمسة أيام ، وانقطعت المائدة عن المسلمين لبعدهم عن بلادهم ، فعادوا إلى مرج الصفر ، وأذن الأمير مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع ، فلما تفرقوا دخل دمشق (٥) ، وأقام بها ، فخرج يوماً يصلى الجمعة ، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طغديكين ، وثب عليه إنسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات (٦) ، وكان صائماً فحمل إلى دار طغديكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل ، وقال : لا لقيت الله إلا صائماً ، فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت . وتوفي (٧) في بقية (٢٣ - أ) يومه رحمه الله . فقيل إن الباطنية بالشام خافوه فقتلوه ، وقيل بل خافه طغديكين فوضع عليه من يقتله .

وكان خيراً عادلاً حسن السيرة . فحدثني والدى رحمه الله تعالى قال : كتب ملك الفرنج إلى طغديكين يقول له : إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها ، لحقيق (٨) على الله أن يبيدها (٩) . فلما قتل الأمير مودود ، أقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للأمر جيوش بك ، وسير معه ولده الملك مسعوداً إلى الموصل ، ثم إنه جهز آقسنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج . وكتب [إلى] عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه ، فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين زنكي ، وكان يعرف في عساكر العجم بزنسكي الشامي (١٠) ، وكان قد ظهر عنه من الشجاعة ما لا يوصف ، لاسيما بعد ما فعله بطبرية ، فلما اجتمعت العساكر على البرسقي ، سار إلى الرها في خمسة عشر ألف فارس ، فحصرها (١١) وقاتل من بها من الفرنج (٢٣ - ب) والأرمن ، فضاقت الميرة عن العسكر ، فرحل إلى سميساط (١٢) ، وهي أيضاً للفرنج ، فأخرب بلدها وبلد

الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الجانب الرابع ، الذي منه شروع بابها . وهي حصينة جداً ركيئة ، لا سبيل إليها إلا بالخذلان . وهي معدودة في أعمال الأردن ، بينها وبين عكة ستة فراسخ ، وهي شرقي عكة . (١) الإضافة من ، الكامل (٨/ص/٢٦٦) . (٢) بالأصل : نيسان . (٣) الإضافة من ، الكامل (٨/ص/٢٦٦) . (٤) بالأصل : نيسان . (٥) في الكامل (٨/ص/٢٦٦) أن مودوداً دخل دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٠٧ . (٦) بالأصل : جرحات . (٧) في ابن القلانسي (١٨٧) أنه توفي في يوم الجمعة الأخيرة من شهر ربيع الآخر من السنة . (٨) بالأصل : الحقيق . (٩) بالأصل : ييدها .

(١٠) عرف عماد الدين زنكي بذلك ، تميزاً له عن سمي له ، هو زنكي بن برسقي صاحب همدان . (الكامل ٨/ص/٢٦٢) (١١) كان ذلك في ذي الحجة سنة ٥٠٨ . (الكامل ٨/ص/٢٦٩) . (١٢) سميساط : في (ياقوت) : بضم أوله وفتح ثانيه ثم ياء مثناة من تحت ساكنة وسين أخرى ثم بعد الألف طاء مهملة ، مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات ، ولها قلعة في شق منها ، يسكنها الأرمن .

سروج (١) ، وعاد إلى شيبختان فأخرب ما فيه للفرنج ، وأبلى عماد الدين زنكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً ، وعادت العساكر تتحدث بما فعله عماد الدين وما ظهر له من الشجاعة ، وعاد البرسقي إلى بغداد ، وأقام عماد الدين بالموصل مع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وقد علا قدره وظهر اسمه .

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة [ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله (٢)] قال : وفيها غرقت سنجان (٣) من سيل (٤) المطر وهلك منها خلق كثير . ومن أعجب ما يحكى أن السيل (٥) حمل مهداً فيه طفل ، فعلق المهد في شجرة ونقص الماء ، فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة .

وفيها أيضاً زلزلت إربل (٦) وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة .

(٢٤ - أ) ذكر وفاة السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه

وجلوس ولده مغيث الدين محمود في السلطنة

في الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى عشرة (٧) وخمسمائة ، توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه . وكان مرضه في شعبان من هذه السنة ، وكان مرضه السل . فلما كان يوم النحر جلس للناس تجلداً ، وكانت الأراجيف (٨) قد كثرت عليه ، وأكل الناس الطعام بحضرته ثم ضعف بعد ذلك . فلما كان في اليوم الثالث والعشرين من ذى الحجة أيس من نفسه ، فأحضر ولده الملك محموداً — وكان عمره حينئذ أربع عشرة سنة — فلما رآه قبله وبكى ، فبكى ولده ، فأمره أن يجلس على تخت السلطنة وينظر في أمور الناس ، فقال : إنه يوم غير مبارك — يعنى من طريق النجوم — . فقال : صدقت ، ولكن على أهلك ، وأما عليك فبارك هو (٢٤ - ب) بالسلطنة . فخرج وجلس على التخت ، ولبس التاج . وتوفي السلطان محمد من ليلته ، وأظهرت وفاته من الغد ، وقرئت وصيته على ولده يأمره بالعدل والإحسان . وكان مولد السلطان محمد

(١) سروج : في (ياقوت) : بلدة قريبة من حران من ديارمضر . (٢) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/٢٨) . وأبوشامة نقل حرفياً من النص خبر مقتل مودود حتى خبر الزلزلة . (٣) سنجان : في (ياقوت) : مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهى فى لطف جبل عال . وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام . (٤) بالأصل : سيل . (٥) بالأصل : السيل . (٦) إربل : في (ياقوت) : قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط . ولقعتها خندق عميق ، وهى في طرف من المدينة ، وسور المدينة ينقطع في نصفها . وهى على تل عال من التراب عظيم واسع الرأس . وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للربعة وجامع للصلاة . وهى شبيهة بقلعة حلب إلا أنها أكبر وأوسع . وهى بين الزابين . وتعد من أعمال الموصل ، وبينها مسيرة يومين . (٧) بالأصل : أحد عشرة . (٨) بالأصل : الأراجف .

ثامن عشر شعبان سنة أربع وسبعين وأربعمائة. وكان عمره سبعا وثلاثين سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وأول ما خطب له بالسلطنة ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وقطعت خطبته عدة مرار، ولقي من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد، إلى أن توفي أخوه السلطان ركن الدين بركيارق (١)، فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتمع الناس عليه بعد موت أخيه إثنى (٢) عشرة سنة وستة أشهر.

وكان عادلا حسن السيرة، شجاعا. وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد. ومن عدله أنه اشترى عدة ممالك من بعض التجار (٢٥ - أ) وأمر أن يوفي الثمن من عامل خوزستان، فأوصل البعض ومطل بالباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حاله، فلما سأله عن حاجته ذكرها له، وأعلمه أنه قد حضر مجلس الحكم (٣)، وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان ليطلب بماله، فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره، وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجر، وألزمه مصادرة على ذلك لئلا يمتل هو ولا غيره بمال يحال عليهم. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيرا: لقد ندمت على تركي الحضور بمجلس الحكم، ولو فعلته لاقتدى (٤) بي غيري، ولم يتمتع أحد عن أداء الحق. وهذه الفضيلة أيضا مما دخرها الله تعالى لهذا البيت الشريف الأتابكي، فإن الملك العادل نور الدين (٢٥ - ب) محمود بن زنكي، فعل ما ندم السلطان محمد على تركه. ولما علم الأمراء وغيرهم [أن] من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهة الظلم ومعاقبة من يفعله، إقتدوا (٥) [به]. وأمن (٦) الناس، وظهر العدل.

ثم إن السلطان محمود أقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه السلطان سنجر (٧) حرب، انهزم فيها السلطان محمود وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعته من البلاد من حد خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، وهي من الممالك: همذان، وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق، وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل، والجزيرة، وديار مضر (٨)، وديار ريعة، والشام، وبلد الروم الذي بيد أولاد قلع أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد، ورأيت منشوره بذلك.

ولم يكن لعماد الدين في هذه الحرب أثر، ولا شهداها ليستقصي ذكرها (٢٦ - أ) فلهذا أعرضنا عن شرحها وأشرنا إليها لتعرف.

(١) توفي السلطان بركيارق سنة ٤٩٨ هـ (الكامل، ج ٨/ص ٢٣٣) (٢) بالأصل: اثني عشر.

(٣) بالأصل: قد أحضر غلام مجلس الحكم. (والتصحيح من الروضتين ج ١/ص ٢٨). (٤) بالأصل: لاقتدى.

(٥) بالأصل: اقتدوا. (٦) بالأصل: من. (٧) هو السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، واسمه العربي أحمد. وقد ولي سلطنة فارس سنة ٥١٢ هـ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ. (شذرات الذهب،

ج ٤/ص ١٦١). (٨) بالأصل: ديار مصر.

ذكر وفاة أمير المؤمنين المستظهر بالله

وخلافة المسترشد بالله

قال . وفي سادس عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنى عشرة وخمسة ، توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله من تراقى (١) ظهرت به . وكان عمره إحدى (٢) وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام . وخلافته أربعاً (٣) وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً . ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين [من السلاجوقية (٤)] خطب لهم ببغداد ، وهم : تاج الدولة تنش ، وركن الدين بركيارق بن ملكشاه ، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه . وكان رضى الله عنه كريم الأخلاق ، لين الجانب ، مشكور المساعى ، يحب العلم والعلماء . وصنفت له التصانيف الكثيرة فى الفقه والأصول وغيرهما . وكان يسارع إلى أعمال البر والمشوبات ، لا يرد مكرمة تطلب منه ، كثير الوثوق إلى من يوليه الأعمال ، لا يصغى إلى (٢٦ - ب) سعاية ساع . وكانت أيامه أيام سرور وأمن للرعية ، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره ، وإذا تعرض سلطان أو غيره إلى أذى أحدهم بالغ فى إنكار ذلك والزجر (٥) عنه . وكان حسن الخط ، جيد التوقعات لا يقاربه فيها أحد ، تدل على فضل عزيز (٦) وعلم واسع . ولما توفى صلى عليه ابنه المسترشد بالله ، ودفن فى حجرة كانت له يالفا . ولما فرغ من الصلاة عليه ودفنه جلس للبيعة ، فبايعه أولاد الخلفاء والأمراء والفقهاء والقضاة ومشايخ الصوفية . وكان المتولى لأخذ البيعة قاضى القضاة على بن محمد الدامغانى ، ومن بايعه الشيخ أبو النجيب السهروردى ، ووعظه موعظة بليغة تتضمن العدل والإحسان .

ذكر الحرب بين السلطان محمود وأخيه الملك مسعود

وما أثر [عن] عماد الدين فيها

قال . لما ولي السلطان محمود السلطنة ، أقر أخاه الملك مسعودا على (٢٧ - أ) الموصل مع أتاكبه جيوش بك ، فبقى مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسة ، حينئذ خرج عن طاعته . وكان سبب ذلك أن ديبس بن صدقة الأسدى كان فى عسكر السلطان محمد ، وقد أخذ بلد الحلة (٧) منه . فلما ملك السلطان محمود أقطعه الحلة وأعادها إليها ، فلما وصل إلى الحلة ، كاتب الأمير جيوش بك

(١) بالأصل : نراف . والتراقى ، دمل يطلع فى الحلق . (النجوم الزاهرة ، ح/٥/ص/٢١٦) (٢) بالأصل : احدا . (٣) بالأصل : أربعة . (٤) الإضافة من الروضتين (ح/١/ص/٢٨) . (٥) بالأصل : وانزجر . (٦) بالأصل : عزيز . (٧) الحلة : فى (ياقوت) : أنها علم على عدة مواضع ، وأشهرها حلة بنى مزيد ، وهى مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد .

وحسن له العصيان على السلطان محمود ، ووعده المساعدة على طلب السلطنة للملك مسعود ، وكان غرضه أن يختلفوا ، فينال من التمكن والجاه ، ماناله أبوه سيف الدولة صدقة باختلاف السلطانين بركيارق ومحمد — وقد ذكرناه في المستقصى — . وكان الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي (١) الطغرائي (٢) الأصفهاني قد اتصل بالملك مسعود فاستوزره وأشار بذلك أيضاً . وكان لجيوش بك مع الموصل ، ولاية أذربيجان ، فلما شرع في جمع الجيوش بلغ ذلك إلى السلطان محمود ، فأرسل إليه وإلى أخيه مسعود يرغبهما ويعدهما الإحسان (٢٧ — ب) إن عاودا الطاعة ، ويهددهما إن أصرا على المعصية ، فلم يرجعا ، وقوى طمعهما لما بلغهما تفرق العساكر عن السلطان محمود ، وأظهرا العصيان ، وخطب للملك مسعود بالسلطنة . وكان عماد الدين زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ، ويحذرهم عاقبة العصيان ، فلم يرجعا إلى قوله ، وبلغ قوله إلى السلطان فعرفه له .

ثم إن الملك مسعود (٣) وجيوش بك سارا في العساكر نحو السلطان ، ينتهزان الفرصة بقله عسكره وتفرقهم ، فجمع من قرب إليه من عساكره فبلغت عدتهم نحو خمسة عشر ألف فارس ، والتقوا عند عقبة أسد آباد (٤) في ربيع الأول ، فدام القتال بينهم إلى الليل ، ثم انهزم الملك مسعود وجيوش بك ومن معهما ، وأسر جماعة من أمراء عسكرهما والأعيان ، منهم الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي وزير مسعود ، فقتله السلطان وقال : قد صح عندى (٢٨ — أ) فساد اعتقاده ودينه ، وكان قد جاوز ستين سنة . وكان حسن الكتابة جيد الشعر ، فمن شعره :

تمت أن ألقاك في الدهر مرة فلم أك في هذا التنى بمرزوق
سوى ساعة التوديع دامت فكم منى أنالت وما قامت بها آملا سوقى (٥)
فيا ليت أن الدهر كل زمانه وداع ولكن لا يكون بتفريق

فأما الملك مسعود ، فإنه سار منهزما إلى مكان (٦) بينه وبين الواقعة اثني عشر (٧) فرسخا فاحتقن فيه ، وأرسل ركائيا كان معه إلى أخيه يطلب الأمان . فأرسل إليه البرسقي بأمانه وتطييب (٨) قلبه فأحضره معه عند السلطان ، فأمر الناس كلهم بلقائه وأكرمه وأحسن إليه ، ولما لقيه بكى (٩) كل واحد منهما إلى صاحبه ، واعتذر مسعود فقبل عذره وخلطه بنفسه في كل أموره .

وأما جيوش بك فإنه سار وانتظر الملك مسعود فلم يره ، فسار إلى الموصل وجمع الغلات والعساكر ليمتنع بها (٢٨ — ب) فلما بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان محمود علم أنه لا مقام له ، فسار جريدا إلى السلطان فأمنه وأكرمه ، وأخذ الموصل منه وأقره على أذربيجان .

(١) بالأصل : الحسين ابن اسماعيل . (والتصحیح من الكامل ، شذرات الذهب . ٤/ص/٤١) .
(٢) بالأصل : الطغرائي . (والتصحیح من ، الكامل ، ٨/ص/٢٩٢) . (٣) بالأصل : مسعود .
(٤) بالأصل : سد آباد . (٥) بالأصل : شوقى . (٦) فى الكامل (٨/ص/٢٩٢) جبل .
(٧) بالأصل : اثنا عشره . (٨) بالأصل : ويطييب (والتصحیح من ، الكامل ، ٨/ص/٢٩٢) .
(٩) بالأصل : ابكى .

ذكر ولاية البرسقي الموصل

ثم إن السلطان أقطع آقسنقر البرسقي بلد الموصل وأعمالها ، كالجزيرة ، وسنجار ، ونصيبين وغيرها في صفر سنة خمس عشرة وخمسمائة وسيره إليها ، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند إشارته ، فصار إلى الموصل ، وفعل مع عماد الدين ما أمره به السلطان ، وزاد على ذلك لمكانه من العقل والشجاعة ، وتقدم (١) والده في الأيام الركنية (٢) وكانت سيرة ملكشاه عندهم (٣) كالشريعة المتبعة ، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته .

ذكر إقطاع عماد الدين زنكي مدينة واسط (٤)

في سنة ست عشرة وخمسمائة ، أقطع أتابك عماد الدين زنكي مدينة واسط وولى شحنة (٥) البصرة . وكان سبب ذلك أن الأمير (٢٩ — أ) ديبس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ، كان قد تقدم منه مع الملك مسعود والأمير جيوش بك ما ذكرناه ، فبلغ ذلك السلطان [محمود (٦)] وانضاف إلى ذلك شكوى أمير المؤمنين المسترشد بالله منه إلى السلطان ، فأرسل إلى البرسقي يأمره بالإنحذار إلى بغداد بعساكر الموصل ومحاربة ديبس ، فأنحدر إليها في عساكره ومعه عماد الدين زنكي ، وسار عن بغداد نحو الحلة فلقبته ديبس عند نهر بشير ، فانهزم عسكر البرسقي من غير قتال . وسبب ذلك أنه رأى خللا في ميسرته وبها (٧) الأمراء البكجية ، فأمر أن تلقى خيمته وتنصب عند الميسرة لتقوى قلوبهم ، فحين ألقى الخيمة رأت الميسرة ذلك فظنت الهزيمة ، فانهزموا وتبعهم الناس والبرسقي . وقيل بل أعطى رقعة فيها أن جماعة [من (٨)] العسكر يزيدون الفتك به ، فخاف على نفسه وساء ظنه ، وانصرف من مكانه وانهزم الناس ، وعاد إلى بغداد ثاني ربيع الآخر ، فلما انهزم البرسقي (٢٩ — ب) لم يعرض ديبس لنهر ملك ولا غيره ، وأرسل إلى الخليفة أنه على الطاعة ، ويطلب أن يخرج النواب إلى الأعمال .

(١) بالأصل : واتقدم (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٢٩) . (٢) الإشارة هنا إلى السلطان ملكشاه ، (انظر عن تلقيب ابن الأثير ، لملكشاه بركن الدين ، فيما سبق ص / ٤ / حاشية / ٤) . (٣) أى عند السلاطين السلاجقة خلفاء ملكشاه .

(٤) واسط : فى الاصطلاحى (ص / ٥٨) : أنها نصفان على شط دجلة متقابلان ، بينهما جسر من سفن فى كل جانب وفى كل جانب مسجد جامع ، وهى محدثة فى الإسلام ، أحدثها الحجاج بن يوسف (الثقفى) وبها خضراء الحجاج . وهى مدينة تحيط بحددها الغربى البادية بعد مزارع سيرة ، وهى خصبة كثيرة الشجر والنبيل والزروع ، وهى أصح هواء من البصرة ، وليس لها بطاغ ، وأراضى رساتيقها متصلة معمورة . (٥) الشحنة : لفظ فارسى ، معناه : محافظ المدينة ، نائب الملك ، رئيس البوليس (المعجم فى اللغة الفارسية) . وفى (القاموس المحيط) ، الشحنة ، جمعها شجن . وهى فى الأصل ما يقام للدواب من العلف الذى يكفيا يومها وليلتها ، وفى البلد ، من فيه الكفاية لضبطها من جهة السلطان . (٦) الإضافة من ، الكامل (ح / ٨ / ص / ٣٠٧) . (٧) بالأصل : وبها .

(٨) الإضافة من ، الكامل (ح / ٨ / ص / ٣٠٧) .

ثم إن السلطان ولي البرسقي شخنة العراق جميعه ، وزوجه خاتون بهشت (١) جهان والدة أخيه الملك مسعود ، وأقام البرسقي ببغداد إلى شعبان من هذه السنة ، وترددت الرسل بينه وبين ديبس في الصلح فلم يتم ذلك . فأرسل ديبس عسكرياً إلى واسط — وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فصاروا معه — فلما سمع من بها بمسير عسكر ديبس إليهم ، أرسلوا يطلبون المدد من البرسقي ، فأمدهم بالأمير التونتاش الأبري وبعهاد الدين زنكي وأقطعاه البلد ، وأمرهم بطاعته ، فصافوا عسكر ديبس فهزموهم وأسروا أكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين إلى ديبس .

وأقام عماد الدين زنكي بواسط . وأرسل البرسقي إليه أيضاً فولاه شخنة البصرة وأمره بحمايتها ، فوليا (٣٠ — أ) وحامها ، وانتقل إليها وأقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب إليها والإغارة عليها مرة بعد أخرى . فلما سكنها (٢) لم يتعرض إليها أحد ، وسكن ما كان بها من الفتن ، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد ، فازداد شأنه عظماً (٣) .

وتجنب ديبس قصد ولايته لعله أنه لا ينال منها غرضاً (٤) ، وأنفذ عسكرياً نحو المدائن ، فخاف أهل بغداد ، وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي عازماً على قصد ديبس ، وناهيك هذا شرفاً لعماد الدين ، حيث يترك ديبس ولايته مع بعدها عن بغداد ويقصد المدائن وهي إلى جانب بغداد والبرسقي في العساكر قريب منها (٥) .

وبطل الحجب هذه السنة من العراق لهذا السبب .

ذكر هزيمة ديبس وعسكر بغداد

وما ظهر لعماد الدين زنكي من الشجاعة

لما ورد ديبس وعساكره إلى المدائن وعبر البرسقي إلى الجانب الغربي (٣٠ — ب) ليسير إليه ، أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى ديبس ينهيه عن العصيان ، ويهدده إن أصر على المخالفة ، بقصد بلده ، فغضب ديبس وحلف ليقصد بغداد وليخربنها ويقتل أهلها ، وجمع العرب وأطمعهم في نهب بغداد فكثرت جمعه . فلما علم الخليفة بما كان منه ، سار عن بغداد ومعه العسكر ، وعليه قباء أسود وعمامة سوداء وطرحه ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويده القضب ، وعبر في الزب (٦) ومعه وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك ، ونقيب النقباء (٧) ، وشيخ

(١) بالأصل : ببست . (والتصحيح من « دي سلين » ، ص/٤٦) . (٢) بالأصل : سكنها .

(٣) بالأصل : عظيماً . (٤) بالأصل : غرض . (٥) هذا تمجيد من ابن الأثير لعماد الدين كعادته . فهو هنا يفسر مجرى الحوادث تفسيراً آخر يختلف عن تفسيره في « الكامل » حيث يذكر في « الكامل » (٨/ص/٣١٠ — حوادث سنة ٥١٧) أن ديبسا سار إلى بغداد للإنتقام من الخليفة والسلطان .

(٦) الزب ، نوع من السفن . (لسان العرب) . (٧) هو علي بن طراد الزينبي ، (الكامل) .

(٨/ص/٣١٠) . وترجمته في ، شذرات الذهب (٤/ص/١١٧ — وفيات سنة ٥٣٨) .

الشيوخ صدر الدين إسماعيل (١) ، وقاضى القضاة الزينبي (٢) وغيرهم . فلما سمع البرسقى بمسير الخليفة ركب وعاد إلى لقائه ، فحين رأى الشمسية ترجل هو ومن معه وقبلوا الأرض . فلما نزل الخليفة في الخيمة ، أحضر البرسقى والأمراء واستحلفهم ، ثم سار نحو الحلة - وقد تأخر ديبس عن المدائن - فالتقوا بالمباركة من أعمال النيل (٣) ، ورتب البرسقى عسكره (٣١ - أ) ، فجعل في الميمنة عماد الدين زنكى في عسكره ، والأمير أبا بكر إلياس البكجى (٤) ، ووقف الخليفة في موكبه خلف العسكر بحيث يرونه والقراء (٥) بين يديه ، والمصاحف منشورة ، وتقدم إلى أهل بغداد بقرأة القرآن والدعاء له ، فختموا ذلك اليوم ألف ختمة ودعوا له بالنصر .

فلما توافقت العساكر ، حملت ميسرة ديبس - ومقدمها عنتر بن أبي العسكر - على الأمير أبي بكر إلياس ومن معه ، فتراجعوا على أعقابهم ، ثم حمل عليهم عنتر أيضاً حملة ثانية ، فكان حالها كالأولى ، وأشرفوا على الهزيمة ، فلما رأى عماد الدين زنكى ذلك ، حمل في عسكر واسط على عنتر وأصحابه ، وأطبقوا (٦) [عليه] من خلفه ، وعاد الأمير أبو بكر ، فبقى عنتر ومن معه في الوسط ؛ فأخذوا باليد ، وقتل منهم الكثير . وكان البرسقى قد جعل له كميناً ، فلما اشتدت الحرب ، ظهر الكمين من وراء عسكر ديبس ، فانهزمت العرب ومن معهم وديبس ، فألقوا نفوسهم (٣١ - ب) في النيل ، فغرق منهم خلق (٧) كثير سوى من قتل وأسر .

ولما رأى المسترشد بالله فعل عنتر بميمنة البرسقى ، وأن من بها قد أشرف على الهزيمة ، جرد سيفه وتقدم وهو يكبر ، وقد عزم على أن يباشر الحرب بنفسه ، فكفاه عماد الدين زنكى ، فلما تم الظفر ، قدمت الأسرى إلى المسترشد بالله ، فأمر بقتلهم صبراً .

وكان عسكر ديبس عشرة آلاف فارس وإثنى عشر [ألف (٨)] راجل ، وعسكر (٩) الخليفة والبرسقى ثمانية آلاف فارس وخمسة آلاف راجل ، ولم يقتل من عسكرهما غير عشرين فارساً . ووقع نساء ديبس وسراريه (١٠) في الأسر ، غير زوجته ابنة إيلغازى بن أرتق وابنة عميد الدولة ابن جهير ، فإنهما كانتا بمشهد الحسين عليه السلام .

وكانت الواقعة في أول المحرم سنة سبع عشرة وخمسمائة . وعاد المسترشد إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء .

(١) هو شيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل بن أبي سعيد الصوفى ، مات ببغداد سنة ٥٤١ هـ ، ترجمته في ، شذرات الذهب (١٢٨/ص/٤/ح - وفیات سنة ٥٤١) . (٢) هو قاضى العراق ، أبو القاسم على بن نور الهدى أبى طالب الحسين بن محمد بن على العباسى . توفي سنة ٥٤٣ هـ . ترجمته في ، شذرات الذهب (١٣٥/ص/٤/ح - وفیات سنة ٥٤٣) . (٣) النيل : (في ياقوت) : نهر من أنهار الرقة ، حفره (هارون) الرشيد على ضفة نيل الرقة . (٤) في ، الكامل (٣١١/ص/٨/ح) ، أبا بكر بن إلياس البكجى . (٥) بالأصل : والقرايين . (٦) بالأصل : ولطبقوا . (٧) بالأصل : خلقاً . (٨) الإضافة من ، الكامل (٣١١/ص/٨/ح) . (٩) بالأصل : والعسكر . (١٠) بالأصل : وسراريه .

وثار العامة ببغداد ، فذهبوا لمشهد باب التين وما عند الضريحين ، وقلعوا أبواب المشهد ، فشكى العلويون (١) ذلك (٣٢ — أ) إلى الخليفة فأنكره ، وسير نظراً الخادم أمير الحاج إلى المشهد لتأديب من فعل ذلك والتنكيل (٢) به ، ففعل بهم ما أمر ، واسترد من النهيب ما أمكنه ورده على أصحابه . وأما ديبس فإنه لما انهزم ، التحق بالملك طغرل بن السلطان محمد وصار معه من خواص أصحابه ، وكان عاصياً على أخيه السلطان محمود .

ذكر مفارقة الشهيد عماد الدين البرسقي

واتصاله بالسلطان محمود

قال . ولما فارق ديبس العراق ولحق بطغرل ، أمنت البلاد ، فأرسل السلطان محمود إلى البرسقي يأمره بالعود إلى الموصل والاشتغال بجهاد الإفرنج ، وولى شحنة بغداد يرشق (٣) الزكوى ، فعاد البرسقي في سنة سبع (٤) عشرة وخمسمائة .

وكان أتاك عماد الدين زنكي حينئذ بالبصرة ، فأرسل البرسقي إليه يعلمه الحال ، ويستدعيه ليسير معه إلى الموصل . فحدثني والدي قال : حدثني جماعة ممن كان مع الشهيد ، قالوا : جمع الشهيد أصحابه (٣٢ — ب) وقال لهم : قد ضجرنا بمانحن فيه . كل يوم قد يملك البلاد أمير وتؤمر بالتصرف على اختياره وإرادته ، ثم تارة بالعراق ، وتارة بالموصل ، وتارة (٥) ببلاد الجزيرة ، وتارة بالشام ، فهم تشيرون أصنع . فقال له زين الدين علي بن بكتكين — وكان أوثق أصحابه عنده وأكثرهم صحة له — فقال : يا مولانا ، التركان تقول في أمثالها ، إذا أراد الإنسان [أن] يضع على رأسه حجراً فليكن من جبل كبير ، ولكن نحن إذا كنا لا بد وأن نخدم الناس ، فلأن نخدم السلطان أولى ، فقبل رأيه ، وسار من البصرة إلى السلطان محمود ، وأقام عنده ، فلم ير منه ما كان يرجوه ، وأنفق ما كان معه من مال . وكان كلما ضاق به الأمر ، يقول لزين الدين : يا علي ، قد وضعنا على رؤوسنا حجراً عظيماً كما أردت . إلا أنه كان يقف إلى جانب تحت السلطان لا يتقدمه أحد . فلما كان بعض الأيام ، ركب السلطان ليلعب بالكرة ، فدخل الميدان فأخذ الجوكان (٦) (٣٣ — أ) بيده ، واستدعى عماد الدين زنكي وناوله إياه ، وقال له : إلبع معنا . ثم قال السلطان للأمرء معاتباً لهم وموبخاً : أما تستحيون ، يحى إليكم فلان — وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة — فلم يكن فيكم من يحمل له شيئاً ولا يعمل له دعوة ، والله لقد

(١) بالأصل : العلويون . (٢) بالأصل : والتنكيل . (٣) بالأصل : يرشق . (٤) والنصح من ، الكامل (٨ / ص ٣١٦ : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٤٦) . (٥) في ، الكامل (٨ / ص ٢٣٧) أن عزله عن شحنة العراق كان سنة ٥١٨ . (٦) بالأصل : تار .

(٦) الجوكان : هو الحجين الذي تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً ، وكانت الجوكان عصا مدهونة ، طولها نحو أربعة أذرع ، وبرأسها خشبة مخروطية معقوفة تزيد عن نصف ذراع . (السلوك ، ١ / ص ١٣٥) حاشية (١) .

تركته لم أرسل إليه نفقة ولا أعطيته إقطاعاً لأنظر فعلكم . وبالحق في لومهم ، ثم قال له : قد زوجتك امرأة الأمير كندغدى ، وأمر له بالمال . وكان هذا كندغدى من أكابر أمراء السلطان محمد والسلطان محمود ، فجعله [السلطان محمود] مع أخيه الملك طغرل أتابكاً له ومديراً لدولته ، فحسن له العصيان على أخيه السلطان محمود ، وجمع له العساكر الكثيرة وعظم شأنه ، فاتفق أنه مات في تلك السنة ، وخلف ولداً صغيراً وزوجة ، ومن الأموال والبرك (١) والسلاح ما لا يقدر عليه إلا سلطان ، فلما كان الآن ، وقال لعماد (٣٣ - ب) الدين ليتزوجها ، أرسل إليها يقول لها : إننى قد زوجتك بعماد الدين زنكى . فامتنعت ثم أجابت . فقال . فركب زنكى من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدى (٢) ، وهو فى موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كندغدى ، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحد فى العسكر مثله .

ذكر إقطاعه البصرة من السلطان

ثم إن السلطان أتاه فى ذلك الوقت الخبر بأن العرب قد اجتمعت ونهبت البصرة ، فأمر أتابك عماد الدين بالمسير إليها ، وأقطعها إياها (٣) لما كان بلغه عنه من الحماية لها فى العام الماضى — وقت اختلاف العساكر والحروب — وأمره بالحفظ والإحتياط . وكان قد قيل للسلطان إن الخليفة قد باشر الحرب ، وأحب جمع العساكر ، وخوف [من] ناحيته (٤) ، فتقدم (٥) إلى عماد الدين بمراعاة أحوال واسط والتطاع إلى معرفة حالها ، فإن قصدتها عسكر (٣٤ - أ) من الخليفة يسير إليها ويحفظها ، فسار إلى العراق وأقام بالبصرة ، وأحسن السياسة لأهلها والحماية لهم من العرب وغيرهم ، وصار يرسل طوائف من عسكره فيوقعون بالأعراب ، فأمنت البلاد والطرق ، وواصل السلطان بأخبار العراق حتى لم يخف عليه منها شيء ، فعظم ذلك عند السلطان وزاد محله عنده .

ذكر ولايته شحنة بغداد

كان قد جرى بين (٦) يرنقش الزكوى شحنة بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نفرة ، فتهدده المسترشد ، فسار (٧) عن بغداد إلى السلطان فى رجب سنة تسع عشرة (٨) وخمسائة ، شاكياً من المسترشد بالله ، وحذر السلطان جانبها ، وأعلمه أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه عن العراق ،

(١) البرك : هو المتاع الخاص من ثياب وقاش . (السلوك ، ح/١/ق/١/ص/١٣٤ - حاشية / ٦) .
(٢) هو خالصك بن كندغدى وقد جعل السلطان محمود ، جمال الدين الجواد محمد بن على بن أبى منصور وزيراً لخاصبك وأرسله مع عماد الدين . (تاريخ دولة آل سلجوق ، ص/١٩٢) .
(٣) كان ذلك فى سنة ٥١٨ . (الكامل ، ح/٨/ص/٣١٦) . (٤) بالأصل : ناحية .
(٥) بالأصل : فقدم .
(٦) بالأصل : من . (٧) بالأصل : وسار . (٨) فى ، الكامل (ح/٨/ص/٣٢١) ، سنة عشرين .

وقال له : إن تأخرت عن العراق إزداد قوة ومنعك عن البلاد . فتجهز السلطان إلى العراق ، فأرسل إليه الخليفة يطلب منه أن لا يأتي بغداد هذه الدفعة لخراب (٣٤-ب) البلاد والغلاء (١) الذى بها ، وبذل له على تأخره ما لا كثيراً . فلما سمع السلطان الرسالة لم يجب إلى التأخر عن العراق وصمم العزم على الحركة .

فلما بلغ الخبر إلى الخليفة عبر هو وأهله وحرمه وأرباب المناصب إلى الجانب الغربى فى ذى القعدة . مظهرآ للغضب والانتزاع عن بغداد إن قصدوا السلطان . فلما خرج من داره بكى (٢) الناس بكاء عظيماً ، واتصل الخبر بالسلطان (٣) فعظم عليه ، وأرسل إليه يستعطفه ويسأله العود إلى داره ، فأعاد الجواب : إننى أمرتك بالتأخر لخراب البلاد وهلاك الناس وعدم الأقوات ، ويقول له : إن قصدت العراق فتحن راحلون عنه بالأهل والمال . فاغتاظ السلطان من ذلك ورحل إلى بغداد ، فلما كان عيد النحر (٤) ، أمر المسترشد بالله بأن تنصب السراقات والمنبر ، وأحضر خواصه وأرباب المناصب وأعيان الدولة ، وصلى هو بالناس يوم العيد (٣٥-أ) وخطبهم ، فبكى الناس لخطبته بكاء عظيماً .

ثم إنه أرسل عفيفاً الخادم فى عسكر [إلى] واسط ، وبها عماد الدين زنكى ، [وكان] قد سار من البصرة لحفظها والذب عنها ، فلما وصل عفيف ، أرسل إليه عماد الدين يحذره القتال ويأمره بالعود ، فلم يلتفت [إليه] ، وجاء حتى نزل بالجانب الغربى من واسط ، فعبّر إليه الشهيد وقاتله قتالاً شديداً ، فانهزم عسكر عفيف ، وقتل منهم جماعة كثيرة وأسر مثلهم ، وتجاوز عن عفيف حتى نجا (٥) ، ولو شاء لأخذه .

ثم إن الخليفة جمع السفن جميعاً إليه ، وسد أبواب دار الخلافة سوى باب النبى (٦) ، وأمر حاجب الباب ، ابن الصاحب ، بالمقام فيه يحفظ الدار ، ولم يبق من حواشى الخليفة بالجانب الشرقى سواه . ووصل السلطان إلى بغداد فى عشرين من ذى الحجة ، ونزل بالشامسية (٧) ، ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا فى دور الناس ، ولم يزل السلطان يرسل الخليفة بالعود ويطلب الصلح (٣٥-ب) وهو يمتنع ، وكان يجرى بين العسكرين مناوشة (٨) ، والعامّة من الجانب الغربى يسبون السلطان أخش سب .

ثم إن جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة فى المحرم سنة عشرين وخمسمائة (٩) ونهبوا

(١) بالأصل : الغلى . (٢) بالأصل : بكاء . (٣) بالأصل : السلطان . (٤) بالأصل : النحره . (٥) بالأصل : نجى . وفى السكامل (٨/ص/٣٢١) ، أن عماد الدين تجاوز عن عفيف «لمودة كانت بينهما» . (٦) بالأصل : باب التوبة . والتصحيح من السكامل (٨/ص/٣٢١) . (٧) بالأصل : الشامسيه ، (والتصحيح من السكامل ، ٨/ص/٣٢٠) . (٨) بالأصل : بين العسكرين منها مناوشة . (٩) فى السكامل (٨/ص/٣٢١) ، سنة إحدى وعشرين .

التاج وحجر الخليفة ، وضج أهل بغداد . فلما رآهم الخليفة ينهبون داره ، خرج من السراشق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه ، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ، ونادى [بأعلى (١)] صوته : يآل هاشم ، وأمر بتقديم السفن [ونصب الجسر (٢)] وعبر العسكر دفعة واحدة . وكان في الدار ألف رجل مختفين في السراذيب فظهروا — وعسكر السلطان قد اشتغلوا بالنهب — فأسروا جماعة من الأمراء . ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعة من الأمراء ، ودار عزيز الدين المستوفي ، ودار حكيم أوحد الزمان الطيب ، وقتل منهم خلق (٣) كثير في الدروب . ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل (٣٦ — أ) من أهل بغداد والسواد ، وحفروا الخنادق (٤) في الليل ، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان ، واشتد الغلاء عند العسكر ، وعظم القتال كل يوم على أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة .

وعزم عسكر (٥) الخليفة على تثبيت (٦) عسكر السلطان ، فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي الهذباني صاحب إربل ، وخرج كأنه يريد القتال والتحق هو وعسكره بالسلطان . وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكي يأمره أن يحضر بنفسه (٧) ومعه المقاتلة في البر والماء ، وأن يكثر من السفن مهما أمكنه ، فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ، ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة إلا استصحبها وشحنها بالمقاتلة ، وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء ، فلما قارب بغداد نشر الأعلام ، وأظهر السلاح ، وأخرج بعض من في السفن إلى البر (٣٦ — ب) فامتلات الأرض والماء رجالا وسلاحاً ، فرأى الناس منظراً عجيباً وعظم ذلك في أعينهم ، وركب السلطان والعساكر فرأوا ماملاً قلوبهم وعيونهم ، وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة ، واستدل على كفايته ونهضته وحسن سياسته ، لأن البلاد التي كانت بيده لم يكن عسكرها (٨) يقدر يفارقها ليحفظوها ، فأخرج منها هذا الخلق الكثير ، ولم يتعرض إليها أحد بأذى .

وكان الخليفة — لما هرب الأمير أبو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين — قد ضعفت نفسه ، وعلم أن عماد الدين يحجى ويقاثلهم في الماء ويمنع الميرة عنهم ، ويقاثلهم السلطان في البر فيعظم عليه الخطب ، فحينئذ راسل السلطان طلباً في الصلح ، وترددت الرسل بينهما فاصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه ، واعتذر السلطان (٩) مما جرى . وكان حليماً يسمع سبه بأذنه ولا يعاقب عليه . وعفا عن (٣٧ — أ) أهل بغداد جميعهم . وكان بعض أصحابه يشيرون عليه أيام الحصار بإحراق بغداد فلم يفعل ، وقال : لا تساوى العراق بعض هذا .

(١) الإضافة من الكامل (ح/٨/ص/٣٢١) . (٢) الإضافة من ، الكامل (ح/٨/ص/٣٢١) . (٣) بالأصل : خلقاً . (٤) بالأصل : الخنادق . (٥) بالأصل : عكر . (٦) بالأصل : تشيت . وقد صحح المحقق اللفظ على ضوء ما جاء في الكامل (ح/٨/ص/٣٢٢) : « وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان » . (٧) في الكامل (ح/٨/ص/٣٢٢) أن عماد الدين كان بواسط . (٨) بالأصل : عسكره . (٩) بالأصل : للسلطان . (والتصحيح من الكامل ، ح/٨/ص/٣٢٢) . (١٠) بالأصل : عفي .

ولما تم الصلح ، أقام السلطان ببغداد إلى عاشر (١) ربيع الآخر ، وحمل الخليفة [إليه (٢)] كل ما استقرت القاعدة [عليه (٢)] من المال ، والسلاح ، والخيل وغير ذلك .

فلما أراد السلطان الرحيل ، نظر في من يصلح أن يلي شحنة بغداد والعراق ، يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور ، فلم ير في (٣) أمرائه وأصحابه من يصلح لسدهذا الباب العظيم ، ويرقع هذا الخرق ويمنعه عن الإلتساع ، وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر ، غير عماد الدين زنكي ، فولاه شحنة العراق (٤) مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع ، وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث أسنده إلى الكافي القيم بأمره .

ذكر قتل البرسقي وشيء من سيرته رحمه الله تعالى

في سنة عشرين وخمسمائة (٥) ، قتل آقسنقر البرسقي بالجامع العتيق (٣٧ - ب) [بمدينة (٦)] الموصل بعد الصلاة يوم الجمعة ، قتله باطنية . وكان رأى تلك الليلة في منامه أن عدة من الكلاب ثاروا به ، فقتل بعضها ، ونال منه (٧) الباكون أذى شديداً ، فقص رؤياه على أصحابه ، فأشاروا عليه بترك الخروج من داره عدة أيام ، فقال : لا أترك الجمعة لشيء أبداً ، وكان يشهد في الجامع مع العامة ، فحضر الجامع على عادته ، فثار به من الباطنية (٨) ما يزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيده منهم ثلاثة ، وقتل رحمه الله .

وكان خيراً عادلاً ، لين الأخلاق ، حسن العشرة مع أصحابه . حكى (٩) لي والدي رحمه الله تعالى ، قال : حكى بعض الغلمان الذين يخدمون البرسقي ، قال : كان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ، وكان يتوضأ هو بنفسه ولا يستعين بأحد . قال : فرأيت به بعض ليالي الشتاء بالموصل ، وقد قام من فراشه ، وعليه فرجية وبر صغيرة وبيده إبريق نحاس وقد قصد دجلة (٣٨ - أ) ليأخذ ماء يتوضأ به ، فلما رأته قمت إليه لأخذ الإبريق من يده ، فمغنى وقال : يامسكين إرجع إلى مكانك فإنه برد ، فاجتمدت به لأخذ الإبريق من يده فلم يفعل ، ولم يزل حتى ردتني إلى مكاني . ثم توضأ ووقف يصلي (١٠) . وذكر لي من أحواله الحسنة أشياء لم أطول بذكرها .

(١) في ، الكامل (٨/ص/٣٢٢) . رابع شهر ربيع الآخر . (٢) الإضافة من ، الكامل (٨/ص/٣٢٢) .
 (٣) بالأصل : فلم يراق . (٤) في الكامل (٨/ص/٣٢٣) أن عماد الدين ولي شحنة بغداد في شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ . (٥) في الكامل (٨/ص/٣٢٠) أن البرسقي قتل يوم الجمعة ثامن ذي القعدة من السنة . (٦) الإضافة من الكامل (٨/ص/٣٢٠) . (٧) بالأصل : منها . (٨) والتصحيح من الكامل ، (٨/ص/٣٢٠) .
 (٩) بالأصل : الباطنة . (١٠) بالاصل : حكا . (١٠) أسقط « دى سلين » قصة العلام من نسخته .
 وقد ذكر أنه أسقطها عمداً ، لأنه من غير المعقول حدوثها .

ذكر ولاية ابنه عز الدين مسعود ووفاته

لما قتل البرسقى ، قام بالموصل بعده ابنه عز الدين مسعود (١) ، وأرسل (٢) إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليه ، فأجابه إلى ذلك وأقره على ما كان لأبيه من الأعمال ، فضبط البلاد وقام فيها بالمقام المرضى ، وكان شاباً عاقلاً ، فجمع عساكر أبيه وأحسن إليهم ، وكان يدبر الأمور بين يديه الأمير جاولى — وهو مملوك تركى من ممالك أبيه — وكان أيضاً عاقلاً حسن السيرة ، فحرت الأمور على أحسن نظام ، فلم تطل أيامه ، وأدركه فى عنفوان شبابه حمامه (٣٨ - ب) وتوفى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة (٣). فولى بعده أخوه الأصغر ، وقام بتدبير دولته جاولى أيضاً ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرر البلاد عليهم ، وبذل أموالاً كثيرة .

ذكر ولاية المولى الشهيد عماد الدين زنكى الموصل

وسائر بلاد الجزيرة (٤)

نبتدىء قبل ذكر مملكة البلاد ، بذكر الحال التى كان عليها المسلمون من الوهن والضعف ، والمشركون من القوة ، فنقول : لما ملك المولى الشهيد البلاد ، كان الفرنج قد اتسعت بلادهم ، وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم ، وزادت صولتهم ، وتضاعفت سطوتهم ، وعلا شرهم ، واشتد بطشهم ، وامتدت إلى بلاد الإسلام أيديهم ، وضعف أهلها من كف عاديته (٥) ، وتتابعت غزواتهم ، وساموا المسلمين سوء العذاب ، وركبوهم بالتبار والتباب ، واستطار فى البلاد شرر شرهم ، وعم أهلها شديد حيفهم (٦) وعظيم قهرهم ، فنجوم سعد المسلمين منكدره ، وسما (٣٩ - أ) عزهم منفطرة ، وشمس إقبالهم مكورة ، ورايات المشركين خلال ديار الإسلام منشورة ، وأنصارهم على أهل الإيمان منصورة .

وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين (٧) وشبختان إلى عريش مصر ، لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب ، وحمص ، وحماة ، ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد (٨) ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد . ومن ديار الجزيرة إلى نصيبين (٩)

(١) فى الكامل (٨/ص/٣٢٠) ، أن مسعوداً كان يحب إيجفظة من الفرنج حين قتل أبوه . فلما بلغه خبر مقتله سار إلى الموصل ودخلها فى أول ذى الحجة سنة ٥٢٠ . (٢) بالأصل : أرسل . (٣) فى الكامل (٨/ص/٣٢٣) أن مسعوداً طمع فى التغلب على بلاد الشام وسار بعساكره يريد دمشق ، فابتدأ بالرحبة وحاصرها ، ففرض أثناء الحصار ، ومات بعد أن تسلم قلعتها بساعة واحدة . (٤) بالأصل : وسائر البلاد جزيرة العرب . (٥) بالأصل : أعاديهم . (واللفظ المثبت هنا أصوب من لفظ النص . والعادية : الظلم والشر — مختار الصحاح) . (٦) بالأصل : حيفهم . (٧) ماردين : فى (ياقوت) : قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة ، مشرفة على دنيسر ، ودارا ، ونصيبين وذلك الفضاء الواسع ، وقدامها برض عظيم . (٨) آمد : فى (ياقوت) : هى أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً . وهى بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود . وعلى نشزه دجلة محيطة بأكثره ، مستديرة كالهلال ، وفى وسطه عيون ماء وآبار قريبة نحو الذراعين يتناول ماءها باليد ، وفيها بساتين ونهر ، يحيط بها السور . (٩) نصيبين : فى (ياقوت) : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . بينها وبين سنجار تسعة فراسخ ، وبين الموصل ستة أيام ، وبين دنيسر يومان .

ورأس العين (١) ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين .

وأما (٢) الرقة (٣) وحران (٤) ، فقد كان أهلها (٥) معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ، ومنعوهم القرار ، وألصقوا بهم الصغار ، فهم ينادون بالويل والثبور ، ويودون لو أنهم من ساكني القبور .

وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة (٦) والبر ، فكان التجار والمسافرون (٧) يلقون من المخاوف ، وركوب المفازة تعباً ومشقة ونصباً ، ويخاطرون بالقرب (٣٩ - ب) من العرب بأموالهم وأنفسهم .

ثم زاد الأمر ، وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة ، يأخذونها منهم ليكنفوا أيديهم عنهم ، ثم لم يقنعوا بذلك ، حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق من أخذ من الروم والآرمن وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم أو العود إلى أوطانهم ، والرجوع إلى أهلهم وإخوانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه ، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً ، وللكافرين قدرة واقتساراً .

وأما حلب فإنهم أخذوا مناصفة (٨) أعمالها حتى في الرحا التي (٩) على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة نحو عشرين خطوة .

وأما باقي بلاد الشام ، فكان حالها أشد من هذين البلدين .

فلما نظر الله تعالى إلى ملوك البلاد الإسلامية وأمراء (١٠) الملة (١١) الحنيفية ، وما هم فيه من العجز عن نصرته الدين ، والوهن في (٤٠ - أ) حماية الموحدين ، ورأى قهر عدوهم لهم وشدة صوله ، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله ، إرتاح (١٢) للإسلام وأهله ، وأنف لهم من إذلال عدوهم لهم وأسرهم وقتله ، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بسوء أفعالها يجازيها ، ويرسل على شياطين الصليبان رجوماً منه تهلكها وتفنيها ، فنظر في جريدة شجعان أوليائه ، وذوى الرأي

(١) رأس العين : في (ياقوت) : رأس عين ، والعامية تقول : رأس العين . وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة ، حران ونصيبين ودينيسر . وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً ، وقريب من ذلك بينها وبين حران . وهي إلى دنيسر أقرب ، بينها نحو عشرة فراسخ . وفي رأس عين ، عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور . (٢) بالأصل : وأما أهل . (وقد أسقط المحقق اللفظ : أهل ، لعدم ضرورته ، وهو تكرار لما بعده) . (٣) الرقة : في (ياقوت) : بفتح أوله وثانيه وتشديده . مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام . معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرق . (٤) حران : في (ياقوت) : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أفرور . وهي قصبة ديار مضر . بينها وبين الرها يوم ، وبين الرقة يومان ، وهي على طريق الموصل والشام والروم . (٥) بالأصل : أهلها . (٦) الرحبة : في (ياقوت) : رحبة مالك بن طوق . بينها وبين دمشق ثمانية أيام ، ومن حلب خمسة أيام ، وإلى بغداد مائة فرسخ ، وإلى الرقة نيف وعشرون فرسخاً . وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات ، أسفل من قرقيسيا . (٧) بالأصل : المسافرين . (٨) بالأصل : مباذعة . (٩) بالأصل : الذي . (١٠) بالأصل : وأمر . (١١) بالأصل : ملة . (١٢) هكذا بالأصل .

والنجدة والشهامة من أصفائه ، فلم ير (١) فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زنكى ولا أثبت جنانا ، ولا أمضى عزما ، ولا أنفذ سنانا ، فولاه الشغور ، ورعاية الجمهور ، كما يقول [القائل] :

رماها بحرب منه حتى كأنما بدعوة نوح في العصاة رماها
أخى الحرب يصلبها بنفس كأنما تراحم في ضنك الوغى بسواها
كتاب تزهى بالفتوح كأنما تبارى النجوم الطالعات قناها

فغزا الفرنج في عقر ديارهم ، وأخذ للوحديين منهم بأرهم (٤٠ - ب) فأصبحت أهلة الإسلام مبدرة بعد سرارها ، وشموس الإيمان منيرة بعد طموس أنوارها ، وماس المسلمون في حلل من النصر فضفاضة ، ووردوا مناهل (٢) من الظفر فياضة ، واستنقذوا من أهل التثليث حصونا ومعاقل ، وجازوهم بما أسلفوا من الدخول والطوايل ، وألقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرائه ، وبث فيها أنصاره وأعوانه ، وفرح بنصر الله واستبشر ، وقال ، يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من أنصاري ولا وزر . فعبس الكفر وبسر ، ثم أدبر خاضعا ولم يستكبر ، فيالها نعمة عمت التوحيد وأهله ، ونقمة مزقت من الشرك شمله ، وسترى (٣) ما أجهلناه مفصلا ، وما اختصرناه مطولا . هذا (٤) سوى مكارم أخلاق إدراع جلبابها ، وحسن سياسة اعتلق بمحكم أسبابها ، يرد ذكرها عند قتله قدس الله روحه ونور ضريحه .

وأما ملكه البلاد ، ففي شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . قال : تولى عماد الدين زنكى بن آقسنقر (٤١ - أ) الموصل ، وديار الجزيرة ، ونصيبين وما كان بيد البرسقي . وكان سبب ذلك أن عز الدين مسعود [بن البرسقي] لما توفى وقام بالبلاد بعده أخوه ، وتولى أمره جاولى ، أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرر البلاد عليه ، كما ذكرنا . وكان واسطة ذلك القاضي بهاء الدين أبا الحسن على بن الشهرزورى وصلاح الدين محمد الياغيسيانى (٥) ، فحضرا [إلى] بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا (٦) يخافان جاولى ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه ، فاجتمع [صلاح (٧)] الدين ونصير الدين جقر - الذى (٨) كان أعظم أصحاب أتاك زنكى منزلة - وكان بين نصير الدين وصلاح الدين مصاهرة ، فذكر له صلاح الدين ما قدم له ، وخوفه نصير الدين (٩) من جاولى وتحكمه على صاحبه ، وقال له : إن رأيت أن تطلب البلاد لعباد الدين فهو رأى ، لأن السلطان صورة وأنا وأنت معنى ، فأجابته إلى ذلك وأخذه إلى القاضي بهاء الدين

(١) بالأصل : يرى . (٢) بالأصل : مناهيل . (٣) بالأصل : وسرى . (٤) بالأصل : هذى .
(٥) كان صلاح الدين أمير حاجب البرسقي . (الكمال ، ج ٨ / ص ٣٢٤) .
(٦) بالأصل : أيام . (٧) بياض بالأصل . (والإضافة من الكمال ، ج ٨ / ص ٣٢٤) .
(٨) بالأصل : الدين . (٩) بالأصل : زين الدين . (والتصحيح من النص نفسه) .

ابن الشهرزورى وتحدثا معه ووعدته (٤١ - ب) نصير الدين ومناه، وضمن له عن عماد الدين من الأملاك والإقطاع والوقوف على اختياره ما جاوز أمله، فأجاب بهاء الدين أيضاً، وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير - وهو حينئذ أنوشروان بن خالد - فقال له: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج [عليها] وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وقد كان البرسقى يكف بعض عاديتهم (١)، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل، ولا بد للبلاد من شهيم شجاع يذب عنها ويحمى حوزتها، وقد أنهينا الحال إليك، لثلاثاً (٢) يجرى خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله، واللوم من السلطان. فأنتهى (٣) الوزير ذلك إلى السلطان، فقال: من تريان يصلح لهذه البلاد، فقد نصحتنا (٤) لله تعالى وللمسلمين، فذكر جماعة فيهم عماد الدين زنكى وعظما محله أكثر من غيره (٥)، فقال السلطان إلى توليته، لما (٦) علم من شهامته وكفايته وعقله لما تولاه، (٤٢ - أ) وأمره (٧) بالحضور عنده، وفصل الحال في خدمة يحملها، واستقر الحال وولاه (٨) البلاد جميعها (٩)، وكتب منشوره إلى بغداد (١٠).

وسار [زنكى] إلى البوازيج ليملكها ويتقوى بها، ويجعلها ظهره إن [صدته (١١)] جاولى عن البلاد. فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل، فحين أن [اتصل خبر] وصوله بجاولى، خرج إلى لقائه ومعه العسكر جميعه، فلما رأى الشهيد، نزل عن فرسه وقبل الأرض، ثم قبل يده وعاد في خدمته، فأقطعه الشهيد الرحبة وأعمالها وسيره إليها. وأقام هو [بالموصل (١٢)] إلى أن يصلح أمورها ويقرر قواعدها، فولى نصير الدين دزدارية (١٣) قلعة [الموصل (١٤)] وفوض إليه أمر الولاية جميعها، وجعل الدزدارية (١٥) في [قلاع (١٦)] البلاد لنصير الدين [أيضاً]. وجعل صلاح الدين الياغيسيانى أمير حاجب، وجعل بهاء الدين قاضى قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم (٤٢ - ب) انبساطاً معه وقرباً منه، ورتب الأمور على أحسن حال وأحكم قاعدة.

- (١) بالأصل: قد علم عاديتهم (والتصحيح من، الكامل، ٨/ص/٣٢٤). (٢) بالأصل: لا (٣) بالأصل: فانها. (٤) بالأصل: نصحتها. (٥) بالأصل: غير. (٦) بالأصل: ولما. (٧) بالأصل: وأمرهما. (٨) بالأصل: وولى. (٩) فى ابن واصل (٨/ص/٣٣)، أن السلطان محمود عهد إلى عماد الدين بترية ابنه الملك ألب أرسلان المعروف بالحقاجى، فأحذه عماد الدين معه إلى الموصل. وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك فيما يلى، فى خبر مقتل نصير الدين جقر سنة ٥٣٩. (١٠) فى ابن خلكان (٦/ص/٣٣) ترجمة عماد الدين زنكى - نشر محمد فريد رفاعى. أنه لما ثوى عز الدين مسعود، عزم السلطان محمود على تسليم الموصل إلى دبى بن صدقة الأسدى صاحب «الحلة»، فأسكر الخليفة المسترشد عليه ذلك، واستدعى رسولى الموصل وقرر معهم تولية عماد الدين عليها، وبذل الخليفة للسلطان مائة ألف دينار ترضية له، ومن ثم أصدر السلطان مرسوماً بتولية عماد الدين على الموصل. (١١) الإضافة من الكامل (٨/ص/٣٢٤). (١٢) الإضافة من الكامل (٨/ص/٣٢٤) (١٣) الدزدار: (بضم الدال وسكون الزاى وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء). لفظ أعجمى معناه: حافظ القلعة، وهو الوالى. (ابن خلكان، ترجمة صلاح الدين الأيوبي). (١٤) بياض بالأصل. (والإضافة من، الكامل، ٨/ص/٣٢٤). (١٥) بالأصل الدزدارية.

ذكر ملكه جزيرة ابن عمر (١)

لما فرغ الشهيد رضى الله عنه من أمر الموصل ، وتقرير قواعد (٢) الجنود وأقطع العساكر ، سار (٣) نحو جزيرة ابن عمر ، فحصرها وبها بعض (٤) [بمالك (٥)] البرسقى ، فامتنع بها ثقة بحصانتها وظناً منه أنها تحميه ، فراسله عماد الدين (٦) وبذل له ورغبة فلم يصنع إلى ذلك ، فحينئذ جد الشهيد في قتالها ، وبينه وبين البلد الدجلة ، فأمر الناس فألقوا أنفسهم في دجلة ، بعضهم سباحة (٧) ، وبعضهم في السفن ، وتكاثروا على أهل الجزيرة ، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين البلد وبين دجلة تعرف بالزلاقة ، لينعوا من يريد عبور دجلة ، فاقتلوا هم والعساكر قد عبروا الماء ، فانهزم عسكر الجزيرة ، وملك عسكر عماد الدين ، فلما رأى من بالبلد ذلك ، أيقنوا أن البلد يؤخذ عنوة إن لم يأمنوهم ، فأرسلوا (٨٣ - أ) إلى عماد الدين - وكان قد عبر دجلة أيضاً مع عسكر - وطلبوا منه الأمان وقاعدة تقرر (٨) بينهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وتسلم البلد ودخله هو وعسكره ، فاتفق أن دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة ، حتى التصق (٩) الماء بسور البلد وصعد (١٠) فيه أكثر من قامة ، وامتلات (١١) الزلاقة بالماء ، فلو تأخر دخول الشهيد إلى البلد يومهم ذلك ، لغرقهم الماء عن آخرهم ولم ينبج منهم أحد . فلما رأى ذلك الناس ، أيقنوا بسعادته ، وعلبوا أن أموراً - هذه بدايتها - لعظيمة .

ذكر ملكه البلاد الجزرية بقوة واقتدار (١٢)

قال : فلما فرغ من أمر جزيرة ابن عمر ، سار عنها إلى نصيبين - وكانت لحسام الدين تمر تاش ابن إيلغازى [بن أرتق] صاحب ماردين وغيرها - فلما نازلها الشهيد ، سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان [بن أرتق] ، صاحب حصن كيفا (١٣) يستنجد به على دفع أتاك (٤٣ - ب) عن نصيبين ، فوعده النجدة وجمع عساكره ، وعاد حسام الدين إلى ماردين ، وسير رقاعاً (١٤) على أجنحة الطيور إلى نصيبين ، يعلم من بها من الأجناد أنه وابن عمه ركن الدولة سائران [إليهم (١٥)] في العساكر الكثيرة ، ويأمرهم بحفظ البلد ثلاثة أيام (١٦) ، فبينما أتاك الشهيد في خيمته إذ رأى طائراً قد سقط على خيمة تجاورها ، فأمر بصيله فاصطيد ، فرأى فيه رقعة ففتحها ،

- (١) بالأصل : جزيرة ابن عمر بن الخطاب . (٢) بالأصل : قواعد . (٣) بالأصل : سائر . (٤) بالأصل : بعد . (٥) الإضافة من ، الكامل ، (٨/ص/٣٢٤) . (٦) بالأصل : زين الدين . (٧) بالأصل : بسباحه . (٨) بالأصل : تقرر . (٩) بالأصل : التصقت . (١٠) بالأصل : وصعدت . (١١) بالأصل : واستمرت الزلاقة بالماء . واللفظ : استمرت ، لا معنى له في الجملة ، واللفظ المثبت هنا أقرب الألفاظ للمعنى الذى يعنيه ابن الأثير . (١٢) بالأصل : واقتداراً . (١٣) حصن كيفا : في (ياقوت) : ويقال : حصن كيا . وهى بلدة وقاعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (١٤) بالأصل : رقاقاً . (١٥) الإضافة من الكامل (٨/ص/٣٢٥) . (١٦) في الكامل (٨/ص/٣٢٥) : خمسة أيام .

ولإذا هي الزقعة المذكورة ، فأمر فكتب غيرها ، يقول فيها : من حسام الدين ، إني قد قصدت ابن عمي ، وقد وعدني بالنصرة والمسير في العساكر ، وما يتأخر وصوله إلينا أكثر من عشرين يوماً ، ويأمرهم بحفظ البلد في هذه المدة ، وشدها على جناح الطائر وأرسله ، فلما رأى من فيه الزقعة ، خافوا على نفوسهم ، وعلموا أنهم يعجزون عن حفظ البلد هذه المدة ، فأرسلوا إلى الشهيد وصانعه وسلموا إليه القلعة ، فبطل على داود وتمرتاش ما كانا عزمنا عليه . وقد جرى مثلها (٤٤ — أ) للمولى السعيد نور الدين أرسلان شاه على نصيبين أيضاً سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ونحن نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها (١) .

قال . فلما تسلم الشهيد نصيبين ، سار عنها إلى سنجار ، فامتنعت عليه وقاتله من بها ، ثم إنهم سلبوها إليه واتصلوا بخدمته ، وسير منها الشحن (٢) إلى الحابور (٣) فلما جمعه . ثم سار إلى حران — وكانت الرها وسروج وغيرها من ديار الجزيرة للفرنج لعنهم الله — وأهل حران معهم في ضيق عظيم ، لخلو البلاد من حام يذب عنها (٤) أو سلطان يمنعها (٥) ، فلما سمعوا بملك الشهيد البلاد واستيلائه عليها ، وإذعان من بها إليه ، قويت نفوسهم ، وعلموا أنهم قد أتاهم نصر من الله وفتح قريب ، فراسلوه (٦) بالطاعة ، واستحثوه على الوصول إليهم ، فسار نحوهم (٧) مجداً حتى نزل بساحتهم ، فاستبشروا بقدومه ، وخرجوا إلى لقائه ، فوعدهم ومناهم .

(٤٤ — ب) وأرسل إلى جوسلين صاحب الرها وغيرها من البلاد التي بيد الفرنج بالجزيرة وهادنه مدة يسيرة ، يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية لإصلاح شأنها ، والفراغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحتهم وشجاعتهم . وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية ، فاستقرت قاعدة الصلح بينه وبين جوسلين على ما اختاره .

ذكر ملكة مدينة حلب وحماة

كان الفرنج خذلهم الله تعالى قد استضعفوا بلاد الشام الإسلامية ، فتابعوا الغارات على أهلها وقصدوها محاصرين لها لخلوها من حام ومانع ، وقد قوى طمعهم في ملك ما بقي في يد المسلمين

(١) بالرجوع إلى خبر استيلاء نور الدين أرسلان شاه على نصيبين سنة ٥٩٤ هـ ، في « النص » و « الكامل » لم نجد فيه ذكر مكيدة من نوع ما صنع عماد الدين أو غيرها من المكائد .
(٢) الشحن : جماعات من الفرسان . وفي (لسان العرب) : بالبلد شحنة من الخيل ، أي رابطة . (٣) الحابور : في (ياقوت) : لاسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة . والحابور أيضاً ولاية واسعة وبلدان حجة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من بلاد قرقيساء ، وما كسين ، والمجلد ، وعربان . والحابور ، خابور الحسينية من أعمال الموصل في شرق دجلة ، وهو نهر من الجبال عليه عمل واسع وقرى في شمال الموصل في الجبال ، له نهر عظيم يسقى عمله ، ثم يصب في دجلة ، ويخرجه من أرض الزوزان . (ولعل ابن الأثير يقصد أن عماد الدين استولى على خابور الحسينية ، وهو الأقرب إلى الواقع) . (٤) بالأصل : عنهما . (٥) بالأصل : يمنعها . (٦) بالأصل : فراسلوا . (٧) بالأصل : نحوهم .

من البلاد ، لا يعلمون ما أعدّه الله سبحانه في سر الغيب ، وما قدره من الإنتقام منهم وإدالة المسلمين عليهم ، ليذهب غيظ (٤٥ — أ) قلوبهم . ويشف صدور قوم مؤمنين .

وكان الفرنج يقاسمون أهل حلب على رحا يباب الجنان ، بينها وبين المدينة أذرع يسيرة . فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم ، راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه ، وأذعنوا له بالطاعة ، فسار إليهم فلما عبر الفرات ، ملك مدينة منبج ، وحصن بزاعة (١) وسار إلى حلب ، فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح والسرور به ما لا يعلمه [إلا] الله سبحانه وتعالى ، وكان ملكه لها سنة اثنين وعشرين وخمسمائة (٢) . ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بولاية الشهيد ، لكان الفرنج قد استولوا على الشام جميعه ، فإنهم كانوا لهم من أتائبك طغدين شاغل ومانع عن بعض أغراضهم ، وكانوا متي حصروا حلب وغيرها جمع طغدين عسكره وسار نحوهم فيرحلون ، فقدر الله تعالى أنه توفي سنة اثنين وعشرين وخمسمائة فخلت البلاد بالمرّة ، وصح قول النبي صلى الله عليه وسلم : لم تخل البلاد من قائم (٤٥ — ب) لله بنصر دينه ، واطف الله بالمسلمين بعده ، وولى الشهيد قدس الله روحه . ولما ملكها أقام بها ليقرر (٣) قواعدها ، ويصلح أمورها ، ويعمر ما خرب من بلدها بتوالي غارات الفرنج عليها (٤) ففرغ من جميع ما أراده (٥) .

وفي سنة ثلاث وعشرين [وخمسمائة] . سار إلى حماة فملكها (٦) .

ذكر الحرب بين الشهيد أتائبك وبين الملوك الأرتقية (٧)

وملك مدينة سرجة ودارا وما إليهما

في سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، اجتمع ركن الدولة داود بن سقمان صاحب الحصن وغيره (٨) وحسام الدين تمر تاش بن يلغازي — وهو ابن عم داود — وانضم إليهما (٩) صاحب آمد (١٠) وغير من ذكرنا ، وجمعوا من الأمراء من انتهت قدرتهم إلى جمعه ومن (١١) العساكر والتركمان ، وكان داود مطاعا في التركمان ، حتى أن نشأته كانت إذا وصلت حلة منهم ، تبرك بها رجالهم ونساؤهم فاستمدهم واستنجدهم ، فجاءوه على الصعب والذلول ، فاجتمعوا في نحو عشرين ألف مقاتل ،

(١) بزاعة : في (ياقوت) : سمعت من أهل حلب من يقوله بالضم والكسر . ومنهم من يقول : بزاعا ، بالقصر . وهي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان ، بين منبج وحلب ، وبين كل واحدة منهما مرحلة . وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة . (٢) في ، الكامل (ح/٨/ص ٣٢٦) أنه ملكها في أول المحرم من السنة . (٣) بالأصل : ليقرر . (٤) بالأصل : عليه . (٥) في ابن واصل (ح/١/ص ٤٠) أن عماد الدين ، بعد أن استولى على حلب ، سار منها إلى خدمة السلطان محمود في تجمل عظيم ، ثم عاد إلى الموصل ومعه منشورة بالجزيرة والشام وما اتصل بهما ، بعد أن يحمل للسلطان وأصحابه ما يزيد على مائة وعشرين ألف دينار . وفي ابن العديم (ح/٢/ص ٢٤٣) ، أن عماد الدين سار إلى السلطان بعد استيلائه على حماة ، ثم عاد « بالتواقيع السلطانية بملك الغرب » . (٦) في الكامل (ح/٨/ص ٣٢٩) تفاصيل استيلاء عماد الدين عليها غدرأ . (٧) بالأصل الأرتقية . (٨) بالأصل : وغيرها . (٩) بالأصل : إليهم . (١٠) هو سعد الدولة أبو منصور إيكليدي بن نحر الدولة إبراهيم . (ابن واصل ، ح/١/ص ٥٤) . (١١) بالأصل : من .

(٤٦ — أ) وسار إليهم الشهيد ولقيهم بالقرب من دارا (١) — وهى لهم أيضا — فاقتلوا قتالا شديدا ، صبر [فيه] عسكر الشهيد — وهم نحو أربعة آلاف فارس — لشجاعتهم ، وصبر عسكر الأرتقية لكثرتهم ، تم انجلت الواقعة عن هزيمة الأرتقية ، فلما انهزموا حصر سرجة (٢) فملكها وانتقل إلى دارا فملكها أيضا . فحكى لى والدى ، قال : لما انهزموا سار ركن الدولة داود من المعركة ومعه من سلم من عسكره ، فقصده بلد جزيرة ابن عمر فتهبه وأخبره ، وبلغ الخبر إلى أتابك فسار نحو الجزيرة ، وأراد أن يتبعه إلى ديار بكر ، فلم يمكنه لضيق المسالك وخشونة الطريق بها ، ومع هذا فجميعها لداود ، فخاف أن يمسك عليه المضايق ويناله أذى . ثم إنه صالح القوم وعاد عنهم .

ذكر فتح حصن الأتارب من الفرنج (٣)

لما فرغ الشهيد قدس الله روحه ، من أمر الملوك الأرتقية وصالحهم وأمن ناحيتهم ، سار إلى الشام ، وقد جمع واحتشد ، وأعد واستعد ، وصمم العزم على الجهاد ، وإجلاء أهل الزيغ والعناد ، وإعلاء كلمة (٤٦ — ب) الله تعالى ، وإدحاض كلمة الشيطان ، وتسليط أهل الحق على عباد الطاغوت وأتباع الصليان ، وقصد إلى حصن الأتارب (٤) ونازله ، وأنزل بأهله الشريب ، وعم بلادهم بالنهب والإحراق والتخريب . وكان هذا الحصن أضرب على أهل حلب ، وكانوا مع من فيه من الفرنج ما بين حرب وخرب (٥) . وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوى البأس ، كل معروف بشدة المراس ، إذ هو من أخطر ثغورهم ، وهو من المسلمين فى نحورهم ، فتابع الشهيد قتالهم ، وأدمن نزالهم ، وصب عليهم العذاب من كل مكان ، ولاذربه من سطوته وبأسه بالجدران (٦) ، وعمهم الرعب فصاروا يحسبون كل صيحة أنى تسلكون ، وسقط فى أيديهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ومع هذا فقد حفظوا حصنهم وأحسنوا الذب عنهم وعنه . فلما علم ملك (٧) الفرنج الحال ، جمع الفرسان الفرنجية واستشارهم فى الذى يصنعون ، وبأى حيلة فى دفعه عن بلادهم يدافعون (٤٧ — أ) فأما أهل الغرة والجهل فهونوا حاله ، وبدلوا من أنفسهم قتاله ، ظناً منهم أنه كمن تقدم من الملوك ، لا يستعملون غير الفرار من الزحوف ، والاحتماء بعريض

(١) دارا : فى (ياقوت) : تقع بين نصيبين وماردين فى لطف جبل . (٢) سرجة : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه وجيم . يشبه أن تكون كلمة فارسية من « سروجة » ومعناه « رأس البئر » وهو حصن بين نصيبين ودينسر ودارا ، من بناء الروم القديم ، وهو باق إلى الآن (أى إلى زمن ياقوت) يسكنه الفلاحون ، رأيت . فى طوله ستة أبراج ، وفى عرضه مما يلي الطريق أربعة أبراج . (٣) فى ، الكامن (٨/ص ٣٣١) أن فتح حصن الأتارب ، كان قبل حرب الأرتقية . (٤) حصن الأتارب : فى (ياقوت) : الأتارب ، قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية ، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ . (٥) بالأصل : بين حرب وخرب . ولعل اللفظ : خرب ، الذى اثبتناه هو الذى أراد ابن الأثير . (٦) بالأصل : الجدران . (٧) كان ملك الفرنج فى ذلك الوقت ، الملك فولك ، ملك بيت المقدس . (حبشى : نور الدين والصليبيون ، ص ٢٤) .

الأسوار لا بحداد الأسنة ورقاق السيوف ، فعارضهم بعض من حضر من شياطينهم وذوى (١) الرأى والتجربة من طواغيمهم ، وقال : إني أرى (٢) شرراً سيكون له ضرام ، ودخاناً تحته شواظ ، أليس هذا الغضنفر (٣) الذى أثر فى طبرية بمفرده ما أثر ، فكيف به اليوم وهو فى عدة وعديد ، ومتطوعة وجنود ، فalcوا قناع التواني ، ولا تسيروا إلى دفعه سير السواني (٤) ، فلا بد لهذا العارض (٥) أن يملاً بسيله الوادى ، ولهذه النار أن تعم بشرها النادى ، ولهذا الإقدام أن يصل ضرره إلى الحاضر والبادى ، ولئن لم نلقه (٦) بجموع ننصف منه بها ، وتلحقه بمن تقدمه من مقدمى الجيوش ، ليسكون لنا منه يوم عصيب ، وليأخذن للمسلمين منا بأوفر نصيب . فحينئذ (٤٧ - ب) إهتموا بجمع الفرسان والأجناد ، وأحضروا من فى أطراف (٧) البلاد ، وجمعوا الدانى والقاصى ، والمطيع والعاصى ، وأقبلوا فى جموعهم المحشورة ، وعساكرهم المجرورة ، وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم ، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم (٨) ، وجاءوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها ، وامتلاً منهم شمالها وجنوبها ، هذا والرعب قد ألقاه الله فى قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قد عم رئيسهم ومرعوسهم فهم منه خائفون ، يقدمون فى مسيرهم رجلاً ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن المقام بهم أولى وأحرى (٩) ، لكن آجالهم تسوقهم إلى مصارعهم (١٠) فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

فلما تدانى الزحفان استشار المولى (١١) الشهيد وزراه وأمراه ، فأشار أكثرهم بالعود إلى حلب ، ومطاوله الفرنج إلى أن يتفرقوا ، فقال : هذه خطة (٤٨ - أ) خسف تجربتهم علينا ؛ وتطمعهم فيما لدينا ، لكن الرأى أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم ، فإما لنا وإما علينا (١٢) ، وتأهب للقاءهم ، وسار إلى تلقائهم ، فلم يبعد حتى وافاهم ، ولم يغب الحصن عنه حتى أتاها ، ونشبت (١٣) الحرب بين الفريقين ، واشتد الطعن والضرب بين الطائفتين ، وحمل الشهيد للإسلام وانتصر ، ولبس لأعدائه جلد النمر ، وصال عليهم وزأر ، وقال لهم ذوقوا من سقر ، وظل يوسعهم بحملاته حطماً ، ويستأصل أركانهم هدماً ، ويحرض أصحابه ويدمنهم (١٤) ، وبتتابع الحملات عليهم يأمرهم . فحينئذ رأى الفرنج ما قد أحاط بهم من البلاء ، وعلموا أن الهزيمة أصلح لهم من العطب ، وأنى لهم ذلك وقد علققت معالقيها وصر الجندب (١٥) ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، كما فعل بأشياهم من قبل ، وكثر فيهم الأسر والقتل .

- (١) بالأصل : وذووا . (٢) بالأصل : أرا . (٣) بالأصل : الغظنفر .
(٤) السواني : جمع سانية . والسانية ، الناضجة وهى النافقة التى يستقى عليها . وفى المثل : سير السواني : سفر لا ينقطع . (مختار الصحاح) . والمراد هنا فى النص ، السير المتمهل . (٥) العارض : السحاب .
(٦) بالأصل : نلقه . (٧) بالأصل : الأطراف . (٨) أنظر الصفحة التالية ، حاشية ٤/ .
(٩) بالأصل : واجراى . (١٠) بالأصل : مصارعهم . (١١) بالأصل : المولوى .
(١٢) بالأصل : إلينا . (١٣) بالأصل : وبشت . (١٤) يدمنهم : أى يحرضهم على مداومة القتال .
(١٥) الجندب : ضرب من الجراد . (مختار الصحاح) .

فلما تعذرت (١) عليهم الهزيمة ، حموا أنفسهم اللثيمة (٢) ، وأمرهم ملوكهم بالصبر والثبات ، والجلاد (٤٨ - ب) عن البنين والبنات ، والآباء والأمهات ، والإخوان والأخوات (٣) ، فحينئذ صدقوا القراع ، وأحسنوا المصاع ، وصال ملوكهم وقامصتهم (٤) ، وفرسانهم ودأوتهم (٥) ، وقاتلوا قتال من أيس من النجاة بالإنهزام ، فطلبهم (٦) [زنكى] بصدق القتال والإقدام ، ولقيهم الشهيد لقاء محسوب للأخرة :

فأثبت (٧) فى مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخمصك الحشر (٨)

فقلق هو وأصحابه الهام ، وبروا العظام ، وأجلت الواقعة عن رءوس بلا غلاصم ، وأيد بغير معاصم ، وأخذت سيوف الله من أعناق أعدائه أغماداً ، وأدركت خيله منهم ثاراً وأحسنت جلاداً ، وأمر الشهيد فيهم بالإثخان ، ومنع من الأسر وإعطاء الأمان ، فلأت جثث القتلى تلك الصحراء فى الطول والعرض ، وتأول قوله تعالى ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض (٩) ﴾ وقصد أن يملأ قلوبهم رعباً ، ويذعرهم عن البلاد سرباً سرباً ، فلم ينج من المعركة إلا من اتخذ الليل جملاً (٩٤ - أ) أو ابتغى بالإختفاء بين القتلى موئلاً (١٠) ، فلما

(١) بالأصل : تعذر . (٢) بالأصل : اللثيمة . (٣) بالأصل : الحوات . (٤) القامصة ، جمع قومص . والقومص تعريب حرفى للفظة اللاتينية (Comes) أى الأمير . ومعناها الأصل فى اللاتينية « الفريق » ، لأنه كان فى بادى الأمر يرافق الملك فى حروبه وتقلاته . ولفظة (Comes) اللاتينية ، هى التى حورت فى اللغة الفرنسية إلى Comte . واعتادت المراجع العربية أن تعريبها إلى : « كد » و « كند » و « قند » ، ويجمعونه على كنود . (ابن واصل ، ح/١/ص/٧٣/حاشية ١) . (٥) نسبة إلى الديوية ، وهم قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لجهاد المسلمين ، ويعنون أنفسهم عن النسكاح وغيره . ولهم أموال وسلاح ، ولا طاعة عليهم لأحد . (النجوم الزاهرة ، ح/٦/ص/٣٣/حاشية ٣) . وفى (السلوك ، ح/١/ص/٦٨/حاشية ٤) ، أن لاسمهم الإفرنجى Templiers . وأن المسلمين أطلقوا عليهم لاسم « جمعية فرسان المعبد » . وقد أسس هذه الجمعية Hugh de payns سنة ١١١٩ م ، لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ، ثم تحولت إلى هيئة حرية دينية . وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير فى تاريخ الإمارات الإسلامية . ويقول ابن الأثير (السكامل ، ح/٩/ص/٢١٤) ، أن المسلمين كانوا يتفنون بعبود الديوية وذلك « لأنهم أهل دين يرون الوفاء » .

وهناك جماعة حرية دينية مسيحية أخرى تعرف عند المؤرخين العرب ، بالإستبارية — وسيرد ذكرهم فيما يلى من النص — وعند الغربيين باسم Hospitallers . وهم أيضاً فرسان مثل الديوية . وفى (السلوك ، ح/١/ص/٦٨/حاشية ١) ، أن الإستبارية تأسست سنة ١٠٩٩ م ، على يد Blessed Gurrard ، بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكان لهم دار ببيت المقدس قبل ذلك بزمان طويل ، مأوى للحجاج والمرضى من المسيحيين ، ثم تحولت إلى هيئة حرية دينية . وكان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير فى تاريخ الإمارات بانشار . وفى (النجوم الزاهرة ، ح/٦/ص/٣٣/حاشية ٢) ، أن الإستبارية طائفة من رجال الدين ، كان مبدأ أمرهم فى القرن التاسع الميلادى فى إيطاليا ، وتعرف باسم : Notre-Dame de la Scale ، ثم زاد عددهم فى الحروب الصليبية لمساعدة الصليبيين من جهة ، والدعاية للشر الدين من جهة أخرى ، وهم فرق كثيرة مختلفة .

وكان للديوية عدة معاقل وحصون بالشام منها : غزة — وهى معقلهم — وصفد ، وبيت الأحزان ، وبيت جبريل (الروضتين ، ح/١/ص/١٩٣ ؛ ح/٢/ص/١١/١٢١) . كذلك كان للإستبارية عدة معاقل وحصون ، منها : حصن الأكراد ، والمربق . (السلوك ، ح/١/ص/١٦١) (٦) بالأصل : فطلبها . (٧) بالأصل : واثبت . (٨) بالأصل : الحشرة . والبيت ورد بالأصل نثراً ، وهو من قصيدة للشاعر أبى تمام ، رثى بها محمد بن حميد الطائى ، (٩) سورة الأنفال : ٦٢ . (١٠) بالأصل : مؤيلا .

استقر له (١) النصر، وآل به إلى الظفر الصبر، رجع إلى الحصن فلما عتوة وقهرأ، وعم كل من فيه قتلاً وسبياً وأسراً. ولقد سمعت من يحكى أن عظام القتلى لم تزل بتلك الأرض مدة طويلة. ولما ملك الحصن آخر به ومحا (٢) أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره، كما قال فيه الشاعر (٣) حيث يقول:

ما ربع مية معموراً يطيف به غيلان أبهى ربي من ربعها الحرب (٤)
ولا الحدود وإن أدمين من خجل أشهى إلى ناظر من خدها الترب

قال: ثم رحل إلى حصن حارم (٥) فحضره، فأنفذ من لم يحضر المعركتين من الفرنج ومن نجا منهما (٦) يسألون الصلح، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثر فيهم الجراحات والقتل، فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم. وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد، وأعلنت في الحاضر والباد.

(٤٩ - ب) ذكر وفاة السلطان الملك مغيث الدين

محمود بن محمد بن ملكشاه

في سنة خمس وعشرين وخمسمائة (٧)، توفي السلطان محمود بهمدان، وكان عمره نحو ثمانية وعشرين سنة (٨). وكانت ولايته ما تقارب أربع عشرة سنة (٩). وكان حليماً، كريماً، عاقلاً، عادلاً، كثير الإحتمال. ووزر له أبو القاسم الأنساباذي (١٠)، وهو الذي سعى بالعزيم المستوفى (١١) حتى قبض [عليه] وسلم إلى بهروز شحنة العراق فسجنه بتكريت (١٢)، ثم قتل سنة ست وعشرين.

ولما توفي السلطان محمود، طلب السلطان مسعود بن محمد السلطنة، وطلبها [أيضاً] أخوه

(١) بالأصل: استمر. (٢) بالأصل: محي. (٣) الشاعر هو أبو تمام، والبيتان من قصيدة له في وصف عمورية - وكانت للروم - بعد أن أخرجها الخليفة العباسي المعتصم بالله سنة ٢٢٣، بعد حرب طاحنة. (٤) بالأصل: الحرب. (٥) حارم: في (ياقوت): بكسر الراء. حصن حصين وكورة جليمة تجاه أنطاكية. (٦) بالأصل: منها. (٧) في (الكامل، ج ٨/ص ٣٣٣) أنه توفي في شوال من السنة. (٨) في (الكامل، ج ٨/ص ٣٣٣)، كان عمره سبعة وعشرين سنة. (٩) في (الكامل، ج ٨/ص ٣٣٣)، كانت مدة ولايته اثني عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً. وما هنا أصح، لأنه ولي السلطنة - كما في (الكامل) - في ٢٤ ذي الحجة سنة ٥١١، وتوفي في شوال سنة ٥٢٥. (١٠) ذكره العماد الكاتب في «تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٠٨، وما بعدها»، أبو القاسم الدرر كزني أيضاً. وأخباره مفصلة عند العماد. وتوفي أبو القاسم سنة ٥٢٧. (١١) هو أحمد بن حامد ابن محمد أبو نصر. (الكامل، ج ٨/ص ٢٣٨)، وهو عم العماد الكاتب الأصفهاني صاحب «تاريخ دولة آل سلجوق» وغيره، وقد ذكر العماد محنة عمه في كتابه المذكور. (١٢) تكريت: في (ياقوت): بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، وبينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً. ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى، راكبة على دجلة. وهي غربي دجلة.

سلجوق شاه بن محمد ، والمملك داود بن السلطان محمود (١) ، وكان بينهم حروب كثيرة ، نذكر منها ما كان للشهيد عماد الدين — قدس الله روحه — فيها أثر وفعل ، وترك الباقي إذ هو خارج عن غرضنا .

ذكر ملك السلطان المملك العادل مسعود

والحروب الحادثة إلى أن ملك

لما مات السلطان محمود ، اتفق الوزير (٥٠ — أ) الأنساباذى (٢) وأتابك سنقر الأحمدي على [تولية] ولده المملك داود بن محمود ، وخطبوا له في جميع بلاد الجبل وآذربيجان ، وساروا إلى زنجان . وكان السلطان مسعود بكنجة — وهي له — فلما بلغه موت أخيه سار إلى تبريز فملكها ، فسار إليه المملك داود فحصره بها ، ثم أفرج عنه حتى خرج منها وقصد (٣) بلاد الأمير قفجاق (٤) ، فاجتمعت العساكر عليه بها سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وسار إلى بغداد وهو في عشرة آلاف فارس ، وسار قراجه الساقى صاحب خوزستان وفارس إلى بغداد ، ومعه المملك سلجوق شاه ابن السلطان محمد ، وقراجه يريد أن يأخذ السلطنة لسلجوق شاه ، وقد اجتمع معه عسكر عظيم ، وأتاه جماعة من الأمراء الكبار ، منهم يوسف جاووش وغيره ، فسبق سلجوق شاه أخاه السلطان مسعوداً إلى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وأرسل السلطان مسعود إلى الشهيد عماد الدين — قدس الله روحه — يستميله ويستنجده ، فأجابه إلى ما طلب (٥٠ — ب) منه ، وسار عن الموصل إلى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع بالسلطان مسعود ، وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية الخالص قريب بغداد .

فلما سمع قراجه وسلجوق شاه بوصول الشهيد إلى تكريت ، عبر قراجه إلى الجانب الغربي ، وأسرى إلى تكريت في عسكره جميعه ، ولم يخلف ببغداد مع سلجوق شاه غير عدد يسير ، ولم يزل يسير حتى وصل إلى تكريت في يوم وليلة ، فواقعه (٥) الشهيد فهزمه قراجه وأسّر أكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد .

وأما الشهيد ، فإنه عاد من الهزيمة إلى الموصل (٦) ، فجمع العساكر وأنفق الأموال فعادوا كأنهم لم يصابوا .

(١) في ابن واصل (٤٦/ص ١) ، أن عماد الدين أرسل أيضاً إلى الخليفة المسترشد بالله يسومه أن يخطف ببغداد المملك ألب أرسلان بن السلطان محمد الذي يصرف على تربيته . فاعتذر الخليفة بأن ألب أرسلان ما زال صبيّاً ، وأن السلطان محموداً عهد بالسلطنة لداود ، وأنه — أى الخليفة — منتظر رأى السلطان سنجر لأنه عم القوم .
(٢) بالأصل : الإنشاء بادى (أنظر ما سبق ، ص ٤٢) . (٣) بالأصل : وقصدها . (٤) هو الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركاني ، وكانت له شهرزور وأعمالها . (الكامل ، ٨/ص ٣٦٨) .
(٥) بالأصل : فواقع . وفي الكامل (٨/ص ٣٣٦) ، أن الموقعة كانت في مكان يقال له « المشوق » .
(٦) ذكر ابن الأثير فيما يلي من النص ، في خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر ، في المرة الأولى ، وكذلك في الكامل =

وأما السلطان مسعود ، فإنه تقدم من العباسية (١) ، وجرى بينه وبين أخيه سلجوق [شاه] مناوشة ، فلما بلغه خبر الهزيمة الكائنة على الشهيد ، فت ذلك في عضده ، وأضعف نفسه فعاد إلى ورائه .

وكان قد وصل الخبر بوصول السلطان سنجر إلى نواحي همذان — وكان قد خرج في عساكر لا تحصى من خراسان ، ومعه (٥١ — أ) الملك طغرل بن السلطان محمد لينتبه في السلطنة — فلما اتصل خبر وصوله [ببغداد] ، أرسل الخليفة المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يأمره بالتوقف ، ليقرر الصلح بينه وبين أخيه سلجوق شاه ، ليتفقا على قتال عمهما السلطان سنجر ، فأقام . وترددت الرسل ، واستقر الصلح على أن تكون السلطنة لمسعود ويكون سلجوق شاه ولي عهده ، وعاد السلطان مسعود إلى بغداد ونزل بدار السلطنة ، وحضر أخوه سلجوق شاه في خدمته .

وسارا جميعاً إلى قتال عمهما (٢) السلطان سنجر ، وألزما المسترشد بالله بالمسير معهما فامتنع ، فهدده قراجه الساقى ، فخرج مكرها منها وسار بعدهما .

وأرسل السلطان سنجر إلى الشهيد يأمره أن يقصد بغداد هو وديس بن صدقة ملك العرب ، — وكان [ديس] عند الشهيد على ما ذكره إن شاء الله تعالى — ويستوليا عليها ، ويخطبا له ببغداد وبعده للملك طغرل .

(٥١ — ب) ذكر الحرب بين السلطان سنجر والسلطان مسعود

لما سار السلطان مسعود وأخوه سلجوق شاه إبننا محمد إلى حرب عمهما السلطان سنجر ، جعلاً على المقدمة يرشق بازدار ، ويوسف جاووش ، وحسين أوزبك ، وهم من أكابر الأمراء ، فلقيتهم طلائع السلطان سنجر بدای مراك (٣) ، فرجعوا إلى کرمان شاه ، وكان على مقدمة السلطان سنجر ، الملك طغرل بن محمد ، وخوارزمشاه ، والأمير قجاج . ورحل السلطان سنجر من همذان يريد السلطان مسعوداً ، فعاد مسعود عن طريقه ، فتبعه السلطان سنجر ، فالتقيا قرب الدينور ، وكان العسكران كالبحرين كثرة (٤) . وكان على ميمنة السلطان سنجر طغرل وقجاج ، وعلى ميسرته

== (ح / ٨ / ص ٣٣٦) مساعدة نجم الدين أيوب — والد صلاح الدين — الذى كان دزدار تكریت ، لعباد الدين بعد هزيمته . وفى الروضتين (ح / ١ / ص ٢١٠ — نقل عن العباد الكاتب) معلومات أكثر مما فى النص و « الكامل » عن هذه المساعدة . حيث يذكر أن عماد الدين انهزم وبه عدة جراحات ، فلما علم به نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه حملا إلى قلعة تسكریت بالحبال ، ودأوا بجراحاته ، وخدماء أحسن خدمة وتقربا إليه . فأقام عندهما بتكریت خمسة عشر يوماً ، ثم سار إلى الموصل ، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر ، حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم من أمتعه . فكان عماد الدين يرى لأيوب هذه اليد ، ويعرف له هذه الصنيعة ، ويواصله بالهدايا والألطفاء مدة مقامه فى تسكریت . فلما انفصل أيوب عن تسكریت وسار إلى عماد الدين ، تلقاه بالرحب والسعة واحترمه احتراماً عظيماً ، وأقطعه عدة قطائع . (١) بالأصل : العباسية . (والتصحیح من الكامل ، ح / ٨ / ص ٣٣٦) . (٢) بالأصل : عمها . (٣) بالأصل : دامرج . (والتصحیح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ص / ١٦٢ . ولم يعرف بها ياقوت فى معجمه) . (٤) بالأصل : كثيرة .

خوارزمشاه . وعلى ميمنة السلطان مسعود ، قراجة الساقى ، والأمير قزل ، [وكان قزل (١)]
قد واطأ خوارزمشاه على الهزيمة بين يديه ، ليقع الوهن فى عسكر السلطان مسعود . فلما التقى
العسكران ، حمل خوارزمشاه على قزل فانهزم ، واختلطت العسكر ، وارتفع العجاج ، وكان يوماً
فامشهوداً ، وحمل قراجة الساقى على القلب — وفيه السلطان سنجر فى عشرين ألف (٢) (٥٢—أ)
رس ، هم أعيان العسكر وشجعانهم ، وبين يديه الأفيلة — فلما تقدم إلى القلب ، حمل طغرل
وخوارزمشاه فيمن معهما ، فأتوه من وراء ظهره فصار فى الوسط ، فقاتل إلى أن جرح ، وقتل
كثير من أصحابه وأخذ أسيراً ، وانهزم السلطان مسعود ، وقتل يوسف جاووش ، وحسين
أوزبك فى المصاف ، وكان ذلك ثامن رجب .

ونزل السلطان سنجر ، وأرسل بعض خواصه إلى السلطان مسعود ، وقد بلغ خونج ، وأمنه
واستدعاه إليه ، فحضر عنده وعاتبه على إقدامه عليه ، فاعتذر وأنسب ذلك إلى ايتكين الخادم ،
فأمر به فضربت عنقه .

وأمر السلطان بالمسير إلى كنجة . فحكى لى والدى عن جماعة حضروا ذلك المصاف ، قال :
أحضر السلطان سنجر قراجة الساقى وعاتبه على فعله ووبخه ، وقال له : إذا حاربني أولاد أخى
فليس يبعد (٣) أن يطلبوا السلطنة ، وأما أنت ، فما كنت تريد حتى تجمع العساكر وتوكل الناس
على قتالى ، أكان (٤) يصير لك (٥٢ — ب) من الملك أكثر من بلاد فارس وخوزستان . قال :
كنت أرجو أن أظفر بك وأقتلك ويكون أولاد أخيك بحكمى ، أقيم من أريد وأعزل من أريد .
فغضب السلطان سنجر منه وأمر بقتله ، فقتل ، وأمر أن يشق صدره عن فواده فمأرى أكبر
منه ، فألقى عليه حجراً كبيراً فلم يبعجه ، فقال : من يكون هذا فواده يحدث نفسه بما قال .

وخطب لطرل ابن أخيه بالسلطنة فى همذان ، وأصفهان ، والرى ، وسائر بلاد الجبل .
وجعل فى وزارته (٥) أبا القاسم الأنساباذى (٦) وزير السلطان محمود .

ذكر وصول الشهيد إلى بغداد وهزيمة

لما سار المسترشد بالله عن بغداد مع السلطان مسعود ، أقام بخانقين ينظر ما يكون من مسعود ،
فلما سمع بهزيمة وقاتل قراجة ، رجع إلى الدسكرة ، فأتاه الخبر بوصول أتابك الشهيد عماد الدين
زنكى وديس بن صدقة إلى بغداد ، فأسرع العود إليها ، وعبر إلى الجانب الغربى فيمن معه من
العساكر ، وكان فيهم (٥٣ — أ) كثرة ، فالتقوا لثلاث بقين من رجب سنة ست وعشرين

(١) الإضافة ، من الكامل (ح/٨/ص/٣٣٧) . (٢) فى الكامل (ح/٨/ص/٣٣٨) : عشرة آلاف .
(٣) بالأصل : بعد . (٤) بالأصل : لكان . (٥) بالأصل : وزارته . (٦) بالأصل :
الاسترابادى . (انظر ، ما سبق ، ص ٤٢) .

وخمسائة . فحكى لى والدى عن جماعة من أصحاب الشهيد من حضر المصاف ، قالوا : إشتد القتال وظهرنا على عسكر الخليفة ، ولم يبق غير أن ينهزموا ، فرأينا خيمة سوداء قد نصبت عند المعركة ، وخرج المسترشد بالله منها راكباً بسواده ويده سيف مسلول ، فكلهم قالوا المارأينا : لحقنا دهشة ورعدة حتى كاد السلاح يسقط من أيدينا ، فكانت الهزيمة علينا ، ولم نطق الشبات فانهزمنا ونحن لا نعقل . وكان ابتداء الهزيمة من ديبس فإنه انهزم أولاً ، وعاد الشهيد إلى الموصل . وعاد المسترشد بالله إلى بغداد . وأما ديبس فإنه قصد نحو الحلة ، وجمع جمعاً وسار إليها ، وبها جمال الدولة إقبال المسترشدى ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم ديبس أيضاً .

ذكر السبب في مصير ديبس^(١) عند الشهيد

رضى الله عنه

كان ديبس بن صدقة بن منصور بن ديبس بن على بن مزيد (٥٣ - ب) ملك العرب صاحب الحلة ، قد جرى بينه وبين المسترشد بالله نفرة ووحشة غير مرة ، أوجبت شكوى المسترشد بالله منه إلى السلطان محمود والسلطان سنجر ، وجرى له أقاصيص طويلة اقتضت الحال أخيراً^(٢) إبعاده عن العراق .

وكان شريراً خبيث الطوية . وكان من أشد الناس عداوة للشهيد عماد الدين وأكثرهم وقية فيه . فسار عن العراق سنة خمس وعشرين وخمسائة ، عازماً على قصد الشام ، إلى حصن صرخد ليلتمكه . وسبب ذلك أن صرخد كانت بيد أمير اسمه أكن ، فتوفى وخلف زوجة حدثت نفسها أنها تملك الحصن ، فقال لها بعض أصحابها : إن هذا لا يتم لك إلا برجل يتزوجك من الأمراء الأكابر ، وحسن لها الاتصال بديبس ، فأرسلت إليه تدعوه ليتزوجها وتسلم إليه صرخد . فسار إلى الشام فلقبه سوء نيته ، فضل في البر فأسره قوم من بني كلب ، وسلموه إلى تاج الملوك [بورى] ابن طغتكين أتابك ، صاحب (٥٤ - أ) دمشق . فلما حصل عنده ، أرسل إليه الشهيد يطلبه منه وبذل فيه مالا ، فامتنع من تسليمه ، فتهده أتابك بقصد بلاده ومحاصرتها ، فسلمه إليه^(٣) . فلما صار عنده ، جازى إساءته بإحسان ، وأنعم عليه وخوله^(٤) ، وأعطاه المال والخيام والسلاح والخيول وكل ما يحتاج إليه الملوك ، وبالع في إكرامه إلى غاية لا مزيد عليها .

ولما اتصل خبر مصير ديبس إلى دمشق بالمسترشد بالله ، أرسل إلى تاج الملوك مع سديد الدولة بن الأنبارى صاحب ديوان الإنشاء ببغداد ، يطلب منه أن يسلم ديبساً إليه . فلما وصل

(١) الاسم مكرر بالأصل . (٢) بالأصل : أخيرة . (٣) في ، الكامل (٨/ص/٣٣٣) ، أن عاد الدين عرض على تاج الملوك أن يسلمه ديبساً ، في مقابل إطلاق سراح ابنه سونغ والأمراء الذين قبض عليهم في حماة ، فأجابته إلى ذلك . (٤) في (مختار الصحاح) : خوله الله الشيء : ملكه إياه . وخول الرجل : حشمه .

دمشق وعلم بمصير ديبس عند الشهيد ، تسمع وذكّره بما يكرهه ، فاتصل ذلك بالشهيد — وكان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار — فامتعض لذلك ، وأرسل إلى بزية وبيحها بالرجال ، وأمرهم بأخذ ابن الأنباري وحمله ، فلما عاد أخذ بنواحي الرحمة وحمل إلى الشهيد فخبسه بالموصل ، فأرسل الخليفة (٥٤ — ب) المسترشد بالله يشفع فيه ، فأطلقه وأحسن إليه .

وهذه كانت عادة الشهيد في حزمه واحتياطه ، لا يمكن رسول ملك يعبر في بلاده بغير أمره ، وإذا استأذنه رسول في العبور في بلاده ، أرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم ، فكان الرسول إليه يدخل بلاده ويخرج منها ، ولم يعلم من أحواله شيئاً ألبتة .

وفي هذه السنة — أعني سنة ست وعشرين وخمسمائة — ملك الشهيد قلعة بهمر د (١) من ديار بكر . فانظر إلى هذه الهمة ، قد كان في هذه السنة من الأمور العظيمة ، واختلاف السلاطين ، وانهماه دفعتين ، ولم يشغله ذلك عن زيادة في ملكه ، بمثل هذا الحصن العسير (٢) .

ذكر حصر المسترشد بالله (٣) أمير المؤمنين الموصل

في ربيع الأول من سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، برز المسترشد بالله من بغداد إلى الرملة ، فزّلها وجمع العساكر . وكان قد قصده (٥٥ — أ) عدة أمراء من العساكر السلطانية للخلف الواقع بينهم ، فقوى بهم المسترشد واستبد بالعراق وجبى الأموال ، وأرسل الإمام أبا الفتح الإسفرائيني (٤) الواعظ إلى الشهيد ، فاعلظ له في القول ، فأهانته الشهيد غاية الإهانة (٥) وعاد [إلى] المسترشد بالله ، فعند ذلك سار إلى الموصل في ثلاثين ألفاً ، فلما بلغ الخبر إلى الشهيد ، رحل عن الموصل في بعض عسكره ، وترك الباقي بالموصل مع نائبه بها نصير الدين جقر ، ونزل أتابك الشهيد بظاهر سنجار . فحدثني والدي ، قال : نزل المسترشد بالله على الموصل في عسكر عظيم ، وحفظها نصير الدين أحسن حفظ ، وقام فيها المقام المرضي . وكان الشهيد يرسل السرايا يقطع الميرة عن عسكر الخليفة من كل ناحية ، فقلت الميرة ، وعزت الأقوات عنهم وصاروا شبه المحصورين ، فأقام الخليفة محاصراً لها نحو ثلاثة أشهر فلم يظفر منها بشيء ، ولم يظهر له من العسكر (٥٥ — ب) بالبلد ما يدل على وهن وضعف ، فعاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً . فقيل كان سبب عوده أن السلطان

(١) في ، السكامل (٨/ص/٣٦٧) ، أن عماد الدين استولى عليها سنة ٥٣٥ . وهي لداود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا . وقد استولى عليها عماد الدين بعد حرب شديدة بينه وبين صاحبها . (٢) بالأصل : اليسير . وهو تصحيف من الناسخ . وما أثبتته الحقوقي أصح ، إذ أن اليسير في الاستيلاء عليها ، يجعل لشادة ابن الأثير بهاد الدين غير ذات موضوع . (٣) بالأصل : بالله . (٤) بالأصل : الإسفرائيني . (والتصحيف من ، السكامل ، ٨/ص/٣٤٠) . (٥) في السكامل (٨/ص/٣٤٠) ، أن الخليفة «أرسل أبا الفتح إلى عماد الدين برسالة فيها خشونة زادها أبو الفتح ، ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة ، فقبض عليه عماد الدين وناله بما يكره» ، فسار الخليفة إلى الموصل وحاصرها .

مسعوداً أرسل إليه مع نظر (١) الخادم - أمير الحاج - يشير بالعود ، فعاد ؛ وقيل بلغه عزم السلطان على قصد العراق ، فعاد . وقيل غير ذلك . وبالجملـة فلو رأى أمانة ظفر وفتح لم يرحل . وكان عوده في الشبارة (٢) ، وراسل أتابك الشهيد فصالحه وسير إليه الشهيد الخدم والهدايا .

ذكر ملك الشهيد قلاع [الأكراد] (٣) الحميدية (٤)

وفي هذه السنة ، وهي سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، إستولى الشهيد رضى الله عنه على سائر قلاع الأكراد الحميدية وولاياتهم ، منها قلعة العقر (٥) وقلعة شوش (٦) ، وغير ذلك . وسبب قصدها ، أنه لما ملك الموصل وأعمالها ، أقر الأمير عيسى الحميدى على ولايته ، ولم يعترضه فى شىء مما بيده ، فلما حصر المسترشد بالله الموصل ، حضر الأمير عيسى عنده فى جنده وجموعه ، وأمدّه بالأقوات (٥٦ - أ) وغيرها مما يحتاج إليه ، فلما عاد المسترشد بالله عن الموصل ، أمر الشهيد بحصر قلاع الحميدية ، فحوصرت مدة طويلة ، وقوتلت قتالا شديدا إلى أن فتحت فى هذه السنة ، واطمأن أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم ، فإنهم كانوا معهم فى خطة خسف . وفى سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى مدينة آمد فحصرها وضيق عليها (٧) . واستوزر ضياء الدين بن الكفر توثى .

ثم رحل عن آمد إلى الشام فحصر مدينة دمشق (٨) . وفيها توفيت والدته الشهيد بالموصل .

فى ذكر قتل أمير المؤمنين الخليفة المسترشد بالله

وخلافة الراشد (٩)

كان السلطان مسعود سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقد ضعف أمره وقوى أمر (١٠)

(١) فى ، السكامل (٨/ص/٣٤٠) : نصر . (٢) الشبارة : نوع من السفن . (٣) الإضافة من ، السكامل (٨/ص/٣٤٣) . (٤) بالأصل : الحمونية . (والنصحيح من النص نفسه ، ومن السكامل ، ٨/ص/٣٤٣) . (٥) قلعة العقر : فى (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه . قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد ، وهى شرقى الموصل ، تعرف بعقر الحميدية . (٦) قلعة شوش : فى (ياقوت) : بتكرار الشين وسكون الواو . موضع قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الجزيرة . والشوش قلعة عظيمة عالية جدا ترب عقر الحميدية من أعمال الموصل . قبل هـى أعلى من العقر وأكبر ، ولكنها فى النذر دونها . (٧) فى ، السكامل (٨/ص/٣٤٣) أن حصار آمد كان فى جمادى الآخرة من السنة ، ولما عجز عماد الدين عنها إستولى على قلعة « الصور » . (٨) فى ، السكامل (٨/ص/٣٤٦) ، أن حصار دمشق كان سنة ٥٢٩ . وفى « المنتظم » (١٠/ص/٤٣) ، أنه لما حاصر عماد الدين دمشق ، بعث أصحابها إلى الخليفة « حملا كثيرا وخطا بخمسين ألف دينار ، وقالوا : لدفع عنا زككى ونحن نعمل هذا فى كل عام . فبعث إليه : تنح عنهم واخطب للصبي (أى للملك ألب أرسلان الذى يشرف عماد الدين على تربيته) وتعال معه إلى العراق حتى أخطب له وتساعد على مسعود . فقال : السمع والطاعة ، وخطب للصبي » . (٩) بالأصل : الراشدة . (١٠) بالأصل : أمره .

أخيه الملك طغرل وملك سائر بلاد الجبل . فراسل السلطان مسعود ، المسترشد بالله يستميله ويطلب منه المساعدة على أخيه . طغرل ، فأجيب إلى ذلك ، وأمده بالأموال والرجال (٥٦ - ب) فضعفت نفس السلطان مسعود عن المسير ، لأن عمه السلطان سنجر ، كان يقوى أمر الملك طغرل ويشد منه . فلما رأى الخليفة تأخر السلطان مسعود عن المسير ، أرسل إليه يأمره بتعجيل الحركة ودفع أخيه عن البلاد ، فلم يفعل . فأعاد الأمر ثانياً وكرر ذلك ، فلم يتحرك . فأرسل إليه أخيراً جاولى القسيمي ، شحنة بغداد ، مضايقاً له على المسير إلى بلد الجبل وإزاحة أخيه عن البلاد ، وأمره إن رأى من السلطان مدافعة أن يلتقي خيمه . فلما علم السلطان حقيقة الأمر ، عظم عليه ونادى في العسكر ليتجهزوا للرحيل . فبينما هم في التجهيز ليرحلوا ، وإذا قد ورد الخبر ب وفاة السلطان طغرل . وكانت (١) وفاته في المحرم سنة تسع وعشرين وخمسمائة . فأسرع السير إلى همدان ، واجتمعت عليه العساكر . واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد . ثم وقع الخلاف في عسكره واستوحش منه جماعة من الأمراء منهم الأمير قزل آخز ، ويرنقش بازدار ، وسنقر الخمار تكيئي (٥٧ - أ) وإلى همدان ، وعبد الرحمن [بن (٢)] طغايرك وغيرهم ، وانفردوا عنه في عدد كثير وساروا نحو البشير لموافقة كانت بينهم وبين برسق بن برسق صاحب خوزستان ، وأقاموا ينتظرونه وكانوا في سبعة آلاف فارس ، فسار إليهم السلطان مسعود جريدة في ثلاثة آلاف وكبسهم وهزمهم وفرق شملهم ، وولوا مدبرين نحو بغداد ، فوصلها منهم يرنقش بازدار ، وقزل آخز ، وسنقر الخمار تكيئي ، وأخبروا المسترشد بالله عن سوء ضمير السلطان له ، ووعدوه (٣) النصر والمساعدة عن أنفسهم وعن جماعة من أكابر الأمراء ، وحسنوا له قتال السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وقطع خطبة السلطان ببغداد ، وسار عنها في شعبان من هذه السنة . وأتاه في الطريق برسق بن برسق ، فاجتمعوا في سبعة آلاف فارس ، واستخلف في بغداد جمال الدولة إقبال في ثلاثة آلاف فارس ، وراسل أصحاب الأطراف ، المسترشد بالله يبذلون (٤) له الطاعة ، فريث (٥) في (٥٧ - ب) الطريق ، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم فمالوا إليه وساروا نحوه . وكان قبل إصلاحهم في نحو ثلاثة آلاف فارس ، فصار في خمسة عشر ألفاً ، وأرسل إليه أتابك الشهيد نجدة فوصلت بعد المصاف .

وسار الخليفة إلى داي مرك ، فلما علم السلطان وصوله ، استعد لقتاله وسار إليه فعباً الخليفة عسكره ، وكان في الميمنة يرنقش بازدار (٦) ، وسنقر الخمار تكيئي ، وبرسق ابن برسق والغلمان الدارية . وكان في مسيرته جاولى وغيره . ووقف الخليفة في القلب ، والتقوا عاشر رمضان ، والتحم القتال ، فعدرت ميسرة الخليفة ومالت إلى السلطان ، وأحاطت عساكر السلطان بالخليفة وعساكره ، وكثر القتل والأسر (٧) في عسكر الخليفة ، وأفضى الأمر إلى أن

(١) بالأصل : وكان . (٢) الإضافة من ، الكامل (٣٤٧ / ص ٨ / ١) . (٣) بالأصل : ووعد .

(٤) بالأصل : يتبدلون . (٥) بالأصل : فرتب . (والتصحیح من الكامل ، ٣٤٨ / ص ٨ / ١) .

(٦) بالأصل : وبازدار . (والتصحیح من ، الكامل ، ٣٤٨ / ص ٨ / ١) . (٧) بالأصل : والاسر .

أخذ بعنان فرسه وأنزل وقبض عليه ، وقبض أيضاً الوزير شرف الدين الزينبي (١) ، وقاضى القضاة (٢) ، وكال الدين بن طلحة صاحب الخزن ، وابن الأنباري (٣) كاتب الإنشاء ، وخلق كثير ورفعوا (٥٨ - أ) إلى قلعة سرجهان بقرب زنجان ، وغنموا كل ما فى العسكر .

وأنفذ السلطان [بك أبه المحمودى (٤)] شحنة إلى بغداد ، فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد (٥) ، فقبض جميع أملاك الخليفة ، وثار الفتنه ببغداد ، ووثب العامة على الشيعة ، فقتل الشحنة منهم جماعة ، وجرى يوم العيد فيها فتنه ، وقتل جماعة ونهبت الأموال ، وبقي الخليفة المسترشد بالله فى القبض إلى سادس عشر ذى القعدة ، فاتفق أن رسول السلطان سنجر وصل إلى السلطان مسعود ، فخرج إلى لقائه واشتغل الناس بذلك ، فهجم على الخليفة أربعة (٦) عشر نفرا من الباطنية ، وبقي خارج الخيمة عشرة رجال ، فضربوه بالسكاكين فجرحوه خمسا وعشرين جراحة ، وقطعوا رأسه ، وشقوا جوفه ، وجدعوه ، وأخذوا ثيابه وتركوه عريانا . وكانت خيمته خارج العسكر ، وقتل إمامه ابن سكينه ، وإنسان هاشمى . ووقع الخبر فى العسكر ، فركبوا فى السلاح وقتلوا عشرة من الباطنية وهرب أربعة (٧) عشر (٥٨ - ب) . وبقي المسترشد بالله مطروحا يوما وليلة ، فجاء أهل مراغة فحملوه إلى البلد وكفنوه ودفنوه بمقبرة سنقر الأحمدى .

وكتب السلطان مسعود إلى شحنة بغداد — وهو الأمير بك أبه — ، يأمره بالبيعة للأمير أبى جعفر المنصور بن المسترشد بالله ، فبايعه يوم الإثنين السادس والعشرين من ذى القعدة . وحضر بيعته (٨) عشرون (٩) رجلا من أولاد الخلفاء : أولاد المقتدى بأمر الله عم والده ، وأولاد المستظهر بالله عمومته ، وأولاد المسترشد بالله إخوته . ثم بايعه الهاشميون ، ثم القضاة ، والعلماء والأمراء وغيرهم . وتلقب الراشد بالله ، واستقرت الخلافة له .

ذكر عمر المسترشد بالله وشيء من سيرته

رحمه الله تعالى

قال . كان مولده فى شعبان سنة ست وثمانين وأربعمائة . وكان عمره ثلاثا (١٠) وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام . وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر . وأمه أم ولد . وكان شهما (٥٩ - أ) شجاعا ، مقداما ، فصيحاً .

- (١) هو شرف الدين على بن طراد الزينبي (الكامل ، ج ٨/ص ٣٤٩) . وترجمته فى (شذرات الذهب ، ج ٤/ص ١١٧ — وفيات سنة ٥٣٨) . (٢) هو ، أبو القاسم على بن الحسين الزينبي (ابن عم الوزير على ابن طراد الزينبي) . (الكامل ، ج ٨/ص ٣٥٥) . وترجمته فى (شذرات الذهب ، ج ٤/ص ١٣٥ — وفيات سنة ٥٤٣) . (٣) هو سيد الدولة محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم الشيبانى . وقد توفى سنة ٥٥٨ . وترجمته فى (شذرات الذهب ، ج ٤/ص ١٨٤) . (٤) الإضافة من الكامل (ج ٨/ص ٣٤٨) . (٥) بالأصل : عميد . (والصحيح من ، الكامل ، ج ٨/ص ٣٤٨) . (٦) بالأصل : أربع . (٧) بالأصل : أربع . (٨) بالأصل : بيعته . (٩) بالأصل : عشرين . (١٠) بالأصل : ثلاثة .

وتمكن في خلافة (١) تمسكنا عظيماً ، لم يره أحد من تقدم من الخلفاء من عهد المنتصر بالله (٢) إلى خلافته ، إلا أن يكون المعتضد بالله والمكتفي بالله ، لأن المماليك (٣) كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم ، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق . فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة (٤) الديلم . فلما ملك السلجقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما (٥) في وزارة نظام الملك ، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها ، إلا أن الحكم والشحن بالعراق كان للسلطان وكذلك العهد (٦) وضمن البلاد . ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دخله . وأما المسترشد بالله فإنه استبد (٧) بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان (٨) معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة . واجتمعت عليه العساكر ، وقاد الجيوش (٥٩ - ب) وبأشر الحروب . وقد أتينا على ذكر ذلك في المستقصى في التاريخ .

ذكر مسير الراشد بالله (٩) أمير المؤمنين

إلى الموصل مع أتابك الشهيد

في سنة ثلاثين وخمسمائة ، سار الراشد بالله إلى الموصل صحبة أتابك عماد الدين زنكي ملتجئاً إليه . وكان سبب ذلك ، أن العساكر السلطانية اختلفت على السلطان مسعود ، وكذلك أصحاب الأطراف ، وتراسلوا في الاجتماع على قتاله وإقامة سلطان يرتضونه ، واستقر بينهم الاجتماع ببغداد . فسار أتابك الشهيد من الموصل إلى بغداد ، وقدمها الملك داود بن السلطان محمود في عسكر أذربيجان ، وورد إليها ير نقش بازدار في عسكر قزوین . وكان مع الملك داود الأمير عنتر بن أبي العسكر الجاواني يدبر أمره . فلما اجتمعت العساكر ببغداد حسنوا للراشد الخروج معهم عن بغداد إلى السلطان مسعود ومحاربه ، فأجابهم إلى ذلك . وكان وزيره حينئذ جلال الدين أبا الرضى محمد بن أحمد بن صدقة (٦٠ - أ) الذي صار وزيراً لأتابك الشهيد فيما بعد . واجتمعوا على هذا العزم في صفر سنة ثلاثين وخمسمائة . وظهر من الراشد بالله تنقل في الأحوال ، وتلون في الآراء (١٠) ، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه ، منهم : أستاذ الدار أبو عبد الله الحسين

- (١) بالأصل : خلافة . (٢) بالأصل : المنتصر بالله . (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص/٣١) .
وقد ولى الخليفة المنتصر بالله الخلافة من سنة ٢٤٧ - ٢٤٨ . أما المنتصر بالله . فهو الخليفة الفاطمي ، الذي ولى الخلافة في مصر ، من سنة ٤٨٧ - ٤٩٥ . (٣) المماليك : يقصد بهم الترك الذين دخلوا في خدمة الدولة العباسية في عهد الخليفة المعتصم بالله الذي ولى الخلافة سنة ٢١٨ . (الكامل ، ٥/ص/٢٣١) واستمروا يستبدون بالحكم حتى سنة ٣٣٤ ، حيث تغلب عليهم بنو بويه الذين يذكروهم « النص » بالديلم ، وأستولى معز الدولة البويهى على بغداد في هذه السنة ، في عهد الخليفة المستكفي بالله (الكامل ، ٦/ص/٣١٤) وظلوا يستبدون بالخلافة حتى سنة ٤٤٧ ، حيث قضى عليهم السلاجقة (الكامل ، ٨/ص/٧١) . (٤) بالأصل : دولته . (٥) بالأصل : الاستمارة . (٦) بالأصل : العمدة . (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص/٣١) . (٧) بالأصل : اشتد . (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص/٣١) . (٨) بالأصل : السلطان . (٩) بالأصل : بالله .

(١٠) في المنتظم (١٠/ص/٥٥) ، أن الخليفة كان يضن على عماد الدين بالأموال ، فأثقل عليه عماد الدين حتى تقل له إقطاع الوكلاء ، ثم عاد الخليفة ودفع له ثلاثين ألف دينار ، وسحب منه الإقطاع . ويذكر أيضاً أن العلاقة تحولت =

بن جهير ، وجمال الدولة إقبال المسترشدى ، وأراد القبض على وزيره جلال الدين بن صدقة ، ركب في موكبه إلى أتابك الشهيد ، فنزل في خيمته ، فأجاره وأمنه ، فركب الشهيد ووقف مقابل لتاج ، وأرسل يشفع في الذين قبض عليهم الراشد شفاعته تحتها إلزام وحكم ، فأطلقوا ، وسلم إقبال المسترشدى إلى الشهيد ، لأنه أظهر من العناية بأمره أكثر من غيره . فلما وصل إلى خيمته كرمه واحترمه وأحسن إليه ، ولم يجازه على ما كان منه قديما من عداوته . ثم إن قاضى القضاة لزينبي خاف من الخليفة أيضاً ، فالتجأ إلى الشهيد فأمنه وأحسن إليه ، وقرر مع الملك داود (٦٠ - ب) أن يستوزر جلال الدين بن صدقة ، فاستوزره في ربيع الآخر .

ثم ورد الخبر ، أن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد وصل إلى واسط في جمادى الأولى في عسكر كثير (١) ، فأنحدر أتابك الشهيد إليه ليحاربه ، فوقع الخلف بين سلجوق شاه وبين أتابكه البقش ، وراسل الشهيد البقش فاستماله وحذره من سلجوق شاه فقال إليه ، وسار هو وجماعة من الأمراء إلى عسكره وفارقوا سلجوق شاه .

وعاد الشهيد إلى بغداد ومعه البقش وجماعة الأمراء ، فازداد أتابك الشهيد عظمة وعلو محل وكانوا لا يصدرن إلا عن أمره ورأيه .

ثم عاد الشهيد وأصلح أمر الوزير جلال الدين بن صدقة مع الراشد ، وإعادته إلى وزارته . وكثر الفساد في العراق ، وتطرق المفسدون والعساكر إلى نهبه ، فنهبوا (٢) الحرم الطاهري (٣) ، وشارع دار الرقيق ، وكثيراً من بلد دجيل ، وبعض طريق (٦١ - أ) خراسان ونهبت الأموال أيضاً ببغداد علانية لا مانع لهم من ذلك .

ثم إن السلطان مسعوداً سار نحو العراق ، فبلغ الشامية في عسكر كثير ، فأراد من ببغداد من الملوك والأمراء قتاله ، ثم خافوا لما رأوا ما عندهم من الخلاف وتلون الخليفة الذى معوهم عليه . وتقدم السلطان مسعود إليهم فصرهم نيفاً وخمسين يوماً ، فتسلل (٤) عسكره وقلوا ، فعاد إلى النهروان عاز ماعلى العود إلى بلد الجبل ، فوصله بالنهر وان طر نطاي (٥) صاحب واسط ، وأخبره بما معه من السفن والمقاتلة في الماء ، فسار السلطان مسعود إليها وعبر فيها تحت بغداد ،

== بين عماد الدين والخليفة إلى خوف ، بحيث وضع الخليفة حرساً تحت قصر التاج لاستشعاراً من عماد الدين ، ثم عادت المياه إلى مجاريها بينهما بعد ذلك .

- (١) بالأصل : كثيراً . (والتصحیح من الكامل ، ٨/ص/٣٥٢) . (٢) فى ، الكامل (٨/ص/٣٥٤) ، أن عماد الدين هو الذى أرسل من نهب الحرم الطاهرى ، فأخذوا منه أموالاً كثيرة ، وذلك لما رأى أن العيارين يهبونه . (٣) بالأصل : الطاهرى . والتصحیح من (ياقوت) والحريم الطاهرى حى بأعلى مدينة السلام ببغداد فى الجانب الغربى منها ، منسوب إلى طاهر بن الحسين ، وبه كانت منازلهم ، وكل من لجأ إليه آمن . فذلك سمي الحرم ، وكان أول من جعلها حريماً ، عبد الله بن طاهر بن الحسين . (٤) بالأصل : فتسلل . (٥) بالأصل : الطرمطاي . والتصحیح من السكامل (٨/ص/٣٥٤) .

وعبرت العساكر التي كانت ببغداد إلى الجانب (١) الغربي لمنعه فسبقهم . فلما رأوا ذلك علموا قوته فعاد كل منهم إلى بلده وولايته (٢) .

وخرج الراشد بالله من دار الخلافة ، ونزل على أتابك الشهيد ملتجئاً إليه ، ومعه وزيره (٦١ - ب) ابن صدقة وجماعة من الخدم والأترار وسار معه إلى الموصل . واستقر السلطان مسعود ببغداد في ذي القعدة .

وأقام أتابك الشهيد للخليفة كل ما يريده ، وبالع في ذلك ، وأرسل إليه من الأموال والعروض والآلات ما لا حد عليه . وأقام بالموصل إلى أن سار على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر خلع الراشد بالله أمير المؤمنين وخلافة المقتفي لأمر الله

أمير المؤمنين رضي الله عنهما أجمعين

لما سار الراشد بالله عن بغداد إلى الموصل صحبة أتابك الشهيد ودخلها السلطان مسعود ، عزم على خلع الراشد والبيعة لغيره بالخلافة ، ووافقته على ذلك الأمراء وأرباب المناصب . فأحضر القضاة والشهود والفقهاء ، وأثبتوا محضراً شهدوا فيه بما أوجب خلعه ، فأقضى الفقهاء أن من هذه صفته لا يصلح للخلافة (٣) . وحكم القاضي ابن الكرخي (٤) قاضي الحريم (٦٢ - أ) بخلعه فخلعوه حينئذ .

وسأل [السلطان مسعود] عمن يصلح للخلافة ، فأشار عليه شرف الدين الزينبي ، بأبي (٥) عبد الله بن المستظهر بالله ، وأشار غيره بالعدول عنه ، وقال : إنه رجل كبير قد جرب الأمور وعرفها ، وإن من الرأي للسلطان أن يبايع قتي صغيراً (٦) ليست له تجربة ولا سن عليه ، ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون (٧) ﴾ . فوقع الاتفاق على أبي عبد الله (٨) ، فبايعه السلطان والأمراء ، والقضاة ، والفقهاء وسائر الناس ، وبايعه فيهم الشيخ أبو النجيب الفقيه الصوفي ، ووعظه موعظة بليغة . ولقب المقتفي لأمر الله . فلما استقر في الخلافة ، أرسل إليه السلطان مع وزيره

(١) بالأصل : جانب . (٢) بالأصل : وولايته . وفي ، المنتظم (ح/١٠/ص/٥٥) أن سبب إنسحاب عماد الدين من الحرب ، لكشفانه مؤامرة من السلطان مسعود مع بعض قواده (قواد عماد الدين) على قتله .
(٣) يابح أن هناك سقط في « النص » . ففي الكامل (ح/٨/ص/٣٥٤) ، أن الخليفة الراشد كان قد حلف للسلطان مسعود بخط يده « إني متى جندت أو خرجت أولقيت أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر » فأقضى القضاة والشهود والفقهاء بخروجه عن الخلافة : ثم ذكر ابن الأثير سبب آخر لخلعه ، وهو اتهامه بأخذ الأموال ، وأشياء تقدر في الإمامة ، فأفتوا « أن من هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً » . (٤) بالأصل : ابن الكرخي . (والتصحيح من الكامل ، ح/٨/ص/٣٥٤) . (٥) بالأصل : أبي . (٦) بالأصل : زغيرا . (٧) سورة الأنفال : ٣٢ . (٨) في ، الكامل (ح/٨/ص/٣٥٥) أن المبايع كان في ثامن عشر ذي الحجة سنة ٥٣٠ هـ .

كمال الدين الدرگزني (١) ، يسأله ما يحتاج إليه ليقام به ، فقال للوزير : ما أدرى قدر ما يحتاج إليه ، لكن لنا ثمانون بغلا تنقل الماء من دجلة — مع قربها منا — من بكرة إلى آخر النهار للشرب لا يستعمل منه في غيره شيء ، فانظروا حينئذ ما وراء هذا فقوموا (٦٢ - ب) لنا به ، فعاد الوزير وقال للسلطان : قد كان الرأي في العدل عن هذا الرجل ، ولكن الأمور مقدره ، وقد رأيت من هذا الرجل ما دل على وفور العقل وحسن التوصل إلى أغراضه وعلى غاية المعرفة ، وذكر قوله . فلم يبق من الحاضرين إلا من استحسن ذلك .

ولما اتصل خبر بيعته إلى الراشد بالله وأتابك الشهيد ، أرسلوا رسولين (٢) إلى السلطان ، وأرسل الشهيد رسالة إلى الديوان العزيز (٣) . فأما رسول الراشد فلم تسمع رسالته . وأما رسول (٤) الشهيد فإنه أكرم كثيراً ، وكان الرسول عنه ، كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله ابن القاسم الشهرزوري . فحكى لي والدي عنه أنه قال : لما حضرت الديوان ، قيل لي تباع أمير المؤمنين . قال ، فقلت : أمير المؤمنين عندنا بالموصل ، وقد بايعناه نحن وأتم والناس قاطبة في شرق الأرض وغربها ، وقد علمتم ما قيل في من يبيع آخر ، وطال الكلام وعدت إلى [٦٣ - أ] منزلي ، فلما كان الليل ، جاءتني امرأة عجوز سرا ، وأبلغتني عن المقتني لأمر الله رسالة ، مضمونها العتاب على ما كان من الامتناع عن البيعة ، ومعها جملة صالحة من التحف والمال . قال ، فقلت : غداً يظهر أثر خدمتي . فلما كان الغد حضرت ، وقيل لي في أمر البيعة فقلت : إن الراشد له في أعناقنا بيعة ، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه ، وأنا فقيه لا يجوز لي فعل ما ينافي الشرع ، فيشبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه ، وأبائع عنى وعن صاحبي ، فلما سمعوا هذا أحضروا المحضر المذكور ، فلما رآه وشهد بر الشهود ، خلع الراشد وباع المقتني لأمر الله ، وقال : هذا أمير المؤمنين قد صار إليه خلافة الله في أرضه ، والسلطان فقد استراح من كان يقصده ويجمع عليه الجوع ، ونحن فلا بد لنا من هذه الدعوى (٥) نصيب . فرفع قوله [إلى الخليفة (٦)] فأمر الخليفة أن يجري في إقطاع الشهيد من خاصه (٧) (٦٣ - ب) « صريفين » و « درب هارون » ويزاد في ألقابه ، وقال : هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف ، أن يكون له في العراق إقطاع . واستحلف القاضي كمال الدين السلطان للشهيد ، واستنزله عما في نفسه منه .

وأما الراشد ، فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك الشهيد يأمره بإخراجه عن بلده ، فصار إلى أذربيجان ثم إلى همدان ، واجتمع هو والملك داود ، ومنكبرس صاحب فارس ، وبوزابه (٨) صاحب خوزستان ومعهم عساكر كثيرة ، وسار السلطان إليهم فتصافوا واقتتلوا ، فقتل منكبرس

(١) أنظر ما سبق ، ص ٤٢ / حاشية ١٠ . (٢) بالأصل : رسولان . (٣) في ، الفخرى (ص ٤٩) ، أن عماد الدين أرسل كمال الدين ليقدر أمر الراشد في الخلافة ، وأن يجتمع ويبلغ في تقرير أمره ، ولكن كمال الدين تصرف من تلقاء نفسه في المبايعة للخليفة المقتني . (٤) بالأصل : الرسول . (٥) بالأصل : الدعوة . (٦) الإضافة ، من السكامل (٨ / ص ٣٥٥) . (٧) أى من أملاك الخليفة الخاصة . (٨) بالأصل : بوزان . (والتصحيح من ، السكامل ، ٨ / ص ٣٦١) .

وانهزم الراشد وقصد أصفهان ، فقتله الباطنية سابع وعشرين (١) رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، ودفن بأصفهان .

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وما فعله الشهيد

في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، خرج ملك الروم (٢) من القسطنطينية ، ومعه خلق عظيم (٦٤ - أ) لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهما من أنواع النصارى ، فقصد الشام ، تخافه الناس خوفا عظيما . وكان الشهيد مشغولا بما تقدم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل (٣) ، فقصد ملك الروم مدينة بزاغة وحصرها — وهى على مرحلة من حلب (٤) وفتحها عنوة ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية فى شعبان .

ثم سار عنها إلى شيزر — وهى حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة — فحصرها منتصف شعبان ، ومعه من فى الشام من الفرنج ، وهم الذين أشاروا عليه بقصد شيزر ، وقالوا له : إنها ليست لأتابك فلا يهتم بحفظها والذب (٥) عنها . وكانت حينئذ للأمر أبى العساكر سلطان بن على ابن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى المنقذى ، فقصدها الروم وحصروها ونصبوا عليها ثمانية عشر (٦) منجنيقا (٧) ، وأرسل سلطان بن منقذ إلى الشهيد يستنجده — وكان على [عزم] المسير إلى الشام لما بلغه خبر خروجهم إليه — فجد السير فى عساكره فنزل على حماة ، وكان يركب كل يوم فى (٦٤ - ب) عساكره ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم ، ويرسل السرايا تتخطف من يخرج من عساكرهم للهيرة والنهب ، ثم يعود آخر النهار . وكان الروم والفرنج قد نزلوا على جبل شرقى شيزر ، فأرسل إليهم الشهيد يقول لهم : إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال ، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقى ، فإن ظفرتم أخذتم الشيزر (٨) وغيرها ، وإن ظفرت بكم أرحمت المسلمين

(١) فى ، الكامل (٨/ص ٣٦٢) ، أنه قتل فى الخامس والعشرين من الشهر .

(٢) كان إمبراطور الروم فى ذلك الوقت يوحنا الثانى كالجوهانيز (١١١٨ - ١١٤٣ م = ٥١٢ - ٥٣٨ هـ) . وفى ، الكامل (٨/ص ٣٥٩) أن خروج ملك الروم إلى الشام كان بسبب حصار عماد الدين « بعين » وذلك لاستجابة لاستنجد إفرنج الشام به . وقد ذكر ابن الأثير ، فى الكامل ، خبر استيلاء عماد الدين على بعين سنة ٥٣١ هـ ، بينما ذكره ، هنا ، فى النص ، فى سنة ٥٣٤ هـ ، (وما فى الكامل يتفق مع ابن القلانسى ص/٢٥٨) . (٣) هذه العبارة توحي أن هناك أخبارا عن الموصل فى النص الأصيل الذى بخط ابن الأثير ، وساقطة فى نصنا ، مع ملاحظة أنه لا توجد أخبار فى « الكامل » تشير إلى ما كان يشغل عماد الدين بالموصل ، وإنما الذى فيه ، أن عماد الدين كان يحاصر حصن حينما وصل ملك الروم إلى الشام . (٨/ص ٣٥٩) . (٤) بالأصل : وهى على حلب مرحلة . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص ٣٢) . (٥) بالأصل : والدت . (٦) بالأصل : ثمان عشرة . (٧) المنجنيق : فى (صبح الأعشى ، ٢/ص ١٤٤) أنه « آلة من خشب ، له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فإضاب شيئا إلا أهلكه » . (٨) الشيزر وشيزر بمعنى واحد .

وشيزر كما فى (ياقوت) ، قلعة حصينة تشتمل على كورة بالشام ، قرب المعرة (معرة النعمان) بينها وبين حماة يوم ، وفى وسطها نهر الأردن ، عليه قلعة فى وسط المدينة ، أوله من جبل لبنان ، تعد فى كورة حصن .

من شركم — ولم يكن له بهم قوة (١) لكثرتهم ، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً (٢) لهم — فأشار الفرنج على ملك الروم ببلقائه وقتاله وهونوا أمره ، فقال لهم ملك الروم : أتظنون أن معه من العساكر من ترون ، وله البلاد الكثيرة ، وإنما هو يريدكم قلة من معه لتطمعوا فيه وتصحروا (٣) له ، فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم .

وكان أتابك مع هذا يرأسل إفرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم (٦٥ - أ) منهم . وكان يرأسل ملك الروم يتهده ويوهمه أن الفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه ، فرحل ملك الروم عنها في رمضان . وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً (٤) ، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها . فلما سمع الشهيد برحيلهم سار خلفهم ، فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر ، وأخذ جميع ما خلفوه ورفعاه إلى قلعة حلب ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وكان المسلمون بالشام قد اشتد خوفهم ، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر ، لا يبق لمسلم معهم مقام ، لا سيما بمدينة حماة لقربها .

ولما يسر الله تعالى هذا الفتح ، مدح الشعراء الشهيد فأكثروا ، ومن مدحه المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي فقال من قصيدة (٥) أولها :

بعزمك أيها الملك العظيم تذلل لك الصعاب وتستقيم

ويقول فيها (٦) :

(٦٥ - ب) ألم تر أن كلب الروم لما
فجاء يطبق الفلوات خيلاً
وقد نزل الزمان على رضاه
فحين رميته بك في خميس
وأبصر في المفاضة منك جيشاً
كأنك في العجاج شهاب نور

تبين (٧) أنه الملك الرحيم
كأن الجحفل الليل البهيم
ودان لخطبه الخطب الجسم
تيقن أن ذلك لا يدوم
فأحزن (٨) لا يسير ولا يقيم
توقد وهو شيطان رجيم

(١) بالأصل : بقوة . (٢) بالأصل : ترهيباً . (٣) بالأصل : وتحضروا . (والصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٣٢) . (٤) في ، السكامل (٨/ص/٣٦٠) : أربعين يوماً . (٥) بالأصل : قصده . (٦) بعدها بالأصل ، اللفظ : شعر . (وقد أسقطه المحقق لأنه زائد) . (٧) في خريدة القصر (١/ص/٤٧١) : تظن ، وهذا اللفظ أنسب من لفظ النص في أداء المعنى . (٨) بالأصل : وحرب . وفي ، السكامل (٨/ص/٣٦١) : فأحرب . واللفظ الذي أثبتته المحقق ، من خريدة القصر (١/ص/٤٧١ / حاشية / ٩١) ، وهو أقرب إلى المعنى المقصود في البيت .

أراد بقاء مهجته فولى وليس سوى الحمام له حميم
وهى طويلة .

ومن عجيب ما يحكى فى هذه الحادثة ، أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر ، قال الأمير
مرشد بن على — أخو صاحبها — وهو ينسخ مصحفاً فرفعه بيده ، وقال : اللهم بحق من أنزلته
عليه ، إن قضيت بمجىء الروم فاقبضنى إليك فتوفى بعد أيام ، ونزل الروم بعد وفاته .
ولما عاد الروم إلى بلادهم ، سار أتاك إلى حصن عرقة (١) — وهو من أعمال طرابلس — فخصره
وفتحه (٦٦ — أ) عنوة ونهب ما فيه ، وأسر من به من الفرنج وأخربه وعاد سالماً غانماً .
وفى القاضى بهاء الدين على بن القاسم الشهرزورى ، قاضى الممالك الأتابكية . وكان
أعظم الناس منزلة عنده .

ذكر ملك الشهيد قلعة شهرزور (٢)

[كانت قلعة شهرزور (٣)] وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجاق (٤) بن أرسلان
تاش التركانى ، وكان مالكا لها ، نافذ الحكم على قاصى التركان ودانهم ، يرون طاعته فرضاً
حتماً ، فتحامى الملوك قصد ولايته ولم يتعرضوا لها لخصانتها ، فعظم شأنه وازداد جمعه ، وقصده
التركان من كل فج عميق .

فلما كان سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، أبلغ أتاك الشهيد عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده (٥) ،
فخذه أصحابه من ذلك وأشاروا بتركه ، علماً منهم أن الحماة والذابين عن بلاده كثير ، وأنه إن ضيق
عليه سلم الولاية إلى السلطان مسعود ، فيصير مجاوراً لولاية الشهيد فلم يرجع عن عزمه (٦) ، وسير
(٦٦ — ب) إليه عسكرياً ، فجمع قفجاق من التركان من يقدر على حمل السلاح ، فاجتمع عنده
من السكينة (٧) ماسد بهم الفضاء ، وتلقاهم (٨) عسكرياً والشهيد وقاتلهم ، وصبر عسكرياً وتابعوا الحملات

(١) حصن عرقة : فى (ياقوت) : عرقة . بكسر أوله وسكون ثانيه . بلدة فى شرق طرابلس ، بينهما أربعة
فراسخ ، وهى آخر عمل دمشق . وهى فى سفح جبل ، بينها وبين البحر نحو ميل . وعلى جبالها قلعة لها . وينقل ياقوت
عن أبى بكر الهمداني ، أنها بلد من العواصم ، بين رمنية وطرابلس . (٢) بالأصل : « ذكر ملك الشهيد
قلعة شهرزور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال فى يد قفجاق ... » أى أنه لا يوجد فاصل بين العنوان والموضوع
مما يدل على أن هناك سقط فى النص . (٣) فى الكامل ، (٨/ص/٣٦٧) ، أن استيلاء عماد الدين على شهرزور ،
كان بعد حصاره دمشق ، الذى سيأتى خبره فيما يلى . (٤) فى الكامل (٨/ص/٣٦٨) : قفجاق .
(٥) لم يذكر ابن الأثير فى ، الكامل (٨/ص/٣٦٨) سبباً وضحاً لقصد عماد الدين ، صاحب شهرزور ، وإنما
ذكر أن قفجاق ، « عظم شأنه ، وازداد جمعه ، وأتاه التركان من كل فج عميق » . ولعل عماد الدين خاف من عظم
شأن قفجاق ، وهو مجاور له بالموصل ، فعاجله بالحرب قبل أن يستفعل أمره . (٦) بالأصل : عزمه .
(٧) بالأصل : السكينة . (٨) بالأصل : تقيهم .

على التركان حتى هزموهم واستباحوا عسكرهم ، فضوا منهزمين لا يلوى أخ على أخيه ولا والد على ولده ، وسار العسكر عقب الهزيمة ودخلوا بلادهم ، فلكوا شهرزور (١) وغيره من البلاد وأضافوها إلى مملكته ، وأصلح الشهيد أحوال أهلها ، وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركان .

ثم إن الشهيد عزم على المسير إلى الشام ، فإنه كان لا يرى المقام بل لزال طاعنا إما لرد عدو يقصده ، وإما لقصد (٢) بلاد عدو ، وإما لغزو الفرنج وسد الثغور ، فكانت مياثر (٣) السروج أثر عنده من وثير المهادر ، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد (٤) ، وأصوات السلاح ألد في سمعه من غناء القينات ، ولقاء (٥) القرن أشهى إليه من إضجاع الغانيات ، وفيما (٦) ذكرته وأذكره (٦٧ — أ) دليل على صحة ذلك (٧) .

ذكر حصار دمشق وبعليبك

وفي هذه السنة أيضاً ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد في جنوده بعد ممالك شهرزور إلى مدينة دمشق فحصرها ، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغديكين . وكان محمد محكوماً عليه ، والغالب على أمره معين الدين أنر (٨) ملوك جده طغديكين . وكان أتابك قد أمر كمال الدين أبا الفضل بن الشهرزوري بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداثها وزناطرتها ، واستمالتهم وإطعامهم في الرغائب والصلوات ، ففعل ذلك ، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد ، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود ، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا البلد إليه ، فاعلم كمال الدين ، أتابك بذلك ، فقال : لا أرى هذا رأياً ، فإن البلد ضيق الطرق والشوارع ، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه ، (٦٧ — ب) وربما كثرت المقاتلون لنا والمجاربون ، فنعجز عن مقاومتهم لأنهم يقاتلوننا

(١) شهرزور : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة بعدها زاي وو او سا كنة وراء . كورة واسعة في الجبال ، بين لمربل وهمدان . . وأهل هذه النواحي كلهم أكراد . وينقل ياقوت عن مسعر بن المهلهل الأديب ، أن شهرزور ، مدنات وقرى ، فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال لها « نيم أزرأي » ، وأهلها عصاة على السلطان ، قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان . والمدينة في صحراء ، ولأهلها بطش وشدة ، يمتنون أنفسهم ويحمون حوزتهم . وسلك سور المدينة ثمانية أذرع ، وأكثر أمراءهم منهم . . وهم موالى (الخليفة) عمر بن عبد العزيز . وجرأهم الأكراد بالغلبة على الأمراء ومخالفة الخلفاء ، وذلك أن بلدهم مشق ستين ألف بيت من أصناف الأكراد الجلالية ، والباسيان ، والحكمية ، والسولية . ولهم به مزارع كثيرة ، ومن صغارهم يكون أكثر أقواتهم . (وقد طول ياقوت في ذكر الأخبار عنها) . (٢) بالأصل : القصد . (٣) مياثر : جمع ميثرة ، وهي « هنة كهيئة المرفقة تتخذ للسرج كالضفة » : والجمع موثر ، ومياثر . (الإفصاح في فقه اللغة ، ص/٣٤٠) . (٤) بالأسل : الوساد اساد . واللفظ : اساد زائد ، ولذلك أسقطه المحقق . (٥) بالأصل : واللقاء . (٦) بالأسل : فنى . (٧) بالأصل : ما ذكرته واذكره صحيح دليل على صحة ذلك . (٨) هو معين الدين أنر بن عبد الله . توفي سنة ٥٤٤ هـ : وترجمته ، في : السكامل (ح/٩/ص/٢٦) ؛ مرآة الزمان (ح/٨/ص/٢٠٢) ؛ شذرات الذهب (ح/٤/ص/١٣٨) . وقد ورد « أنر » في كل من السكامل والشذرات : « أنر » (بالزاي) .

على الأرض والسطوحات ، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله ، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره . ومن العجب أن محمد بن بوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحاصره ، فضبط أنر الأمور وساس البلد ، فلم يتغير بالناس حال ، وأرسل إلى بعلبك وأحضر مجير الدين أبق بن محمد بن بوري ورتبه بالملك مكان أبيه — وكان صغيراً — فشئ الحال يتمكن معين الدين أنر وقوته . فلما وصل مجير الدين (١) إلى دمشق ، أقطع بعلبك (٢) لمعين الدين أنر ، فأرسل إليها وتسلمها ، فلما (٣) علم الشهيد ذلك ، سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور فلما عتوة وقهر (٤) ، وترك بها نجم الدين أيوب دزداراً ، وعزم على العود عنها إلى دمشق ، فجاءه رسل صاحبها ببذل الطاعة والخطبة له فأجابه إلى ما بذل ، وعاد عن قصد دمشق (٦٨ — أ) وقد خطب له فيها (٥) وصار أصحابها (٦) في طاعته وحكمه .

ذكر فتح حصن بارين وهزيمة الفرنج

في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة (٧) ، سار أتابك الشهيد رضى الله عنه ، إلى بلاد الفرنج وأغار عليها ، واجتمع ملوك الفرنج وقمامصتهم وكنودهم وفرسانهم ورجالتهم وساروا إليه . فلقبهم بالقرب من حصن بارين (٨) — وهو المسمى حينئذ بعين — وهو للفرنج ، فالتقوا عنده ، فجمع الشهيد عساكره وحثمهم على الجهاد ، وأشلاهم على الكفرة الأوغاد ، ورتب أطلابه (٩) ، وحرص أصحابه ، وحزب أحزابه ، وناوشهم القتال ، وأعملوا الرماح والنبال ، ولم يزل هذا دأبهم حتى حمى الوطيس ، فحينئذ حملت الفرنج حملة اختلط فيها المرءوس والرئيس ، وارتفع القتام ، واشتد الزمام ، وعظم الزحام ، وأدبرت مترعة (١٠) كؤوس الحمام ، وبطل

- (١) بالأصل : مجد الدين . (والتصحيح من النص نفسه) . (٢) بعلبك : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وفتح اللام والباء الموحدة والكاف مشددة . مدينة قديمة ، فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة وقصور على أساطين من الرخام لا نظير لها في الدنيا . بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وقيل اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل . (٣) بالأصل : فلم . (٤) في ، الكامل (٨/ص/٣٦٤) ، أن لاستيلاء عماد الدين على بعلبك كان في ذي الحجة سنة ٥٣٣ ، وكذلك في ابن القلانسي ، ويظهر أن ابن الأثير — من حيث التاريخ — تبع ابن القلانسي في « الكامل » في السنة التي استولى فيها عماد الدين على بعلبك ، وتبع الفارقي ، في « النص » . فقد أضاف ناشر « ذيل تاريخ دمشق » (ص/٢٧١/حاشية/١ — أخبار سنة ٥٣٤ ، مانصه : قال الفارقي : « إن في هذه السنة ملك أتابك زنكي قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ، ثم سلموا إليه قلعة بصرى » . وأما حصار دمشق فقد كان في شهر ربيع الأول سنة ٥٣٤ ، وقد سار إليها من بعلبك . (الكامل ، ٨/ص/٣٦٧) . (٥) بالأصل : فيه . (٦) بالأصل : أصحابه . (٧) في ، الكامل (٨/ص/٣٥٧) ، ابن القلانسي (ص/٢٥٩) ، أن استيلاء عماد الدين على « بعين » كان سنة ٥٣١ . أنظر ما سبق ص/٥٥٠/حاشية/٢) . (٨) بارين : في (ياقوت) . بعين ، بوزن خمسين . « بليد بين حصص الساحل ، هكذا تتلفظ به العامة ، وهو خطأ . وإنما هو بارين » . (٩) الأطلاب ، جمع طاب ، (بضم فسكون) بمعنى الكتبية في مصطلح ذلك العهد . (الذيل على الروضتين ، ص/١٢٨/حاشية/١) . وفي ، مرآة الزمان (٨/ص/٦٩٥) ، أني الطلب ، فرقة من الفرسان عندها خمسمائة فارس . (١٠) بالأصل : مترعة .

العامل (١) وعمل الحسام ، فن ضربة تقط ، وأخرى تقد ، وثار عجاجة كانت تحجب الشمس ، وخفت الأصوات فلا تسمع إلا الهمس ، وصبر الفريقان (٦٨ — ب) صبراً لم يسمع بمثله في سالف الدهور ، إلا ما يحكى عن ليلة الهرير (٢) ، ونصر الله المسلمين نصراً عزيزاً ، وأحلبهم من عارفته محلاً عزيزاً ، وأجلت الواقعة عن هزيمة الفرنج ، وأخذتهم سيوف المسلمين من كل ناحية وهرب ملوكهم وفرسانهم فدخلوا حصن بارين واحتموا به ، لأنه كان من أقرب حصونهم (٣) [إليهم] ، وسلخوا عدتهم وعتادهم ، وكراعهم وأزوادهم ، وكثر فيهم القتل فهم بين الجريح بحد الصفاح ، ونصول السهام والرماح ، ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ (٤) ثم سار الشهيد بعد الهزيمة إلى بارين وبه الفرنج ليحصره ، فحين نازله طاف به وقابله ، فرأى حصناً محلقاً في الهواء ، مقارناً هامة الجوزاء ، قد فاق الجبال الراسيات وجازها سمواً ، وقد تشمخ بأنفه عن أن يرام ، ونأى بجانبه عن أن يضام (٥) ، فلا ترمقه الأبصار إلا عادت حسيرة ، ولا تؤمه الطيور إلا أضحت (٦) أجنحتها مهيضة كسيرة ، ومن به من ملوك الفرنج وفرسانهم ، وكهولهم وشبانهم ، واثقين بحصانته ، معتزين بعلو (٦٩ — أ) مكانه ومكانته ، متيقنين أن الحوادث لا تنالهم وهم به معتصمون ، وأن الأيام لا تنفذ سهامها فيهم وهم به مقيمون ، وقد وعدهم الشيطان النجاة ولات حين مناص ، وحقق عندهم السلامة وحيل بينهم وبين الخلاص ، يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، وأنى يكون ذلك وقد أهدقت بهم الأسد في عرينها ، الذابة عن دين الله تعالى ودينها ، فحين رأى الشهيد هذا الحصن وارتفاعه ، ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم ، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم ، علم أنه لا ينال بالتواني ، ولا يبلغ قلبه بسير السواني ، فأعد واستعد ، وشمر في قتاله عن ساق الجد ، ونازله بعزم أعظم منه ، وقوة لا تعجز عنه ، وحصره وأحاط به كإحاطة الهالة بالقمر ، وبياض (٧) العين بسواد البصر . ورماه بسهام شهامته وضيق على من به الخناق ، وتابع الزحف إليهم ووالى القتال عليهم ، وأكثر من إرسال السهام وحجارة المجانيق (٦٩ — ب) حتى كادت تحجب الهواء (٨) ، وتحول بينهم وبين السماء ، وكانت فوق من به كسحاب لمعان نصولها برقه المتألق ، ووقع الأحجار رعدة المتبعق ، إلا أنه سحاب يطر المنايا ، وينبت الخوف والرزايا ، فحينئذ استخذى الحصن وانخذل ، واستسلم لصولة هذا الهمام البطل ، وألقى إلى الاستسلام بيده ، ولم ينفعه حصانته وكثرة عدده وعدده ، كمال قال فيه بعضهم :

بادى المعالم أطرقت شرفاته إطراق منجذب القرينة عان

(١) العامل : هو صدر الرمح دون السنان (لسان العرب) . (٢) ليلة الهرير ، هى الليلة الثالثة والأخيرة من موقعة القادسية بين سعد بن أبى وقاص والقائد الفارسى رستم بالعراق سنة ١٦ هـ . (٣) بالأصل : أقرب من حصونهم . (٤) سورة الأحزاب : ٦٣ . (٥) بالأصل : يضام . (٦) بالأصل : أضحت . (٧) بالأصل : والبياض . (٨) (٨) بالأصل : الهوى .

أغضى كستمع الهوان تغيت أنصاره وخلا عن الخلان

ولا عار على من افترسه الغضنفر ، ولا نقيصة على من أذعن (١) لصولة الموت الآخر ، فاكل غانية هند ، ولا كل ذات سوار دعد . ولما عين من به الهلاك راسلوا في طلب الأمان ليسلوا ، وسألوه في حقن دمائهم ليسلسلوا ، وهو لا يصغى إلى مقاتلتهم ، ولا يسمع رسالتهم ، وقد قوى عزمه على أخذه قهراً (٧٠ - أ) ليلك به (٢) سائر بلادهم ، ويرج المسلمين بعد هذه الواقعة من قراهم وجلادهم . فبينما هم كذلك ، بلغه أن من بالساحل من الفرنج الناجين من المعركة ، السلمين من الهلكة ، قد ساروا إلى بلاد الفرنج والروم في البحر يستجدونهم ويستنصرونهم ، وينهون إليهم ما دهمهم وبلادهم ، وما فيه ملوكهم وقامصتهم من الحصر وأكنادهم ، وأن أولئك قد جمعوا وحشدوا ، وإلى المسير نحوه فقصدا ، فحينئذ جد في الحصار وأذكى العيون ، وعمل (٣) [على] التضيق (٤) على من بالقلعة ومنع كل شيء عنهم حتى (٥) الأجناد ، وأقبلت الأمداد من سائر أنواع النصرانية إلى الساحل من كل حذب ينسلون ، وإلى تلبية من به من إخوانهم يهرعون . هذا ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك ، وقد تيقنوا أنهم عن قريب ما بين مأسور وهالك ، فأعادوا مراسلته (٦) في طلب الأمان ، فأجابهم إليه بعد أن علم وصول الأمداد إلى الساحل واجتماعهم على من به من أهله (٧٠ - ب) فلما أجابهم إلى الأمان وتسليم الحصن منهم سلموه وهم لا يصدقون بالنجاة ، وساروا عن الحصن يوماً ، فلقيتهم أمداد النصرانية ، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم ووبخوهم وعنفوهم ، وقالوا : عجرتم عن حفظه يوماً أو يومين . فخلفوا لهم أننا لم نعلم بوصولكم ، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن . فلما عميت الأخبار عناظتنا أنكم قد أهملتم أمرنا ، وقعدتم عن نصرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن وافندينا به ماوراءه . وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، فأزال الله بالشهيد - رضى الله عنه - هذا الضرر العظيم . وفي مدة مقامه على حصار بارين ، سير جنسدا إلى المعرة (٧) وكفر طاب وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها ، وهى بلاد كثيرة وقرايا عظيمة .

(١) بالأصل : أذعر . (٢) بالأصل : بهم . (٣) بالأصل : وعى . (٤) بالأصل :
التضيق . (٥) بالأصل : حى . (٦) بالأصل : لمراسلته .

(٧) المعرة ، هى معرة النعمان . وفى (ياقوت) : هى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص ، بين حلب وحماة . وفى ، السكامل (ح/٨/ص/٣٥٨) : « ومن أحسن الأعمال ما عمله زنكى مع أهل المعرة ، فإن الفرنج كانوا قد أخذوا أملاكهم ، فلما فتحها زنكى الآن ، حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم ، فطلب منهم كتباً ، فقالوا : إن الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للأملاك فيها . فقال أطلبوا دفاتر حلب ، وكل من عليه خراج على ملك يسلم لايه . ففعلوا ذلك ؛ وأعاد على الناس أملاكهم . وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها . »

(٧١ - أ) ذكر حصار الروم والإفرنج مدينة حلب

لما وصل الروم والفرنج إلى الشام لإزالة الشهيد عن حصار بارين ومن بها من ملوك الفرنج ورأوا الأمر قد فات ، لم يروا أن تخلو (١) سفرتهم من أثر يؤثرونه في حماية دينهم ويرجعوا بخفي حنين ، فاتفقوا على قصد بعض بلاد المسلمين ومحاصرته ، لعلمهم يظفرون بما يذهب عنهم غم مصيبتهم ويجبر كسرهم ، فساروا ونازلوا مدينة حلب وحصروها ، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة ، وهم مع ذلك موتورون ، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم ، فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة ، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدو فيها والإغارة عليها . وأرسل (٢) القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود ينهى إليه حال البلاد وكثرة العدو ، ويطلب منه النجدة وإرسال العسكر . فحكي لى والدى عن كمال الدين ، قال : قلت للشهيد (٧١ - ب) لما أرسلنى : أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ، ويجعل السلطان هذا حجة وينفذ العساكر ، فإذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد : إن هذا العدو قد طمع في البلاد ، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار . قال : فلما وصلت إلى بغداد وأديت الرسالة ، وعدنى السلطان بإنفاذ العساكر ثم أهمل ذلك ولم يتحرك فيه بشيء ، وكتب الشهيد متصلة إلى يحتنى على المبادرة بإنفاذ العساكر ، وأنا أخاطب ولا أزداد على الوعد ، فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم ، أحضرت فلانا - وهو فقيه وكان ينوب عنه في القضاء ، وكان حاضرا عند حكاية كمال الدين هذا لوالدى - قال : فقلت له : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم ، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بمجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد ، والإسلاماء ، وادين (٧٢ - أ) محمداه ، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ، ثم وضعت إنسانا آخر يفعل (٣) مثل ذلك في جامع السلطان . فلما كانت الجمعة ، وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح ، وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء ، فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي ، وبطلت الجمعة . وسار الناس كلهم إلى دار السلطان ، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم ، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر (٤) قاطبة عند دار السلطان ليكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الأمر عن الضبط ، وخاف السلطان في داره ، وقال : ما الخبر . فقيل [له] : إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة . فقال : أحضروا ابن الشهرزوري . قال : فحضرت

(١) بالأصل : تخلوا . (٢) في الكامل ، (٨/ص/٣٥٩ - حوادث سنة ٥٣٢ هـ) ، أن عماد الدين

أرسل القاضي إلى السلطان يطلب النجدة ، حين كان الفرنج على بزاعة .

(٣) بالأصل : فعل . (وال تصحيح من الروضتين ، ١/ص/٣٥ ، الكامل ٨/ص/٣٦٠) .

(٤) العسكر : حي في الجانب الشرقي من بغداد ، جملة الخليفة المهدي (١٥٧ - ١٦٩ هـ) معسكراً للجنود فسمى

« عسكر المهدي » ، ثم عمرت بالناس والبنان . (الاصطخرى ، ص/٥٨)

عنده وأنا خائف منه ، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق . فلما دخلت [عليه] ، قال : يا قاضي ما هذه الفتنة ، فقلت : إن الناس قد فعلوا هذا (٧٢ — ب) خوفاً من القتل والشرك ، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو ، إنما بينكم نحو أسبوع ، وإن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، وعظمت الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم . فقال : أردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والامداد تلحقك . قال : فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم وعرفتهم الحال ، وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا . وانتخبت من عسكره عشرين ألف فارس . وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر ، وأنه لم يبق غير المسير ، وأجدد إستدثانه في ذلك . فأمر بتسييرهم والحث على ذلك ، فعبرت العساكر إلى الجانب الغربي ، فبينما نحن نتجهز للحركة ، وإذا قد وصل نجاب من الشهيد ، يخبر أن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً (١) ، ويأمرني بترك إستصحاب العساكر ومخاطبة السلطان (٧٣ — أ) في إقامتهم . فلما خوطب السلطان في ذلك ، أصر على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها منهم وإزاحتهم عنها . وكان قصده بذلك أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها . قال : فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت (٢) إلى الشهيد . فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس . رحم الله الشهيد ، فلقد كان ذاهمة عالية ، ورغبة في الرجال ذوى الرأي والعقل ، يرغبهم (٣) ويخطبهم من البلاد ، ويوفر لهم العطاء . حكى لي والدي ، قال : قيل للشهيد ، إن هذا كمال الدين يحصل له كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية (٤) ، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار ، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ، إن كمال الدين يقل له هذا القدر ، وغيره يكثر له خمسمائة دينار ، فإن شغلا (٧٣ — ب) واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار . وكان كما قال رضى الله عنه .

(١) ذكر ابن الأثير خبر حلب في الكامل (ح/٨/ص/٣٥٩) ، فقال ، انه عندما حاصر الروم بزاعة كان عماد الدين يحاصر حصص ، ففضى جماعة من أعيان حلب إليه فاستفتاوه به واستنصروه ، فسير معهم كثيراً من العساكر فدخلوا إلى حلب ليمتعوها من الروم لأن حصروها . ولما ملك الروم بزاعة ، رحلوا إلى حلب في خيلهم ورجلهم ، فخرج إليهم أحداث حلب فقاتلهم قتالاً شديداً ، فقتل من الروم وجرح خلق كثير ، وقتل بطريق جليل القدر عندهم ، وأقاموا عليها ثلاثة أيام فلم يروا فيها طمعاً ، فعادوا عنها خاسرين إلى قلعة الأنارب . (٢) بالأصل : سيرت . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٣٦) . (٣) بالأصل : ويرغبهم . (٤) بالأصل : وأمر به . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٣٦) .

ذكر ملك الشعباني وبناء العمادية ببلد الهكارية

في سنة سبع وثلاثين (١) [وخمسائة] سار أتابك الشهيد إلى بلد الهكارية ، وكان بيد الأكراد وقد أکثروا في البلاد الفساد ، إلا أن نصير الدين جقر [نائب السلطان الشهيد بالموصل (٢)] كان قد ملك كثيراً من بلادهم واستولى عليها . فلما بلغها أتابك الشهيد حصر قلعة الشعباني (٣) - وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها - فملكها وأخربها . وأمر ببناء قلعة العمادية (٤) عوضاً عنها . وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً ، يقل في حصون الجبال ما يقاربه ، فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره . فلما ملك الشهيد البلاد التي لهم ، قال : إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا لا أعجز عنه ، فأمر ببنائه . وكان رحمه الله تعالى ذا عزم ونفاذ أمر ، فبناه وسماه العمادية ، نسبة (٧٤ - أ) إلى لقبه عماد الدين .

وفيه أيضاً خطب لأتابك الشهيد بآمد (٥) ، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والإتواء إلى خدمته والخطبة له ، فإن أجاب وإلا قصدها وحصرها (٦) ، فأجابوه وخطبوا له وصاروا في طاعته . وفيها أيضاً ملك الشهيد مدينة حديثة (٧) وعانة (٨) .

(١) في ، الكامل (٨/ص/٢٤٣) ، أن استيلاء عماد الدين على قلاع الأكراد الهكارية ، ومنها الشعباني ، كان سنة ٥٢٨ هـ . ويصرح ابن الأثير ، بأنه يروى هذا الخبر عن بعض العلماء الأكراد ، وأنه لا يعلم بالضبط تاريخ فتح هذه القلاع . (٢) الإضافة من الروضتين (١/ص/٣٦) .

(٣) لم يذكر (ياقوت) هذه القلعة في معجمه . (٤) هناك اختلاف عند ابن الأثير في اسم القلعة التي أقام عماد الدين على أنقاضها قلعة العمادية . فهو هنا يذكر ، أن القلعة هي قلعة الشعباني ، بينما يذكر في الكامل (٨/ص/٣٤٣ - أخبار سنة ٥٣٨) أنها قلعة الجلاب ، وبعد سطور ذكر أنها قلعة آشب ، وذكر ابن الأثير خبر استيلاء عماد الدين عليها وأنه أخربها وأقام على أنقاضها قلعة العمادية ، وعلى هذا الخبر اعتمد (ياقوت) في وصفه لقلعة العمادية ، فقال عنها : أنها قلعة حصينة مكيئة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها . عمرها عماد الدين زنكي بن آقسنقر سنة ٥٣٧ هـ ، وكان قبلها حصناً للأكراد ، فأكبره خربوه ، فأعاده زنكي وسماه باسمه نسبة إليه . وكان اسم الحصن ، آشب . ويصفها ، البديلي في كتابه « شرفنامه » (١/ص/١٠٢) : « وقلعة العمادية الحالية من الأبنية الجديدة التي بناها في عهد السلاجقة عماد الدين زنكي بن آقسنقر وإلى الموصل وسنجار . وتقع المدينة وقلعتها على صخرة عظيمة مستديرة ، ترتفع بعض الأمكنة منها عن الأرض مائة ذراع ، وبعضها حوالي الخمسين أو الستين ، والبعض الآخر عشرين ذراعاً . وفي القلعة جبان عميقان يمدانها بالماء ، ومنهما يأخذ الحمام والمدرسة وسائر الممارات ، ولكن الناس يجلبون مياه الشرب من خارج البلد على ظهور الدواب ... » . (٥) في ، الكامل (٨/ص/٥) ، أن ذلك كان سنة ٥٣٦ هـ . (٦) بالأصل : واحصرها . (٧) حديثة : ذكر (ياقوت) ، موضعين باسم حديثة . أحدهما : « حديثة الموصل » ، وهي بلدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى . والآخر : « حديثة الفرات » ، وتعرف بحديثة النورة ، وهي على فراسخ من الأنبار ، وبها قلعة حصينة في وسط الفرات والماء يحيط بها . (٨) ونحن نرجح أن الموضع المقصود هنا ، « حديثة الفرات » ، لجواريتها لـ « عانة » كما يتبين من الحاشية التالية . (الحقق) . (٨) عانة : في (ياقوت) : بلد مشهور بين الرقة وهيت (على الفرات) ، يعد في أعمال الجزيرة .

ذكر الوحشة بين السلطان مسعود^(١) وأتابك

الشهيد رضى الله عنهما

قال . كان السلطان مسعود لما أفضت السلطنة إليه ، لا يزال الأمراء والأكابر وأصحاب الأطراف يخرجون عن طاعته ، تارة مجتمعين وتارة متفرقين . وقد تقدم ذكر بعض ذلك . وكان كلما انفتق (٢) عليه فتق نسبه إلى الشهيد ، وظن أنه هو أشار به وسعى فيه ، لعلبه أن جماعة الأمراء يعرفون محل الشهيد من العقل والتدبير والسياسة وكثرة البلاد والأموال والعساكر . (٧٤ - ب) وكان ظن السلطان فيه صادقا ، فإنه كان يفعله لئلا يخلو وجه السلطان من شاغل ليتمكن هو من فتح البلاد والتمكن في الملك . فلما كان هذه السنة - وهي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة - زالت الشواغل عن السلطان وتفرغ باله ، فجمع العساكر فأكثر (٣) ، وأظهر العزم على قصد الموصل وبلاد الشهيد ، فترددت [الرسل (٤)] بينهما حتى استقرت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها إلى السلطان . وطلب السلطان أن يحضر الشهيد في خدمته ، فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج وتمكن العدو وقربه من البلاد التي بيده ، فعذره السلطان وشرط عليه فتح الرها . وكان [من] أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل ، أنه قيل له إن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين ، فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاووا ، ومودود ، (٧٥ - أ) وجيوش بك ، والبرسقي وغيرهم من الأمراء ، وكان السلاطين (٥) يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدر على حفظها ، ولا يزال الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمهده أحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ، ومع هذا فقد فتح من [بلاد] العدو عدة حصون وولايات (٦) ، وهزمهم غير مرة واستضعفهم ، وعز الإسلام به . ومن الأسباب المانعة له أيضا ، أن الشهيد رحمه الله ، كان لا يزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده ، وكان السلطان يحبه ويقربه ويعتمد عليه ويثق به ، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل ، وأرسل إلى نائبه بالموصل - وهو نصير الدين جقر - يأمره بمنعه من دخول الموصل ، ومن المسير إليه أيضاً ، فهرب سيف الدين وجاء إلى الموصل ، فلم يمكنه نصير الدين من دخولها ، وأراد المسير إلى والده فمنعه (٧٥ - ب) أيضاً ، وقال له : ترسل إلى (٧) والدك تستأذنه في الذي تفعله ، فأرسل إليه ، فأعاد جوابه : إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك ، وألزمه بالعود ، وأعادته ومعه رسول إلى السلطان يقول له : إنني بلغني أن ولدي فارق الخدمة بغير إذن فلم أجمع به وردته إلى بابك . فحل هذا عند السلطان محلا كبيرا

(١) بالأصل : بين السلطان وبين مسعود . (٢) بالأصل : اتفق . (٣) بالأصل : فأكثره .

(٤) الإضافة من ، الروضتين (ج/١/ص/٣٦) . (٥) بالأصل : وكان السلطان السلاطين .

(٦) بالأصل : ولايات . (٧) بالأصل : لى .

أجاب إلى ما أراد الشهيد . ولما استقر المال حمل منه عشرين ألف دينار ، أكثرها جناس عروض . ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف وخرجوا (١) عليه ، فاضطر إلى مداراة شهيد وأطلق له الباقي استمالة (٢) له واستصلاحاً لقلبه .

ذكر ملكة عدة بلاد وحصون من ديار بكر

في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، سار الشهيد إلى ديار بكر قاصداً فتحها ومحاصراً لها ، ففتح عدة بلاد ، منها : مدينة طنزة (٣) ، وأسعد (٤) ، وملك مدينة المعدن (٥) (٧٦ — أ) الذي عمل منه النحاس من أرمينية (٦) ، ومدينة حيزان (٧) . وملك أيضاً حصن الزوق (٨) ، وحصن طليس (٩) ، وحصن باتاسا (١٠) ، وحصن ذى القرنين .

وأخذ من أعمال ماردين عدة مواضع ، ورتب أمور الجميع ، وترك فيها من يحفظها إذا سار عنها . وقصد مدينة آمد ، ومدينة حاني (١١) فحصرهما . فملك مدينة حاني ، فدوخ البلاد ، وأقام على آمد محاصراً لها ، وقصده إستطلاع حال الرها على ما ذكره إن شاء الله تعالى .

في ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

في جمادى الآخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضى الله عنه مدينة الرها من فرنج ، وكانت لجوسلين (١٢) عاتيتهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد ذعن له بالنهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة . وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الإيمان ، وهذه الرها هي من أشرف بلدن عند النصارى (٧٦ - ب) وأعظمها محلاً . وهي إحدى السكراسى عندهم ، فأشرفها البيت

(١) بالأصل : خرجوا .

(٢) بالأصل : استماله واستماله واستصلاحاً .

(٣) طنزة : في (ياقوت) : بفتح أوله وسكون ثانيه وزاى . بلد بحزيرة ابن عمر من ديار بكر .

(٤) أسعد : لم يذكرها (ياقوت) ، وفي تاريخ الفارق (ص/٥٩/حاشية/٥ — نقلاً عن تقويم البلدان) : بكسر

للمزة والسين وكسر العين وسكون الراء المهملة ثم دال . ويقال لها « سعرت » ، على جبل بالقرب من شط دجلة ،

هي عن ميفارقين على مسيره يوم ونصف . (٥) المعدن : في (ياقوت) : بكسر الدال وآخره نون . قرية من

رى زوزن ، من نواحي نيسابور . وفي السلوك (ج/١/ص/٦٩٠/حاشية/٤) بلدة بأرمينية قرب منبع نهر دجلة ،

سميت بهذا الاسم لوجود مناجم لمعدنى النحاس والحديد بقرىها . (٦) العبارة « الذى يعمل منه النحاس من

أرمينية » مضطربة المعنى ، ولعلها كانت بخط ابن الأثير : « وملك مدينة المعدن التى يستخرج منها النحاس ، ويعمل فى

أرمينية » . (٧) حيزان : في (ياقوت) : بكسر أوله وسكون ثانيه وزاى وألف ونون . بلد فيه شجر وبساتين

كثيرة ومياه غزيرة . وهي قرب أسعرت من ديار بكر . (٨ و ٩ و ١٠) : وردت أسماء الحصون فى ، الكامل ،

معرفة عما هي عليه هنا فقد وردت : الدوق ، مطليس ، بانسبة . ولم يستطع المحقق ، تحقيق هذه الأسماء لعدم ورودها

فى ياقوت ، كذلك وردت بحرفة فى ابن واصل (ح/١/ص/٩٢) . (١١) حاني : فى (ياقوت) : بالنون ،

وزن قاضى وغازى ، اسم مدينة معروفة بديار بكر ، فيها معدن الحديد ومنها يجلب إلى سائر البلاد .

(١٢) هو جوسلين الثانى ابن جوسلين الأول .

المقدس، ثم أنطاكية، [ثم رومية (١)] والقسطنطينية، والرها. وكان هذا فتح الفتوح حقاً، وأشبهها ببدر صدقا، من شهبه فقد تمسك من الجهاد بأوثق (٢) سبب، ولو عاصره الطائي (٣) لعلم أنه أولى بقوله، السيف أصدق أنباء من الكتب، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم، وشرهم إليها جسيم. إذ كانت من الديار الجزرية عينها، ومن البلاد الإسلامية حصنها، وانضاف إليها عدة من البلاد فاستعت مملكتهم، واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات — على طريق شبختان — عدة حصون، كسروج، والبيرة (٤)، وجملين، والموزر (٥)، والقراي (٦)، وسن ابن عطير (٧) وغير ذلك (٨). وكانت عاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين، ونصيبين، ورأس عين، والركة. وأما حران فكانت [معهم (٩)] في الخزي، كل يوم قد صبحوها بالغارة (١٠)، فلما رأى (٧٧ - أ) الشهيد الحال هكذا، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الإسلام خلال الديار، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضاً، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضاً، ما دام بها جوسلين وفرسانه، وجنوده وأعوانه، وأنه متى قصدها محاصراً لها إجمعت الفرنج لحفظها منه، فعدل إلى أعمال الحيل والخداع، إذ كان أنجع في هذه الحادثة من المصاع (١١)، والرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني. فعدل عن قصدها إلى ما جاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين، كحاني، وجبل جور (١٢)، وآمد على ما تقدم ذكره، فكان يقاتل من بها قتالا فيه إبقاء وهو يسر حسوا (١٣) في ارتغاء (١٤)، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من (١٥) أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر، ظن (٧٧ - ب) أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله

- (١) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/٣٦). (٢) بالأصل: أوثق، (٣) بالأصل: الطاي . وهو الشاعر أبو تمام الطائي، الذي مدح الخليفة العباسي المعتصم بالله حين فتح عمورية من الروم سنة ٢٢٣ .
- (٤) البيرة: في (ياقوت): بالباء والياء. بلد قرب سميساط. بين حلب والنفور الرومية. وهي قلعة حصينة، ولها رستاق واسع. وفي، الكامل (ح/٩/ص/١٥٦)، أنها قلعة متينة على الفرات من الجانب الجزرى .
- (٥) الموزر لم ترد في (ياقوت). وفي ابن واصل، (ح/١/ص/٩٢/حاشية/١٠)، أنها كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم. (٦) القراي: لم يرد لها تعريف في (ياقوت). ووردت في ابن واصل (ح/٣/ص/١٤٠)، أنها ضيعة من أعمال شبختان، وفي (ص/١٩٥ — نفس المصدر) أنها ضيعة من عمل ماردين.
- (٧) سن ابن عطير: لم يرد لها تعريف في (ياقوت). وفي، الكامل (ح/٨/ص/٢٨٥) قلعة ابن عطير، وتقع عند الرها. (٨) في الكامل (ح/٩/ص/٨). أن هذه الحصون وغيرها مما يقع غرب الفرات كانت لجوسلين صاحب الرها. (٩) الإضافة من، الروضتين (ح/١/ص/٢٧). (١٠) بالأصل: بالغاره.
- (١١) بالأصل: المصاع. (١٢) جبل جور: في (ياقوت): بالجيم المضمومة وسكون الواو وراء. اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية، وأهلها نصارى أرمن، وفيها قلاع وقرى. (١٣) أي على مهل. (١٤) في غير صحيح. (١٥) بالأصل: عن.

فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه ، وخلو (١) البلد عن حافظه وحاميه ،
 فينتد أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير ، والجد في المسير ، ويهدد لمن عن صحبته تأخر ،
 وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر ، وأقبل مسرعا كالسهم الصادر عن وتره ، والسيل الصائر
 إلى مستقره ، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضا ، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضا ،
 وأقبلوا زمرا مجدين كقطع السحاب تحتها الجناث (٢) ، وقد استعانوا على السرعة بركوب
 النجاث (٣) . فلما علم من بها من العدو إقباله ، سرى الرعب في أحشائهم ، واختلط الخوف بدمائهم
 وسقط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من
 الخاسرين (٤) ﴾ . فأبى الله إلا أن ينتقم (٧٨ - أ) منهم بسيف الشهيد ، ويجمع في جهنم بين الغائب
 منهم والشهيد ، جزاء بغيمهم الشنيع ، وقتلهم الفظيع ، فصبه الله عليهم عذابا ، وساقه إليهم عقابا
 فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق عليهم نفوسهم ، ونكست لشدة هيئته رؤوسهم ،
 ووافى البلد في حده وحديده ، وعده وعديده وبمواكبه (٥) المنصورة ، وجموعه المحشورة ، وبنوده
 المنصورة ، كما قال فيه [المؤرخ (٦)] :

بجيش جاش بالفرسان حتى	ظننا البر (٧) بجرا من سلاح
والسنة من العذبات حمر	تخاطبنا بأفواه الرياح
وأرع جيشه ليل بهيم	وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن	قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان (٨) ثباته للقلب قلبا	وهيئته جناحا للجناح

وزحف بهم نحو البلد يقدمه ، والشجاعة تقدمه ، فكادت الأرض تزلزل . والنهار بسواد
 الليل يسربل (٧٨ - ب) ، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار ، يتهافتون إلى القتال
 تهافت الفراش في النار ، أخذوا بقول [من] يقول (٩) :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

فلما رأى الشهيد البلد ، رأى بلدا جمع بين الحصانة والحسن ، فراسل (١٠) أهله يبذل لهم الأمان
 والأمن ، ليسلموه سليما من إخراج أسواره (١١) ، وإخلاء دياره ، ضنا منه على مثله أن يصبح

(١) بالأصل : وخو . (٢) الجناث : الريح الجنوبية (مختار الصحاح) . (٣) بالأصل : الجناث .
 والجناث جمع نجيب ، وهي الإبل . (٤) سورة الأعراف : ١٤٩ . (٥) بالأصل : وبما كره .
 (٦) الإضافة من المحقق ، ونفى به ابن الأثير نفسه . وذلك استنادا على ما جاء في الروضتين (٣٧/ص/١)
 ما نصه : « ... فأقبل الشهيد بعساكره إلى الرها ، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد » . ثم ذكر أبو شامة نفس
 الأبيات الخمسة . وعبرة أبو شامة تشير إلى أن الشعر لابن الأثير . أما اللفظ الذي أضفناه ، من المؤكد أنه سقط
 سهوا من الناسخ . (٧) بالأصل : البحر . (٨) بالتصحيح من الروضتين ، ج/١/ص/٣٧) .
 (٩) بالأصل : فكان . (١٠) والتصحيح من الروضتين ، ج/١/ص/٣٧) . (١١) بالأصل : بقوله يقول .
 وقد أسقط المحقق اللفظ : يقول ، لأنه زائد . (١٠) بالأصل : فراسله . (١١) بالأصل : سواره .

خاويًا على عرشه ، وأن يلتحق سماءه بفرشه ، فأبوا قبول الأمان ، وامتنعوا من الإذعان ، فاستنار الله تعالى في قتاله ، وقدم الشجعان لنزاله ، ونصب المجانيق ، وقدم النقاين ، وألح على من به القتال ، خوفاً أن يجتمع الفرنج فيزحونه عنه ويستنقذونه (١) منه . وبلغ الخبر إلى الفرنج فقاموا وقعدوا ، وأبرقوا وأرعدوا ، وجمعوا فارسهم ورجالهم ، وشابهم وكهلهم ، وحرصوا على السرعة خوف الفوات (٧٩ - أ) وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق الفرات ، لعله يجد فرصة ليدخل إليها ، أو يرسل نجدة يحافظ عليها ، فحبل بينه وبين ذلك ، وأنى يكون ما يريد وخصمه الشهيد أتاك . ولم يزل [الشهيد] يزحف إليها مرة بعد أخرى ، حتى وصل النقاين إلى سورها فنقبوه ، فألقوا النار فيه فأحرقوه ، وملك البلد عنوة وقهرا ، وأوسع كل من فيه نكالا (٢) وشرأ ، فلما ملكها استباحها ، وأذل لقاحها ، ونكس صلبانها ، وأباد قسوسها ورهبانها ، وقتل شجعانها وفرسانها ، فهم معه بين قتيل وأسير ، وجريح وكسير ، وملاً الناس أيديهم من النهب والسبي ، من كل مال نفيس و غلام رائق ، وبكر كالظبي عاتق ، وأصابهم من النكال ما هو لهم عتيد ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد (٣) ﴾ . ثم إنه دخل البلد فراقه منظره ، وشاقه مخبره ، فأسف لمثله من الخراب ، وأن (٤) يستولى عليه في ملكه البوار والتباب ، ورأى إن أخربه وأخلاه من أهله ، غير (٧٩ - ب) مستحسن من مثله ، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال ، وسبى ورجال ، وجوار وأطفال ، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً ، وآهلاً وآمناً بعد أن كان للذئاب والجامع (٥) مسكناً ، ورتب فيه من العساكر من يحفظه ، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من (٦) هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها ، وأخلى الديار الجزرية من (٧) معرة الفرنج وشرهم ، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وعلى مهاد الأمن وادعين ، وأجفل الكفر وحزبه بين يدي الإيمان وأهله ، وهم على آثارهم يكسعون أديارهم ، ويوحشون منهم ديارهم ، والكفرة يجدون في الهرب ، خوف العطب ، وكلمهم من الرعب لاه ذاهل ، ومنادى التوحيد ينادى : جاء الحق وزهق الباطل . وألقى الإسلام بهذه البلاد جرانه ، وبث فيها (٨٠ - أ) أنصاره وأعوانه ، وصدق وعد الله في قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض (٨) ﴾ . فهي لهم إلى يوم العرض . وكان فتحا عظيماً لم ينتفع المسلمون بمثله ، وطار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وسارت به الرفاق ، وامتلاأت به المحافل في الآفاق ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء ، واستبشر به الأبرار والأصفياء . حكى لى جماعة أعرف

(١) بالأصل : يستقذونه . (٢) بالأصل : مكالا . (٣) سورة هود : ١٠٢ . (٤) اللفظ مكرر بالأصل . (٥) بالأصل : الجامع . (والتصحيح من «دى ساين» (ص/١٢٣) . والجامع ، الضبع لأنها تجمع إذا مشت . (٦) محيط المحيط . (٧) بالأصل : فن . (٨) سورة النور : ٥٥ .

صلاحهم ، أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي — وكان من العلماء العاملين ، والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها ، وله الكرامات الظاهرة — ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يوم ذلك ، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور ، عنده من الإرتياح مالم يروه أبدا ، فلما قعد معهم قال لهم : حدثني بعض إخواننا ، أن أتابك زنكي فتح مدينة الرها ، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا ، ثم قال : ما يضرك يازنكي ما (٨٠-ب) فعلت بعد اليوم ، وبقي يردد هذا القول مرارا ، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح . ثم إن نفرا من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ ، وقالوا له : منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح ، وهو ينكر حضوره ، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا . وحكى لي أيضا بعض العلماء بالأخبار والأنساب — وهو أعلم من رأيت بها — قال : كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها ، وكان بها بعض العلماء الصالحين من المغاربة من المسلمين ذكر اسمه وأنسيته ، وكان الملك يحضره ويكرمه ، ويرجع إلى قوله ، ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها ، قد سير هذا ملك الفرنج جيشا في البحر إلى إفريقية ، فنهبوا وأغاروا وأسروا ، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس ، وعنده هذا العالم المغربي ، وقد نعس وهو شبه النائم ، فأيقظه الملك (٨١-أ) وقال له : يا فقيه ، قد فعل أصحابنا بالمسلمين (١) كيت كيت ، أين كان محمد عن نصرهم . فقال : كان قد حضر فتح الرها . فتضاحك من عنده من الفرنج . فقال لهم الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما قال عن غير علم ، واشتد هذا على الملك . فلم يمض غير قليل ، حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين ، فأنساهم شدة هذا الوهن ، رجاء ذلك الخبر ، لعلوا منزلة الرها عند النصرانية . وحكى لي أيضا غير واحد [من (٢)] أثق [به] : أن رجلا من الصالحين ، قال : رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال ، فقلت له : ما فعل الله بك . فقال : غفر لي . فقلت : بماذا . قال : بفتح الرها .

ذكر محاصرة الشهيد قلعة ألبيرة

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها وإصلاح حالها ، والإستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات ، سار إلى قلعة ألبيرة — وهي (٣) حصن حصين مطل على الفرات ، وهو لجوسلين أيضا — (٨١-ب) فحصره وضيق على من به ، وغاداهم القتال وراوهم ، وقطع عنهم الميرة حتى أشرفوا على تسليمها ، فأتاه خبر قتل نصير الدين جقر نائبه بالموصل والبلاد الشرقية ، فرحل عنها خوفا أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج (٤) إلى المسير إليها ، فلما رحل عنها ، سير إليها حسام الدين

(١) بالأصل : المسلمين . (٢) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/٣٧) . (٣) بالأصل : وهو . (٤) بالأصل : نجاح . (والتصحيح من ، الروضتين (١/ص/٤٠) .

ثم تاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكرياً ، فسلمها الفرنج إليهم (١) ، خوفاً من الشهيد أن يغود إليهم فيأخذها (٢) .

ذكر قتل نصير الدين جقر على يد الملك ألب أرسلان

في ذي القعدة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، قتل نصير الدين جقر (٣) بن يعقوب ، نائب الشهيد بالموصل وسائر البلاد الشرقية . وكان سبب قتله ، أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي (٤) ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد وهو أتابكه ومريه ، وكان يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف (٨٢-أ) أن البلاد التي بيده ، إنما هي للملك ألب أرسلان ، وأنه نائبه فيها ، فكان إذا أرسل رسولا ، أو أجاب (٥) عن رسالة ، فإنما يقول ، قال (٦) الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر بإسمه ويخرج الأموال ويطلب [له] (٧) السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك . وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ، وبها نصير الدين — وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه [ويقف (٧)] عنده ساعة ثم يعود — فحسن المفسدون للملك قتله ، وقالوا له : إنك إن قتلت ملك الموصل وغيرها ، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ، ولا يجتمع معه فارسان عليك . فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً ، فلما دخل نصير الدين إليه على

(١) في ، الكامل (١٠/ص/١٠) ، أن أهل ألبيرة هم الذين استدعوا حسام الدين ليسلموا إليه البلد خوفاً من أن يعود إليهم عماد الدين . ولعل أهل ألبيرة أرادوا أن يوقعوا بين عماد الدين وحسام الدين ليتخلصوا منهما جميعاً .
(٢) بالأصل : فيأخذهم . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٤١) . (٣) بالأصل : جعفر .
(والتصحيح من النص نفسه) . ولم يعثر المحقق على ترجمة لنصير الدين ، وإنما يفهم مما جاء في «تاريخ دولة آل سلجوق» أنه كان سىء السيرة ، وأن عماد الدين لم يكن راضياً عنه ، فقد ذكر العماد الكاتب ، أن عماد الدين استصفي أمواله بعد قتله « واستخرج ذخائره ، واستنظف أوله وآخره ، وصادر أهله وأقاربه ، وأحل بنوابه نوابه ، وسلبهم القوة والقوت ونوع عليهم جورهم المقوت » (ص/١٨٧-١٨٨) . (٤) يختلف العماد الكاتب مع ابن الأثير في لقب الملك أرسلان وأنه ليس هو المعروف بالخفاجي ، وإنما المعروف بهذا اللقب ، هو أخوه فرخشاه ، ونس ما ذكره العماد عن قتل نصير الدين والملك الذي قتله (ص/١٨٧) : « كان مع زنكي ملك من أولاد السلطان محمود بن محمد ابن ملكشاه ، أحدهما يسمى ألب أرسلان ، وهو في معقل من معقل سنجان ، والآخر يسمى فرخشاه ، ويعرف بالملك الخفاجي ، وهو بالموصل . وكان هذا الملك مسلماً إلى الأمير ديبس بن صدقة ، فانتزعه منه زنكي في حرب ، وأُنزل من كرامه في منزل رجب . وكانت الخاتون السكمانية زوجة زنكي تربيته وتربيته وتجري به في حلبة تجريبه وتجربه حتى بلغ وأدرك ، وساكن فظنته تحرك . وفهدته المرأة غير مرة وأنهدت ، وعاهدته على الوفاق وعلى الوفاء عهده . وتأسد الشبل وضاق به عرينه ، وشمخ عرينه . وكان نصير الدين جقر (هكذا بالمرجع) نائب زنكي بالموصل للدماء سفاكاً ، وبالنفس فتاكاً ، يأخذ البرى بالسقيم ، ويلحق الولود بالعقيم ، ... وأنه لما أحس من الملك نفس الملك ، صار يقبض عنائه ، ويبسط فيه لسانه ، ويقول : لمن عقل ولا عقلته ، ولم نقل طبعه ولا نقلته . فسمع الملك ما رآه ، وأسره في نفسه وما أذاعه . فقدر ودير ، وفكر ومكر ، وجمع إليه من حوله ، وقال لهم فكتموا قوله ، واتفقوا على أنه إذا جاء إلى سلام خاتون أو سلامه ، أحيط به من خلفه ومن قدامه ، فإذا أصابوا منه المقتل ، ملكوا الموصل » . ثم ذكر العماد قتله بيد حاشية الملك ، ثم قال ، إنه بعد أن قبضوا على الملك فرخشاه وقضوا عليه ، « عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله ، وعنى بتفاصيل أمره وجملة ، وضرب له نوبية ونوباً ، ورتب له في حالي جلوسه ونكوبه رتباً ، وأغرى بتولي كرامه وتوخييه ، وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه » . (٥) بالأصل : وأجاب . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٤١) . (٦) بالأصل : فان . (٧) : الإضافة من الروضتين (١/ص/٤٧)

عادته ، وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه (١) ، وألقوا رأسه إلى أصحابه ، ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرقوا ويملك الملك ألب أرسلان البلاد ، فكان الأمر بخلاف الذي ظنوا . فإن أصحابه (٨٢-ب) وأصحاب [أتابك (٢)] الذين معه ، لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير . وكانت دولة (٣) الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوى الرأى والتجربة . فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء . وكان من جملة من حضر ، القاضى تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى ، فدخل إلى السلطان (٤) وخدعه حتى أصعده إلى القلعة ، وهو يحسن له الصعود إليها لملكها ، وحينئذ يستقر له ملك البلد . فلما صعد إلى القلعة سجنوه بها ، وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين ، وأرسلوا إلى أتابك يعرفونه الحال ، فسكن (٥) جاشه واطمأن قلبه ، إلا أنه لم يستقر جنانه حتى أقام بها النواب ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ولاية زين الدين على قلعة الموصل

لما قتل نصير الدين ، أرسل أتابك الشهيد ، شرف الدين ابن أخت نصير الدين إلى الموصل ليتولى ما كان خاله يتولاه (٨٣-أ) ، ولم يعطه علامة التسليم ولا كتب له منشورا ، وقال له : كل من هناك غلمانكم ، وتقدم إليه بما يفعل . فسار حتى وصل إلى الموصل . وكان بقلعة الموصل نقيب اسمه حسن ، فلما قتل نصير الدين ، أغلق باب القلعة وجمع الأجناد عنده في حفظها ، فلما وصل ابن أخت نصير الدين ، أرسل إليه النقيب يقول له : أرسل إلى منشور المولى أتابك بولاية القلعة ، فإذا رأيت علامته أذنت لك في الدخول ومعك من يخدمك حسب . ثم أرسل أنا إلى أتابك من أثق إليه أستأذنه في تسليم الأمر إليك ، فإذا أذن فعلت ، وإن لم يأذن أخرجتك منها . فترددت الرسل بينهما حتى أذن له في دخول القلعة على القاعدة المذكورة . فبينما هو يريد دخول البلد ، إذ رأوا غيرة مقبلة من طريق الشهيد فأقاموا ينتظرونها ، وإذ قد انكشفت عن زين الدين على [بن بكتكين (٦)] قد جاء مجدا ليكون نائبا في القلعة . وكان سبب ذلك أن الشهيد تغير (٨٣-ب) عزمه عن الأول لأسباب يطول ذكرها ، فأرسل زين الدين — وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه — فوصل الموصل في تلك الحال ، فقال له النقيب حسن مثل قوله لشرف الدين ابن أخت نصير الدين ، فأجاب زين الدين إلى ذلك ، ودخل القلعة في نفر يسير ، وأرسل النقيب إلى الشهيد من يثق إليه يستأذنه ، فأمره بتسليم القلعة إلى زين الدين ففعل . واستقر زين الدين

(١) في ، الكامل (٩/ص/٩) ، أن الذين قتلوا نصير الدين ، هم من كان عند الملك من أجناد عماد الدين ومماليكه . (٢) الإضافة من ، الروضتين (ج/١/ص/٤١) . (٣) بالأصل : دور . (والاصحاح من الروضتين ، ج/١/ص/٤١) . (٤) هذا سهو من ابن الأثير ، لأن ألب أرسلان لم يكن سلطاناً ، وإنما كان ملكاً فقط . (٥) بالأصل : فتسكن . (٦) الإضافة من النص نفسه ، من ترجمته له فيما يلي سنة ٥٦٣ .

ويمكن ، وسلك بالناس غير الطريق التي سلكها نصير الدين وسهل الأمر ، فأطمأن الناس وأمنوا ، وازدادت (١) البلاد معه عمارة .

حصر حصن فنك (٢)

هذا (٣) الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر ، وهو للأكراد البشنوية (٤) إلى زماننا هذا ، وله معهم مدة طويلة ، يقولون نحو ثلاثمائة سنة . وهو من أمنع الحصون ، مطل على دجلة ، وله سرب إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها (٥) . فلما كان سنة أربعين (٨٤ — أ) وخمسمائة (٦) ، تقدم أتابك إلى زين الدين على بإرسال عسكر إليه يحصره ، فسير خلقا كثيرا من الفرسان والرجالة فحصره ، وأقاموا عليه يحصرونه إلى أن قتل الشهيد ، وضيقوا على أهله ومنعواهم الميرة وهم صابرون . فلما قتل الشهيد زال عنهم الحصر ، وانكشف ما بهم من الضر ، وكان لأصحابه معه عدة حصون أخذها منهم الشهيد ، كالهشم ، وجديدة نصيين (٧) ، وشاروا ، وغيرها من قلاع الزوزان (٨) .

ذكر حصار قلعة جعبر

قال . كانت هذه قلعة جعبر (٩) ، قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي على ما ذكرنا عند ملك قسيم الدولة مدينة حلب ، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى هذه السنة — وهي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة — فسار الشهيد إليها فحصرها ، وكان الباعث على حصرها وحصر فنك ، أن لا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره — وإن قل — للحزم الذي عنده والاحتياط ، (٨٤ — ب) وأقام عليها يحصرها بنفسه . ومن أعجب موافقة الأقوال للأقدار ، ماحكى

(١) بالأصل : بواز داد . (٢) فنك : في (ياقوت) : بالفتح أولا وثانياً وكاف . قلعة حصينة منيعة للأكراد البشنوية ، قرب جزيرة ابن عمر بينهما نحو من ، فرسخين ، ولا يقدر صاحب الجزيرة ولا غيره — مع مخالفتهم للبلاد — عليها وهي بيد هؤلاء الأكراد منذ سنين كثيرة نحو الثلاثمائة سنة . وفيهم مروءة وعصبية ، ويحمون من يلتجئ إليهم ويحسون إليه . (٣) بالأصل : هذه . (٤) بالأصل : البشنوية . (والنصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٤١) . (٥) بالأصل : بينهما . (٦) في السكامل (ح/٩/ص/١٢) ، أن حصار فنك كان سنة ٥٤١هـ ، أثناء حصار عماد الدين قلعة جعبر . (٧) جديدة نصيين : في (ياقوت) : قلعة في كورة بين النهريين التي بين نصيين والموصل ، وأكثر ما تكون لصاحب الموصل . وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا ، ولها قرى ومزارع . (٨) الزوزان : في (ياقوت) : زوزان . بفتح أوله وثانيه ثم زاي أخرى وآخره نون . كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل . وأهلها أرمن ، وفيها طوائف من الأكراد . وينقل عن ابن الأثير ، أن الزوزان ، ناحية واسعة شرقي دجلة من جزيرة ابن عمر . وأول حدوده من نحو يومين من الموصل للحدود « خلاط » وينتهي حدها إلى أذربيجان إلى أول عمل ساماس . وفيها قلاع كثيرة حصينة ، وكلها للأكراد البشنوية والبختية . فن قلاع البشنوية : قلعة برقة ، وقلعة بشير . وللبختية قلعة جردقل ، وهي أجل قلعة لهم ، وهي كرسى ملكهم ، وآتيل ، وعلوس . وإبازاء الحراء لأصحاب الموصل : ألقي ، وأروخ ، وباخوخة ، وبرخو ، وكنور ، ونبروه ، وخوشب . (٩) قلعة جعبر : في (ياقوت) : على الفرات بين بالس والركة قرب صفين ، وكانت قديماً تسمى دوسر . وكان يملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك .

لى والدى قال : أرسل الشهيد ، الأمير حسان المنبى إلى صاحب القلعة لمودة بينهما فى معنى تسليمها (١) إليه ، وقال [له] : تضمن له عنى الإقطاع الوافرو العطاء الكثير ، فإن أجاب إلى التسليم ، وإلا فقل له : والله لأقيم محاصراً لك إلى أن أملكها عنوة ، ثم لا أبقي عليك ، ومن الذى يمنعك منى . فصعد إليه حسان وأخبره برسالة أتابك ، وأشار عليه بالتسليم إليه ، فامتنع . فقال له فهو يقول لك ، إن سلمت وإلا فعلت وصنعت ، وما الذى يمنعك منى . فقال : قل له ، يمنعنى منه الذى منعك يا حسان من الأمير بلك . فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه وكنم عنه هذا . فلم يمض غير قليل ، حتى قتل الشهيد وفرج الله عن صاحبها . قال . وكانت قصة حسان مع بلك ، أن حسانا (٢) كان صاحب منبج فحصره بلك (٨٥ - أ) - وهو ابن [أخى] إيلغازى بن أرتق - وضيق عليه ، فبينما هو فى بعض الأيام يقاتله ، إذ جاءه سهم لا يعرف من أين جاء ، فقتله وخلص حسان منه (٣) .

ذكر قتل الشهيد زنكى رضى الله عنه

قد ذكرنا حصار قلعة جعبر وملازمة الشهيد قتلها ، فلم يزل كذلك إلى أن مضى من شهر ربيع الآخر خمس ليال ، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه غيلة ولم يجهزوا عليه (٤) وهربوا من ليلتهم إلى القلعة [ولم يشعر أصحابه بقتله ، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة (٥)] صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر أصحابه إليه ، فأدركه أوائلهم وبه رمق . حدثنى والدى عن بعض خواصه ، قال : أدركته وهو فى السياق ، فحين رآنى ظن أنى أريد قتله ، فأشار إلى ياصبعه السبابة ، فوفقت من هيئته ، وقلت له : يامولانا من فعل بك هذا حتى أقتله ، فلم يقدر على الكلام . وختم الله بالشهادة أعماله ، وفاضت (٦) منه نفسه (٨٥ - ب) وسكن رسمه ، وأصبح معدوماً كأن لم يكن بالأمس ، وزال عنه الملك ، واستولى عليه الهلك ، ولم يكن عنه أصحابه وعساكره ، ولا حماه أمواله ودساكره ، ولا آخر الأجل بماليكه وأجناده ، ولا زحرج عنه الفناء حصونه وبلاده ، كما [قال] فيه بعض الشعراء ، حيث يقول :

فأعجب لمن قاد الجيوش ونفسه	قسمان بين الكر والإقدام
يلقى الكتائب مفرداً بكتائب	من نفسه واليوم يكدر (٧) حامى
لا يرعى عن أن يقارع وحده	ألفاً بأبيض صارم صمصام

(١) بالأصل : تسلمها . (٢) بالأصل : حسان (٣) عن مقتل بلك بن بهرام بن أرتق ، أنظر ، الكامل (٨/ص ٣١٥ - سنة ٥١٨) . (٤) فى « تاريخ دولة آل سلجوق » (ص ١٨٩) ، أن سبب قتله ، أنه نام يوماً وهو مخمور ، وكان به من مماليكه يلعبون وبطربون فهددهم ، فقتلوه خوفاً منه . (٥) الإضافة من ، الروضتين (٨/ص ٤٢) . (٦) بالأصل : فاطم . (٧) بالأصل : لكدر .

يأتى الفتوح على الفتوح بسيفه وبرأيه وبعزمه المقدم
حتى إذا الأجل انقضى مستكملاً ماخط في الألواح بالأقلام
لاقي الحمام ولم يكن (١) مستيقناً أن الحمام سيتلى بحمام
وأضحى (٢) وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلّى عنه العبيد والخول ، فأى نجم للإسلام
أفل ، وأى ناصر للإيمان رحل ، وأى بحر ندى (٨٦ - أ) نضب ، وأى بدر مكارم غرب ،
وأى أسد اقترس ، ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس ، فكم أتعب نفسه لتمهيد الملك وسياسته ،
وكم أذابها فى حفظه وحراسته ، فحين بلغ من ذلك ما أراد ، واستكمل فى سعة الملك وشدة الهيبة
وزاد ، وهانت عليه المصاعب ، وزالت المناعب ، واستكانت لصولته القروم ، وخضعت لهيبته
الترك والفرنج والروم ، أتاه مبيد الأمم ومفنيها فى الحدث والقدم ، ومهلك العرب والعجم ،
فأخذ من العالم سره وروحه ، وسقاه بكأسه غبوقه وصبوحه (٣) ، وزال عنه سلطانه ، وبعد عنه
حماته وأعوانه ، وفارقه أنصاره وخلاته ، وأخذه من جميع ما يملك وحيداً ، وجعله فريداً ، وأصاره
بعد القهر للخلائق مقهوراً ، وبعد وثير المضاجع فى التراب معفراً مقبوراً ، رهين حدث لا ينفعه إلا
ما قدم ، ولا يقبل (٨٦ - ب) من ساكنه فيه الندم ، وقد طويت صحيفة عمله ، ونشرت
جريدة أجره ، ونسخت آية عمره ، وبليت سورة ذكره ، فلو شوهدت وقعاته لم تذكر وقعة
الهباء (٤) ، ولا سطرت حرب الآلاء ، ولو نظرت فتكاته لأنسيت البراض (٥) والجحاف (٦) ، أو عد
صرعى سيفه لكثرت (٧) هلكى الجحاف (٨) ، وحين اخترمته المنية ، وخانتة الأمنية ، أضحى
الإسلام لفقد ناصره عبوساً ترحاً ، والكفر لعدم خاذله جذلاً مرحاً ، وما علما أن لهما من الملوك
أبناءه جابراً وكاسراً ، ومؤيداً وقاهراً ، بل من يربو (٩) [فى] نصرة التوحيد عليه ، ويزيد فى
هدم منار التثليث وتعجل الشار (١٠) إليه :

زاد على ما قام آباؤه به وقد شاد الذى أثلوه
أقصر أهل العصر عن شأوه حسرى وطال السكل إذ طاولوه

وسيرد من فتوحهم وجهادهم ما يرقع هذا الخرق ، ويحجر هذا الوهن . ولما قتل دفن بصفين

- (١) بالأصل : اكن . (٢) بالأصل : اخنأ . (٣) الغبوق : الشرب بالعشى . والصبوح : الشرب
بالغدوة . (مختار الصحاح) . (٤) بالأصل : الهباء . ووقعة الهباء من أيام العرب فى الجاهلية بين عبس
وذبيان على ماء يسمى « جفر الهباء » . وتفاصيلها فى « العقد الفريد » (٥/ص/١٥٦) .
(٥) البراض : هو البراض بن قيس ، أحد فتاك العرب المشهورين ، وقد تسبب فى حرب الفجار بين كنانة وقيس
عيلان فى الجاهلية . وتفاصيل الوقعة فى « العقد الفريد » (٥/ص/٢٥٣) . (٦) بالأصل : الجحاف .
وهو الجحاف بن حكيم السليعى ، وكان بينه وبين الأخطل الشاعر عداوة ، أثار الجحاف بسببها حرباً على بنى تغلب —
قوم الأخطل — فقتل فيهم مقتلة عظيمة . (الكامل ، ٨/ص/٤٠٨ . سنة ٧٠ هـ) . (٧) بالأصل : لكثره .
(٨) هو سيل وقع بمكة عام ٨٠ هـ ، عرف بسيل الجحاف « لأن ذلك السيل جفيف كل شئ مر به » .
(الطبرى ٦/ص/٥٠٨ / ١٣٨) (٩) بالأصل : يربو . (١٠) بالأصل : الشار .

عند أصحاب أمير المؤمنين علي (٨٧ - أ) عليه السلام . ولقد بلغني أنه اجتاز بها وزار مشاهدنا ثم قال : وددت أني شهدت صفين بعسكري مع أمير المؤمنين علي عليه السلام ، حتى كنت أريه القتال الذي يعجز أصحابه عنه . ولكل إمري مانوى . وأما صورته ، فإن والدى حكى لي ، قال : كان حسن الصورة ، أسمر اللون ، مليح العينين ، قد وخطه الشيب ، طويلا ، وليس الطويل البائن ، قال : وأشبهه من رأيت به ، حفيده (١) السعيد عز الدين أتابك مسعود بن مودود ابن زنكي ، إلا أن الشهيد كان أتم قامة (٢) منه . وخلف من الأولاد : سيف الدين غازيا (٣) — وهو الذي ولي الملك بعده — ونور الدين محمود (٤) ، الملك العادل ، وقطب الدين مودود (٥) [وهو] أبو الملوك الآن بالموصل ، ونصرة الدين أمير أميران . فانقرض عقب (٨٧ - ب) سيف الدين من الذكور والإناث ، وعقب نور الدين من الذكور . ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين . وخلف الشهيد أيضاً بنتاً . ولقد أنجب رحمه الله ، فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم وسندكر من أخبارهم ما يعلم صحة ما قلناه .

ذكر بعض سيرة الملك الشهيد رضى الله عنه

كانت سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور ، كانت رعيته في أمن شامل لعجز القوى عن التعدي على الضعيف ، ونحن نذكر من سياسته وآرائه وإنصافه وشجاعته وغير ذلك ، ما يعلم به محله من العقل ، وحسن قيامه بأمر الملك واضطلاعه به ، وإن من تقدمه من الملوك لم يصلوا إلى ما أوتيه من ذلك ، وحينئذ تقول : كم ترك الأول للآخر .

فمن ذلك إنصافه بين القوى والضعيف . حدثني والدى رضى الله عنه ، قال : قدم الشهيد — قدس الله روحه — (٨٨ - أ) إلينا بجزيرة ابن عمر بعض السنين — وكان الزمان شتاء — فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام ، وكان في جملة أمرائه الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي — وهو من أكابر أمرائه ، ومن ذوى الرأى عنده — فدخل الديبسي البلد ونزل بدار إنسان يهودى وأخرجه منها ، واستغاث اليهودى إلى الشهيد وهو راكب ، فسأل عن حاله فأخبر به ، وكان الشهيد واقفاً والديبسي إلى جانبه ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى الديبسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة ، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها (٦) [خارج البلد (٧)]

(١) بالأصل : حاقده . (والتصحيح من ، دى سلين ، ص/١٣٥) . (٢) بعده في النص ما أتى ، ثم ضرب عليه الناسخ : وخلف من الأولاد سيف الدين غازى وهو الذى ولي الملك بعده ونور الدين محمد الملك البادل وقطب الدين مودود بن زنكي إلا أن الشهيد كان أتم قامه منه . (٣) بالأصل : غازى . (٤) بالأصل محمود . (٥) بالأصل : مودود . (٦) بالأصل : ينصبها . (٧) : الإضافة من ، الروضتين . (١/ص/٤٣) .

ولم تكن (١) الأرض تحتل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين . قال : فلقد رأيت الفراشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته ، فلما رأوا كثرتهم جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها (٢) وينصبوا الخيام ، وخرج إليها من ساعته . وناهيك بهذا سياسة وإنصافاً .

قال : وكان ينهى أصحابه عن إقتناء الأملاك (٨٨ - ب) ويقول : مهما البلاد لنا فأى حاجة بكم إلى الأملاك ، فإن الإقطاعات تغنى عنها ، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلّموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوا أملاكهم . رحمه الله ورضى الله عنه ، فلقد كان ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق ، فما أحسن هذا الخلق ، وأحسن هذا النظر للرعايا ، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم ، لا خلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل وكف الأيدي المتطاولّة إلى أهلها .

ومن علم حال هذه البلاد قبل ملكه عرف مقدار ما عمر منها . حكى لى والدى قال : رأيت الموصل التي هي أم البلاد في أول أيام الشهيد وأكثرها خراب ، فكان الخراب من محلة الطبايين إلى القلعة وإلى دور السلطنة ، وكانت العرصة ترى من قريب مسجد التركاني ، وهو قريب من الطبايين ، وكان (٨٩ - أ) الجامع العتيق أيضاً بلا عمارة ألبتة . وكانت (٣) جميع المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة ، وكان أدنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر ، وكان الناس لا يقدرّون على المشى إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة . وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الأمير ناصر الدين كورى (٤) بن جكرمش ، فإنه طلب من الشهيد أن يأذن له لبنى داراً قريباً من خدمته ، فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يبنى بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق ، فبنى داره الأولى ، وهى اليوم مدرسة وقفها أم الملك الصالح (٥) . ثم بنى بعد ذلك داره الأخرى أقرب إلى دار المملكة . وهذا الذى ذكرناه عن خراب البلد كثير جداً . فلما طالت الأيام الشهيدية ، وحسب البلاد ومنع المفسدين وكف أيدي الأقوياء ، سارت سيرته في البلاد ، فقصدته الناس واتخذوا بلاده داراً ، فإنه من أكرم إرابط . فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها ، حتى لقد ذهب كثير من المقابر (٨٩ - ب) وبنيت دورا . وهو الذى أمر ببناء دور المملكة بالموصل ، ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان ، فبنى هذه الدور جميعها ، ثم أمر بالزيادة في علو سور الموصل فزيد (٦) فيه ما يقارب

(٢) بالأصل : لبقها . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح / ١ / من / ٤٣) .

(٤) بالأصل : لورى (وقد سبق ذكره ، ص / ١٦) .

(٥) هو الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين بن عماد الدين زنكى . وقد خلف أباه بعد وفاته سنة ٥٦٩ .

(١) بالأصل : فزیده .

مثله ، وأثره ظاهر إلى يومنا هذا في السور . وأمر أيضاً بتعميق خندقها ، فعمل على ما هو عليه اليوم . وكانت الموصل أولاً بغير سور (١) ، فأول من عمل لها سوراً شرف الدولة مسلم بن قريش ، ولم يعمل له فصيلاً ولا خندقاً ، وكان قليل العلو . فلما ملكها جكر مش بن فصيلها وحفر لها خندقاً وليس بالعميق ، فلما ملكها الشهيد وحصرها المسترشد بالله على ما ذكرناه سنة سبع وعشرين وخمسة ثم عاد عنها ، أتم سورها وخندقها ، ففعل ذلك وتولاه نائبه نصير الدين . فهذا السور وهذا الخندق هما (٢) على الحال التي عملت في الأيام الشهيدة . وهو الذي فتح الباب (٩٠ — أ) العبادي وإليه ينسب .

قال المؤرخ . وكانت الموصل أقل بلاد الله فأكهة ، فكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقرض يقص به العنب لقلته إذا أراد أن يزنه . فلما عمرت البلاد ، عملت البساتين بظاهرها وفي ولايتها ، فهي اليوم أكثر البلاد فأكهة ، فالرمان يبق (٣) إلى أن يدرك العتيق والجديد ، وكذلك الكمثرى (٤) ، وقريب منه العنب ، وأما التفاح فيجمع العتيق والجديد .

ومن ذلك حسن رأيه رحمه الله

فمن آرائه الصائبة ، أنه كان شديد العناية بأخبار (٥) الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم ، ولا سيما دركاه (٦) السلاطين . وكان يخسر على ذلك المال الجزيل . وكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم ، وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل إليه في كل يوم من عيونه عدة قاصدين .

قال والدي رحمه الله : وكان مع اشتغاله (٩٠ — ب) بالأمور الكليات من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً . قال : فمن ذلك ، أنني وصلت إلى عسكره بقلعة جعبر قبل قتله بأيام ، وقصدت خيام جمال الدين الوزير ، فحين وصلت أدخلني إليه ، فبينما أنا عنده ، وهو يسألني عن طريق ، وإذا قد جاءه مملوك تركي من عند الشهيد وقال له بالعجمية كلاماً لا أعلمه . فقال لي جمال الدين : متى وصلت . فقلت : الساعة . فقال هذا عجب تجيء الساعة ويسمع أتابك بوصولك ، ولا شك قد علم بك قبل وصولك إلى ، وقد أرسل يقول : سله عن فنك وحصارها وأحوال الجند عليها ، وما يصل إليهم من الجاميكيات (٧) والسلاح وجميع الأحوال . قال : فحدثته بجملة الحال كأنه يشاهده فمضى وعاد ، وقال : يقول لك ،

(١) بالأصل : صور . (٢) بالأصل : هو . (٣) بالأصل : يبق .
(٤) بالأصل : الكمثرى . (٥) بالأصل : بإخبار . (٦) دركاه : هي الساحة أمام قصر السلطان ، أو الدهليز ، أو الرواق ، أو المدخل . (ابن واصل ، ١/ص ١٠٢/حاشية ١) . وفي (المعجم في اللغة الفارسية) يرسم اللفظ هكذا : دركاه ، وهو ، سرای الملاك . (٧) الجاميكيات ، مفردتها ، جامكية ، وهي الراتب عامة . (السلوك ، ١/ص ٥٣/حاشية ٢) . وهي هنا رواتب الجند .

إن كنت تعلم أن هناك نقصاً (١) في شيء مما يحتاج إليه المحاصر فعرّفنا (٩١ - أ) حتى نزيله ونفعل ما يجب. فقلت: ليس هناك إلا ما يجب المولى وزدته شرحاً، فانظر إلى هذه المهمة، وإلا فأى محل لفنك في سعة مملكته الطويلة العريضة.

قال: وأصغر من هذا أنه بلغه أن جماعة من فلاحى مدينة الموصل رحلوا إلى بلد ماردين، فأرسل إلى حسام الدين (٢) يطلب منه أن يعيدهم، فرد الجواب: إنا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم، ونأخذ منهم فى القسمة من الغلال العشر، فلو فعلتم أتم مثل فعلنا لم يفارقوكم. فقال الشهيد لرسوله: قل لصاحبك، إذا أخذت أنت من كل مائة [سهم ٩] سهماً واحداً كان كثيراً لك، لأنك مشغول ببلدتك فى رأس ماردين. وأما أنا فإذا أخذت الثلاثين كان قليلاً، لما أنا بصدده من قصد الأعداء والجهاد، ولولاى لطال عليك أن تشرب الماء آمناً فى ماردين، ولما كان الفرنج ملوكها، ولئن لم تعد الفلاحين وإلا أخذت كل فلاح فى بلد ماردين إلى بلد الموصل، فأعادهم. فهذا [إهتمام] لا (٣) مزيد عليه (٤) فى معرفة (٩١ - ب) أحوال المملكة.

قال. ومن جملة رأيه الحسن، أنه كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم، فلا يرفع أحداً فوق قدره الذى يستحقه ولا يضعه دونه، ويشق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه، فمن ذلك أنه كان له طشت دار (٥) يسمى سباتوه فسلم إليه يوماً خشكناكة (٦) وقال [له]: لحفظ هذه. فبقى نحو ستة لا تفارقه الخشكناكة خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد ذلك قال له: أين تلك الخشكناكة. فأخرجها منديل وقدمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه، وقال: مثلك ينبغى أن يكون مستحفظ الحصن، وأمر له بدردارية قلعة كواشى، فبقى فيها إلى أن قتل أتابك.

ومن آرائه: أنه كان لا يمكن أحداً خدمه من مفارقة بلاده، وكان يقول: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها. فمن (٩٢ - أ) [ذلك أنه (٧)] هرب منه أمير كبير يقال أبو بكر - وكان مقدم البسكجية، وهو مقطع نصيبين - فهرب منه إلى حسام الدين تمرتاش بماردين، فأرسل الشهيد يطلبه فلم يسلمه إليه، فنازل ماردين وحصرها، فلما عجز حسام

(٢) هو حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق.

(١) بالأصل: نقص.

(٣) بالأصل: لا. (٤) بالأصل: عليهم. (٥) طشت دار: لفظ فارسى مركب من مقطعين،

الأول الطشت (بالسين المهملة، بفتح الطاء واسكان السين المهملة فى اللغة العربية) وهو الذى يغسل فيه (والعامة

أبدلوا السين المهملة بشين معجمة)، والآخر «دار» ومعناه ممسك، فيكون المعنى «ممسك الطشت».

(القلقشندى، ح/٥/ص/٤٦٩). (٦) خشكناكة: نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز والفسق.

(ابن واصل، ح/١/ص/١٠٢/حاشية/٣). (٧) الإضافة من «دى سلين» (ص/١٤٢).

الدين عن منعه سيره إلى دركاه السلطان مسعود ، فلما بلغ الشهيد الخبر أرسل الهدايا للسلطان والوزير فسلم إليه فسيجنه وكان آخر العهد به .

ومن صائب رأيه وجيده (١) ما فعله من نقل طائفة من التركان الإيوانية مع الأمير اليارق إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكا لهم ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال (٢) ويرأو حوئهم ، وأخذوا كثيراً من السواد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم . ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستائة .

ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أودع بعضها بالموصل ، وبعضها بسنجار ، وبعضها بحلب ، (٩٢ - ب) وقال : إن جرى على بعض هذه الجهات خرق ، أو حيل يبنى وبينه ، أستعين (٣) على سد هذا الخرق بالمال الذي في غيره .

ومن ذلك (٤) شجاعته وهيبته الهیوبة

وأما شجاعته وإقدامه فإنه النهاية [فيهما (٥)] ، وبه كان يضرب المثل . أما قبل أن يملك فشاهاه معروفة مشهورة ، منها حملته على الفرنج بطبرية ووصله إلى بابها ، وقد تقدم ذلك . ومنها أيضاً حملته على أصحاب قلعة عقر الحميدية وصعوده في جبالها إلى سورها ، ومقامه هناك مشهور إلى الآن إلى أشباه كثيرة لهذا . وأما بعد أن ملك ، فمن عرف حاله وإحاطة الأعداء والمنازعين له ببلاده ، وصبره واستيلاءه (٦) مع هذا على بلادهم ، علم محله من الشجاعة والصبر والإقدام . والذي حكى لي والدي من ذلك ، قال : كان الشهيد — قدس الله روحه — قد أحقق الأعداء بولايته والمنازعون له ، فمنهم أمير المؤمنين (٩٣ - أ) المسترشد بالله ، قد كان الحال بينهما ظاهراً ، حتى أن المسترشد بالله سار إلى الموصل وحصرها . ومنهم السلطان مسعود في أعمال الجبال وأذربيجان قد جاور أعمال الشهيد بتلك النواحي ، وهو أقوى الخلق ، وأكثرهم عساکر ، وأشدّهم كراهة للشهيد . ثم إلى جانبه أعمال أرمينية — وهي لبیت سکنان (٧) — ولهم العساكر الكثيرة والبلاد الواسعة ، وهم أعداؤه ، وقد جاورهم في حيزان (٨) ، والمعدن وغيرهما . ثم إلى جانب بیت سکنان ، ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وديار بكر ، وابن عمه حسام الدين تمر تاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين ، وقد جاورا كثيراً من ولايته ، منها :

(١) بالأصل : ومن صائب الرأي الجيده (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص ٤٣) . (٢) بالأصل : للقتال . (٣) بالأصل : أستعين به . (٤) بالأصل : ومن ذلك من شجاعته . (٥) الإضافة من ، الروضتين (١/ص ٤٤) . (٦) بالأصل : واستيلاء . (٧) هو سکنان القطبی صاحب خلاط ، وقد توفي سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر بیت سکنان — وهم أتابكة أرمينية — في سنة ٤٩٣ هـ ، على يد سکنان (أو سقمان) الأول ، وقضى عليهم الأيوبيون سنة ٦٠٤ (زامباور) . (٨) بالأصل : خيزان .

جزيرة ابن (١) عمر ونصيبين . ومع هذا فأخذ من بلادهما كثيراً ، ثم إلى جانبهما الفرنج من قريب ماردين إلى باب دمشق ، قد جاؤوا بلادهم من رأس عين ، وحران ، وحلب ، وحماة ، وحصص ، وبعليبك ، وهم (٩٣ - ب) أشد ما كانوا قوة وأكثر جمعا . ومع هذا فهو يملك بلادهم ويهزمهم مرة بعد أخرى . ثم صاحب دمشق قد جاؤ به ، ومع هذا فهو يأخذ أيضاً من بلادهم ، فكان لا يستقر بل يغزو كلا منهم في عقر داره — ماعداً السلطان مسعود — فإنه كان لا يباشر قصده ، بل كان يضع أصحاب الأطراف على الخروج عليه ، فإذا فعلوا ، عاد السلطان [محتاجاً (٢)] إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته ، فيصير كالحاكم على الجميع ، وكلهم يداريه ويخضع له ، ويطلب منه أن تستقر القواعد على يده . فانظر إلى هذه الشجاعة وهذا الرأي والتدبير . ولو لم يكن في زمانه غير ركن الدولة داود صاحب الحصن لكفى به ، فإنه كان بعيد الصوت في التركان يجمع منهم كل من حمل السلاح . وكان أيضاً مع هذا شجاعاً مقداماً لا تضره الهزائم شيئاً ، بل يفارق المعركة مهزوماً ثم يعاود الحرب بعد أيام .

(٩٤ - أ) وأما الفرنج ، فقد كانوا لما ملك البلاد قد قهروا المسلمين ، وملكوا بلادهم وأكثروا فيهم القتل ، ولهم فيهم الصوت العظيم والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفاً منهم ، فلما ملك البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه ، ولو لم يكن له فيهم نكاية غير فتح الرها لكان عظيماً . وحكى لي عنه ، أنه لما عزم على المسير إلى الرها حين فتحها ، أحضر طعاماً وقال لأصحابه (٣) : لا يتقدم إلى ، ولا يأكل معي إلا من يحمل غدا معي على الرها ، فلم يتقدم إليه غير رجلين ، أحدهما شاب حسن ، أول ما تكاملت لحيته ، فنبهه أصحابه ، فقال : أتركوه فإنني أنوسم فيه شجاعة ، فكان ذلك الشاب (٤) أول الناس مقدماً (٥) إلى سور الرها .

وأما صدقاته رضى الله عنه

فكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهرة ، ويتصدق في ما عداه من الأيام سرّاً مع من يثق إليه (٦) . حكى لي : أنه ركب يوماً فعثرت به دابته ، فسكاد يسقط عنها فاستدعى أميراً كان (٩٤ - ب) معه اسمه بليمان ، فقال له كلاماً لم يفهمه بليمان ولم يتجاسر على أن يستفهم منه ، فعاد عنه إلى بيته فودع أهله عازماً على الهرب (٧) . فقالت له زوجته : ماذنك ، وما الذي حملك على هذا الهرب . فذكر لها (٨) الحال . فقالت له : إن نصير الدين له بك عناية ، فاذا ذكر له قصتك وافعل ما يأمر بك به ، فقال : أخاف أن يمنعني عن الهرب وأهلك . فلم تزل زوجته

(٢) الإضافة من ، الروضين (١/ص ٤٤) .

(٥) بالأصل : مقدمها .

(٤) بالأصل : السباب .

(٨) بالأصل : له

(٧) بالأصل : عازماً على هذا الهرب

(١) بالأصل : بن .

(٣) بالأصل : الاصحابه .

(٦) اللفظ مكرر بالأصل .

تراجعه وتقوى عزمه على القول لنصير الدين فرجع إلى قولها ، وقصد نصير الدين وعرفه حاله ، فضحك وقال : خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد . فقال بليمان : الله الله في دمي ونفسي . فقال : لا بأس عليك ، فإنه ما أراد غير هذه الصرة ، فحملها إليه فحين رآه قال (١) : أمعلك شيء . قال نعم ، فأمره أن يتصدق به . فلما فرغ بليمان من الصدقة ، قصد نصير الدين وشكره وقال له : من أين علمت أنه أراد الصرة فقال له : إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر ، يرسل إلى يأخذه من الليل . (٩٥ - أ) وفي يومنا هذا لم يأخذه ، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض وأرسلك إلى ، فعلت أنه ذكر الصدقة فأرسلتها معك إليه . فانظر إلى هذه السعادة حيث قدر الله تعالى له مثل هذا النائب في شدة ذكائه وفطنته ، وإلى هذه الهيبة الشديدة التي منعت ذلك الأمير عن المراجعة ، وبها امتنع القوى عن الضعيف . وحكى لي والدي من شدة هيئته ما هو أشد من هذا ، قال والدي : خرج يوماً الشهيد من قلعة الجزيرة من باب السر خلوة ، وملاح له نائم ، فأيقظه بعض الجاندارية (٢) وقال له : أقعد ، فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحركه فوجدوه ميتاً .

وأما قوة عزمه ، وقلة (٣) تلونه ، وعلو همته

قال لي والدي رحمه الله : كان الشهيد رضى الله عنه قليل التلون والتنقل (٤) ، بطيء المثل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه منذ ملك إلى أن قتل ، إلا بذنب يوجب التغير ، والأمراء والمقدمون (٥) الذين كانوا معه أولاً ، هم (٩٥ - ب) الذين بقوا أخيراً من سلم منهم من الموت ، فلم هذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له . قال والدي : كنت أرى من جمال الدين محمد ابن علي بن أبي منصور الوزير في الأيام (٦) الشهيدة من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها ، والمحافضة فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية ، فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيره حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين (٧) في الدولة تمكنا عظيماً ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ، قال ، فقلت له يوماً : أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدة ، ما أرى منها الآن شيئاً . [فقال] لي : الآن ما عندي كفاية . فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشيء . فقال : أنت صبي غر ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان ، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان وما يناسبه ، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوى العزم

(١) بالأصل : فقال . (٢) الجاندارية : فئة من ممالك السلطان أو الأمير . واللفظ مركب من مقطعين فارسيين ، أحدهما : « جان » ومعناه ، سلاح . والآخر « دار » ومعناه « ممسك » ووظيفة جاندار السلطان « أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان . (السلوك ، ١/ص/١٣٣/حاشية ١) . (٣) بالأصل : وقائه . (٤) بالأصل : والتنقل . (٥) بالأصل : المقدمون . (والترجيح من ، الروضتين ١/ص/٤٤) . (٦) بالأصل : أيام . (٧) بالأصل : بلكين .

لا يتجاسر (٩٦ — أ) أحد على الاعتراض عليه ، ولا يتلون بأقوال أصحابه حفظناه ، وكان ما أفعله كفاية . وأما الآن فلنا سلطان (١) غير متمكن وهو محكوم عليه ، فهذا الذى أفعله هو الكفاية .

قال : وكان له جماعة كثيرة خراسانية [فى] الركاب لهم الجامكيات الوفرة ، وكان فى الديوان [من] يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة . ففى بعض السنين تأخرت جامكياتهم تأخرا يسيراً ، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم مجتمعين ، فعلم أنهم يشكون شيئاً ، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له . فقال لهم : أشكوتهم إلى الديوان . قالوا : لا . قال : فهل ذكرتم حالكم لصلاح الدين أمير حاجب . قالوا : لا . قال : فلأى شىء أعطى الديوان مائة ألف دينار ، وأعطى الأمير حاجب أكثر من ذلك ، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها ، كنتم شكوتهم حالكم إلى الديوان ، فإن أهملوا أمركم كنتم قلتم لصلاح الدين ، فإن أهمل أمركم كنتم شكوتهم للجميع إلى حتى كنت أعاقبهم على إهمالكم ، (٩٦ — ب) وأما الآن فالذنب لكم . ثم أمر بتأديبهم وقطع جامكياتهم حتى شفع فيهم بعض الأمراء ، فعفا عنهم . ثم أحضر الديوان وصلاح الدين وقال لهم : إذا كنتم تهملون أمر جندى الذين تحت ركابى ومن هو ملازمى فى سفرى وإقامتى ، وبهم من الحاجة إلى النفقات فى أسفارهم ما تعلمونه ، فكيف يكون حال من بعد عنى ، وأنكر عليهم ، فخرجوا من عنده وفرقوا فى الأجناد من أموالهم حتى وصلت جامكياتهم ، فأخذوا عوض ما أخرجوه . فرحمه الله فلقد كان حسن السياسة والضبط للأمر ، فإنه بهذه الحالة الواحدة أصلح الجند لطاعة الديوان ، وأصلح الديوان للنظر فى مصالح الجند ، وعظم نفسه عن أن يخاطب فى هذا الأمر الحقيق ، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره .

وكان (٢) ديوانه يقاس بدواوين السلاطين السلجقية لكثرة التجميل ونفاذ الأمر وعظم الحاشية والخرج . قال والدى : كان الإنسان إذا قدم عسكره لم (٣) يكن غريباً ، فإن كان جندياً إشتغل عليه الأجناد وأضافوه ، وقاموا بما يحتاج إليه لكثرة أموالهم . وإن كان القادم صاحب ديوان ، قصد (٩٧ — أ) منزلة الديوان فرأى من توفرهم عليه ، ونظرهم فى مصالحه ما يكون كأنه فى أهله . وإن كان عالماً ، فيقصد خيام القضاة بنى الشهرزورى وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد ، فيحسنون إليه ويؤنسونه غربته فيعود أهلاً (٤) . وسبب ذلك جميعه أنه كان يخاطب الرجال ذوى الهمم العلية ، والآراء الصائبة ، والأنفس الآبية (٥) ، ويوسع عليهم فى أرزاقهم فيسهل عليهم فعل الجليل واصطناع المعروف .

(١) بالأصل : السلطان . (٢) بالأصل : كان . (٣) بالأصل : من . (٤) فى الروضتين (ح / ١ / ص ٤٥) : كأنه أهل . (٥) بالأصل : الآبنة .

وأما غيرته

فكان الشهيد رحمه الله تعالى شديد الغيرة على الحريم ، لا سيما نساء الأجناد ، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها ، وكان يقول : إن جندى لا يفارقونى فى أسفارى ، وما يقيمون عند أهلهم ، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن . فمن شدة غيرته وتعظيمه لهذا الذنب ، أنه كان قد أقام دزداراً بقلعة الجزيرة اسمه حسن ولقبه ثقة الدين ويعرف بالبربطى ، وكان من خواصه وأقرب الناس إليه ، وكان غير (٩٧ - ب) مرضى السيرة ، فبلغه عنه أنه يتعرض للحرم ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغيسيانى أن يسير مجداً ويدخل الجزيرة بغتة ، فإذا دخلها أخذ البربطى وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحرم ثم يصلبه ، فسار صلاح الدين مجداً ، فلم يشعر البربطى إلا وقد وصل إلى البلد ، فخرج إلى لقائه ، فأكرمه صلاح الدين ودخل معه البلد ، وقال له : المولى أتابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلى قدرك ويرفع منزلتك ، ويسلم إليك قلعة حلب ، ويوليك جميع البلاد الشامية لتكون هناك (١) مثل نصير الدين [جقر] ها هنا ، فتجهز وتحذر مالك فى الماء إلى الموصل وتسير إلى خدمته ، ففرح ذلك المسكين ولم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها (٢) إلى الموصل فى دجلة ، فحين فرغ من جميع ذلك ، أخذه صلاح الدين وأمضى فيه ما أمر به ، وأخذ جميع ما له لم يعدم منه الحبة الفرد ، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شئ من أفعاله . فاعجب من (٩٨ - أ) حزم هذا السلطان واحتياطه حيث أرسل أكبر من فى دولته ، وأخفى أمره خوفاً من جهل ذلك الدزدار أن يحمله على العصيان ، أو على أمر يتعب فى تلافيه . ثم أنظر من صلاح الدين ، كيف خدع ذلك المسكين بإكرامه ووعدته بالأعمال السنية حتى أخرج ذخائره وأمواله ، ولم يبق منها شيئاً . ولو سلك غير هذا لعدم من ماله الكثير .

ذكر ملك سيف الدين غازى بن زنكى (٣)

وما فعله جمال الدين الوزير إلى أن ملك

لما قتل أتابك الشهيد رحمه الله ، هرب جمال الدين واختفى عند أمير يعرف بأميرك الجاندار خوفاً من صلاح الدين الياغيسيانى لعداوة كانت بينهما . وفى تلك الليلة ركب الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود — وكان مع الشهيد — واجتمعت العساكر عليه وخدموه ، فأرسل جمال الدين إلى صلاح الدين يقول له : إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا ، ونسلك طريقاً يبقى به الملك (٩٨ - ب) فى أولاد صاحبنا ، ونعمر بيته جزاء لإحسانه إلينا ، فإن الملك قد طمع

(١) بالأصل : امثل . (٢) بالأصل : ليحدرها (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٤٤) .

(٣) بالأصل : ذكر ملك سيف الملك سيف الدين غازى ابن زنكى .

في البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم تتلاف هذا الأمر في أوله، وتنداركة في بدايته ليتسعن (١) الخرق ولا يمكن رقعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف كل واحد منهما لصاحبه، فظهر (٢) حينئذ جمال الدين من الإخفاء، وركب إلى الملك وخدمه وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه صلاح الدين، وقال له: إن أتاك كان نائباً عنك في البلاد وباسمك كنا نطيعه، فقبل قولهما وظنه حقاً، وقرهما طمعاً في أن يكونا ناله على تحصيل غرضه، وأرسلا إلى زين الدين الموصل يعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي — وهو ولد زنكي الأكبر — وإحضاره إلى الموصل، وكان بشهر زور — وهي إقطاعه من أبيه — ففعل زين الدين ذلك. وكان نور الدين محمود ابن الشهيد قد سار لما قتل والده إلى حلب فلما كتبها (٣). وقال (٩٩ — أ) جمال الدين للملك: إن من الرأي أن يسير صلاح الدين إلى مملوكك محمود بحلب يدبر أمره، فأمره بذلك. وكان هذا أمراً (٤) قد تقدر بين جمال الدين وصلاح الدين، وهو (٥) مسير صلاح الدين إلى الشام، وتقرير أمر نور الدين، وحفظ البلاد هناك لئلا يطمع الفرنج في شيء منها. وكانت مدينة حماة إقطاع صلاح الدين، فرغب في الشام لهذا السبب، ولأنه ظن أن أمر الملك يقوى ويملك البلاد ولا يبقى لأولاد الشهيد شيء شرقي الفرات. وكان أحب الأشياء إلى جمال الدين بعد صلاح الدين أيضاً، لأنه لم يأمن منه (٦). فلما أمر الملك بمسير صلاح الدين إلى الشام سار، وبقي جمال الدين وحده مع الملك، فأخذ وقصد الرقة، فحسن له جمال الدين الإشتغال بشرب الخمر والخلوة بالنساء، وأرسل إليه عدة جوار كن للشهيد، وشيئاً من المال يهبه المغنيات، وهون عليه أمر ملك البلاد، وقوى طمعه فيها حتى ظن أنها في يده (٩٩ — ب) فاشتغل الملك بذلك، وأراد أن يعطى الأمراء، فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم منك الإقطاع الجزيل والنعم الوافرة. وشرع جمال الدين بستميل العسكر ويحلف الأمراء لسيف الدين ابن أتاك الشهيد واحداً بعد واحد، وكل من يحلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرقة عدة أيام، ثم سار به إلى ماكسين (٧)، فتركها عدة أيام أيضاً، وقد شغله جمال الدين بلذاته عن طلب الملك، ثم سار به نحو سنجار، وكان سيف الدين غازي قد دخل الموصل فاستقر بها، ففوى حينئذ جنان جمال الدين [ووصل هو والملك إلى سنجار (٨)] وأرسل إلى دزدارها وقال

- (١) بالأصل: لا يتسعن. (٢) بالأصل: فظهر. (٣) في، الروضتين (١/ص/٤٧): وذلك بإشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك. (٤) بالأصل: أمر. (٥) مكان اللفظ « وهو » بالأصل « وهيراء » وهو لفظ غامض لم نستطع بيانه لعدم وروده في المراجع التي تحت أيدينا. ولعل اللفظ الذي أئبناه يؤدي المعنى المقصود في العبارة. (٦) بالأصل: يأخذ منه، واللفظ هنا غامض المعنى وقد استبدلناه باللفظ « يأمن » لأنه أقرب إلى المعنى. (الحقق) (٧) ماكسين: في (ياقوت) بكسر القاف. بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة. (٨) الإضافة من، الروضتين (١/ص/٤٧).

له : لا تسلم البلد ولا تمكن أحداً (١) من دخوله ، ولكن أرسل إلى الملك وقل له : أنا تبع الموصل ، فتي دخلت الموصل سلت إليك . ففعل الدردار (٢) ، ذلك . فقال جمال الدين [للملك (٣)] : المصلحة إننا نسير إلى الموصل ، فإن يملكك غازي إذا سمع بقرئنا منه خرج إلى الخدمة ، وحينئذ تقبض عليه وتسلم (٤) البلاد ، فساروا عن سنجار ، وكثر (٥) رحيل (١٠٠ — أ) العسكر [إلى الموصل (٣)] هارين من الملك فبقي في قلة من العسكر ، فساروا (٦) إلى مدينة بلد (٧) ، وعبر الملك دجلة من هناك ، فلما عبرها ، سار جمال الدين إلى الموصل فدخلها ، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الديلمي في عسكر إلى الملك ، وهو في نفر يسير ، فأخذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به . واستقر أمر سيف الدين ، وأقر زين الدين على ما كان عليه (٨) من ولاية الموصل ، وجعل جمال الدين وزيره . وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين خلف ، وأقره على البلاد وأرسل له الخلع . وكان هذا سيف الدين قد لازم [خدمة (٣)] السلطان مسعود أيام [أبيه (٣)] سقراً وحضراً . وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به وينسطة (٩) ، فلما خوطب في الميمن وتقرير البلاد لم يتوقف ، فانظر إلى فعل جمال الدين وحسن عهده ، وكمال مروءته ، ورعايته لحقوق مخدمه وإحسانه ، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة ألف فارس ، فلقد قلل من قال : الناس ألف منهم (١٠٠ — ب) كواحد . وهو معذور فإنه لم ير مثل جمال الدين . ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ، ما عدا ما كان بديار بكر : كالمعدن ، وحيزان وأسعد وغير ذلك ، فإن المجاورين لها تغلبوا عليها .

ذكر عصيان (١٠) أهل الرها واستيلاء المسلمين عليها ثانياً

لما قتل الشهيد كان جوسلين الفرنجي — الذي كان صاحب الرها في ولايته غربي الفرات في تل باشرو وما جاورها ، فراسل أهل الرها — وكان عامتهم من الأرمن — وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك ، فسار في عساكره إليها وملكها ، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين ، وقاتلهم وجد في قتالهم ، فبلغ الخبر إلى نور الدين — وهو حينئذ بحلب قد ملكها بعد قتل والده — فسار مجدداً إليها في العسكر الذي عنده ، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ، ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبي أهلها (١٠١ — أ) وفي هذه الدفعة نهب

(١) بالأصل : ولا يمكن أحد . (٢) بالأصل : دزدان . (٣) الإضافة من ، الروضتين (١٠ ص / ٤٧) (٤) بالأصل : ويتسلم . (٥) بالأصل : وكثير . (٦) بالأصل : فسار . (٧) بلد : في (ياقوت) : وربما قيل لها « بلط » (بالطاء) وهي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ . وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً . وأسمها بالفارسية : شهر اباد . (٨) بالأصل : لايه . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١٠ ص / ٤٧) . (٩) بالأصل : وينسطة . (١٠) في ، ابن القلانسي (ص / ٢٨٨) ، أن عصيان الرها كان في أيام من جادى الأولى سنة ٥٤١ هـ .

وخربت وخلت من أهلها ولم يبق منهم بها إلا القليل . وكان من بالقلعة قد أرسلوا إلى الموصل يعرفون سيف الدين الخبر ، فوصل القاصد إلى ولاية الموصل ، فلقى عز الدين أبا بكر الديبسي وقد سار إلى الجزيرة ليتسلها إقطاعاً ، فسلك طريق البقعاء (١) متصيذاً ، فلقى القاصد فأخبره خبر الرها ، فترك عز الدين قصد الجزيرة وسار نحو الرها ، وأرسل إلى سيف الدين قاصداً مستريحاً ينهى إليه الحال ، ويطلب منه المدد ، فجهزت العساكر من الموصل ، وجد عز الدين في السير ، فوصلها وقد ملكها نور الدين واستقر فيها ، ونهبها وأجلى من كان بها من الفرنج ، وكان هذا فتحاً ثانياً . وبقيت الرها بيد نور الدين لم يعارضه فيها سيف الدين .

نادرة عجبية

لما ملك نور الدين الرها ونهبها المسلمون ، أرسل من عنائهم إلى الأمراء وغيرهم ماجرت به العادة . وكان زين الدين علي من جملة من أرسل إليه منها ، وفي جملة ما أرسل [إليه] عدة من الجوارى (١٠١ - ب) فحملن إلى داره ، ودخل لينظر إليهن ، وقال لمن عنده من أصحابه : مكانكم حتى أعود إليكم . فغاب عنهم قليلاً ثم خرج ، وقد اغتسل ، وهو يضحك ، فلما قعد قال : قد جرى لي اليوم أعجوبة ، وهى أننا [لما (٢)] فتحنا الرها مع الشهيد رحمه الله [كان في جملة ماغنمت جارية مالت نفسى إليها ، فعزمت على أن أبيت معها ، فسمعت منادى الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي والغنائم (٢)] وكان مهيباً مخوفاً ، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها ، فلما كان الآن ، أرسل إلى نور الدين سهمى من الغنيمة وفيه تلك الجارية ، فوطئتها خوفاً من العود .

ذكر اجتماع سيف الدين ونور الدين ابني (٣) زنكى

لما فرغ سيف الدين من إصلاح [أمر (٤)] السلطان وتخليفه وتقرير أمر البلاد ، عبر إلى الشام لينظر في [تلك (٤)] النواحي ، ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب ، وقد تأخر من الحضور عند أخيه وخافه (٥) ، فلم يزل يرأسله ويستميله ، وكلما طلب شيئاً أجابه إليه

(١) لم يعرف بها ياقوت في معجمه ، وإنما ذكر بقعاء الموصل ، وذلك عند تعريفه بديار ربيعة ، فقال ، ان ديار ربيعة تقع بين الموصل ورأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين وديسر والخابور جميعه .
(٢) الإضافة من ، الروضتين (ح / ١ / ص / ٤٩) . (٣) بالأصل : ابن . (٤) الإضافة من ، الروضتين (ح / ١ / ص / ٤٧) . (٥) لم يذكر ابن الأثير خبر الاجتماع بين الأخوين في « السكامل » ، كذلك لم يذكر سبب الخلاف بينهما ، لا في « السكامل » ولا في « النص » ونستطيع نحن أن نرجع سبب الخلاف ، إلى أن نور الدين خرق التقاليد القبلية — والنزكيون من القبائل التركية — التى تنص على أن تكون زعامة البيت للأرشد من أبنائه ، فنافس نور الدين أخاه الأكبر في الملك ، فاستولى على حلب والرها ، الأمر الذى أزعج سيف الدين ، فأخذ يعمل على التوفيق بينه وبين أخيه كما هو واضح في النص .

إستمالة لقلبه ، فاستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي (١) ، ومع كل واحد منهما خمسمائة (١٠٢ — أ) فارس ، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة (٢) فوارس ، فلم يعرف نور الدين سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه ، فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا (٣) ، وقعد نور الدين وسيف الدين بعد أن اعتنقا وبكيا ، فقال له سيف الدين : لم امتنعت من المجيء إلى ، كنت تخافني على نفسك ، والله لم يخطر ببالى ماتكره ، فلن أريد البلادوه مع أعيش ، وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخى وأحب الناس إلى فاطمأن نور الدين وسكن روعه ، وعاد إلى حلب فتجهز ، وعاد بمعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره سيف الدين بالعود وترك معسكره (٤) عنده ، وقال له : لا غرض لى فى مقامك عندى ، وإنما غرضى أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا ، فمن يريد السوء بنا يكف عنه ، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا فيه . وعاد كل واحد منهما إلى بلده .

ذكر نزول الفرنج على دمشق وحصرها وما فعله

سيف الدين حتى رحلوا عنها

(١٠٢ — ب) فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، خرج ملك الألمان (٥) من بلاد الفرنج فى جيوش عظيمة لا تحصى كثرة من الإفرنج إلى بلاد الشام ، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج ، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها (٦) ولا يشك ملك الألمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره . وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عدداً وأوسعهم بلاداً ، وملكهم أكثرهم عدداً وعدداً ، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً ، والسيف أصدق أنباء من الكتب . فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أبى بن محمد بن بورى (٧) بن طغتكين ، وليس له من الأمر شيء (٨) وإنما كان الأمر إلى معين الدين [أنر] بن مملوك جده طغتكين ، فهو كان الحاكم والمدير للبلد وللعسكر . وكان عاقلاً خيراً ديناً حسن السيرة ، فجمع العسكر وحفظ البلد ، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول ، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب

(١) فى ، مرآة الزمان (٨/ص/١٩٢) ، أن سيف الدين لما راسل أخاه نور الدين للاجتماع به ، اعتذر نور الدين بالفرنج خوفاً على نفسه منه ، خلف له سيف الدين ، واتفقا على أن يجتمعا بالجزيرة ، وتقابلا ليلاً فى الحابور . (وهذا الاجتماع الليلي له معناه ، وذلك لى لا تكون هناك فرصة لأن يقاتل أحدهما الآخر ، وأهل الذى اختار هذا الوقت هو نور الدين ، لأنه هو الذى يخاف من أخيه . (الحقق) (٢) بالأصل : خمس .

(٣) بالأصل : فعاد . (٤) بالأصل : ونزل بمعسكره . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٤٨) .

(٥) هو كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا . وقد اشترك معه فى قيادة هذه الحملة — وهى الحملة الصليبية الثانية — لويس السابع ملك فرنسا . (ابن واصل ، ح/١/ص/١١٢/حاشية/٣) . (٦) بالأصل : ونازلها . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) . (٧) بالأصل : نورى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) . (٨) بالأصل : شيتا .

منه ، وكان فيمن خرج معهم ، الفقيه (١٠٣ - أ) حجة الدين يوسف بن ذى ناس (١) الفندلاوى المغربى ، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا ، خرج راجلا فرآه معين الدين فقصدته وسلم عليه ، وقال له : يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك ، وليس بك قوة على القتال . فقال : قد بعت واشترى ، فلا نقيه ولا نستقيه يعنى قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ (٢) الآية . وتقدم وقاتل الإفرنج حتى قتل رضى الله عنه عند النيرب شهيدا . وقوى أمر الفرنج وتقدموا ، فزولوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه ، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ، ويسأله القدوم عليه ، ويعلمه شدة الأمر الذى قد دفعوا إليه ، فجمع سيف الدين عساكره وحشد ، وسار مجدا إلى مدينة حصص ، وأرسل إلى معين الدين يقول له : قد حضرت ومعى كل من يطيق حمل السلاح من بلادى ، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابى وأصحابى وكانت الهزيمة (١٠٣ - ب) علينا ، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا ، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها ، فإن أردت أن ألقاهم وأقاتلهم ، فتسلم البلد إلى من أثق إليه ، وأنا أحلف لك ، إن كانت النصر لنا على الفرنج أننى لا آخذ دمشق ، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادى . فمأطله (٣) معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج .

وأرسل سيف إلى الفرنج الغرباء يتهدهم ، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا ، وأرسل معين الدين إليهم أيضا يقول لهم : قد حضر ملك الشرق ومعهم من العساكر مالا طاقة لكم به ، فإن أتم رحلتهم عنا وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه . وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق (٤) لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم (١٠٤ - أ) لا تقدرُونَ على منعه عن البيت المقدس ، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق ، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه ، واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده ، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبق لهم معه مقام بالساحل ، فأجابهم إلى الرحيل عن [دمشق] (٥) وسار عنها . ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين ، وبقى حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله تعالى . ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق ، قال : حكى [لى] (٦) بعض الأئمة العلماء ، إنه رأى الفندلاوى فى المنام ، فقال له أين أنت . قال : فى جنات عدن على سرر متقابلين .

(١) فى السكامل (ح/٩/ص/٢٠) : ابن ذى باس . وفى النجوم الزاهرة (ح/٥/ص/٢٨٢) : ابن درناس . وفى شذرات الذهب (ح/٤/ص/١٣٦) : ابن دواس الفندلاوى . وترجمته فى الشذرات (نفس الجزء والصفحة) .
(٢) سورة التوبة : ١١١ . (٣) بالأصل : فما طلمه . (وال تصحيح من الروضتين ، ح/١/ص/٥٣) .
(٤) بالأصل : بدمشق . (٥) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/٥٣) . (٦) الإضافة من ، السكامل (ح/٩/ص/٢١) .

ذكر فتح نور الدين حصن العزيمة (١)

لما رحل الفرنج عن دمشق ، سار معين الدين أنر إلى بعلبك ، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين ، فسأله أن يحضر عنده فيجتمع به ، فسار إليه واجتمعا (١٠٤ - ب) فوصل إليهما حينئذ كتاب القمص صاحب طرابلس ، يشير عليهما بقصد حصن العزيمة (٢) وأخذه من فيه من الفرنج . وكان سبب ذلك ، أن ولد الفنش (٣) صاحب طليطلة (٤) ، خرج مع ملك الألمان إلى الشام وتغلب على العزيمة وأخذه من القمص ، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا . وجد هذا الذي ملك العزيمة ، هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس [الغرب] (٥) فلما استولى هذا على العزيمة ، كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده ، فسارا إليه مجدين فصباحها ، وكتبوا إلى سيف الدين [وهو بمص (٦)] يستنجدانه ويطلبان المدد ، فأمدهما بعسكر جرار ، وجعل مقدمه عز الدين أبا بكر الديبسي ، فحسروا الحصن وبه ابن الفنش ، فامتنع به وحماه ، فزحف (٧) المسلمون إليه ، وتقدم النقباقون الذين مع نور الدين فنقبوا السور ، فلما رأوا الفرنج ذلك ، أذعنوا واستسلموا ، وألقوا ما بأيديهم فملك المسلمون الحصن ، وأخذوا كل من فيه من رجل وصبي وامرأة ، وفيهم ابن الفنش (٨) ، وأخربوا الحصن (١٠٥ - أ) وعادوا إلى سيف الدين .

ذكر ملك سيف الدين قلعة دارا

قد ذكرنا أن أتابك الشهيد رضى الله عنه ملك دارا (٩) وبقيت بيده إلى أن قتل . فلما قتل أخذها حسام الدين ثمرتاش صاحب ماردين (١٠) . فلما كان في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار سيف الدين إليها وحصرها ، وقاتل من بها وضيق عليهم فملك الحصن (١١) ، واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها .

-
- (١) بالأصل : عزيمة . (والتصحيح من ، الكامل ، ٩/ص/١١) . (٢) بالأصل : العميمة . (٣) بالأصل : الفنش . (والتصحيح من ، الكامل ، ٩/ص/٢١) . والfnش هو النطق العربي لاسم الفونسو الأسباني . (٤) بالأصل : صاحب جزيرة صقلية . (والتصحيح من ، الكامل ، ٩/ص/٢١) . وما في الكامل أصح ، لأن لفرنج الأندلس استولوا على طليطلة سنة ٤٧٨ . (الكامل ، ٨/ص/١٣٨) (٥) الإضافة هنا للتمييز بينه وبين طرابلس الشام المذكورة قبلها . (٦) الإضافة من ، الكامل (٩/ص/٢١) . (٧) بالأصل : فرجف . (٨) في ابن القلانسي (ص/٣٠١) أن نور الدين أخذ معه ابن الفنش وأمه ومن أسرهم إلى حلب . (٩) دارا : في (ياقوت) : داراء ، وتقع بين نصيبين وماردين في لُفج جبل . (١٠) بعد مقتل عماد الدين ، طمع الفرنج والأراقة وصاحب دمشق بأملاكه ، فأخذوا يستردون ما استولى عليه من بلادهم . وقد حاول الفرنج استرداد الرها ، ولكنهم فشلوا كما مر بنا . واسترد حسام الدين ثمرتاش ، دارا وغيرها ، واسترد صاحب دمشق بعلبك ، ولم يذكر ابن الأثير خبر بعلبك هنا ، وإنما ذكره في « الكامل » (٩/ص/١٦ ، سنة ٥٤١) . (١١) في ، الكامل (٩/ص/١٨) أن سيف الدين استردها في سنة ٥٤٢ .

ذكر حصار قلعة ماردين الشهباء

ثم إن سيف الدين سار إلى ماردين وحصرها (١) ، عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده الشهيد رضى الله عنه ، فأقام عليها يحاصرها ، وتفرق العسكر في بلدتها ينهبون ويخربون ، فلما نظر حسام الدين صاحبها (٢) إلى ما يفعل العسكر في بلاده ، قال : كنا نشكوا من أتاكك الشهيد وأين أيامه ، فلقد كانت أعيادا ، قد حصرنا غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولا أخذوا كفا (١٠٥ - ب) من التبن بغير ثمنه .

رب يوم بكيت منه (٣) فلما صرت في غيره بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد ، وزوجه ابنته الخاتون ، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل ، وجهازت خاتون وسيرت إليه ، فوصات إلى الموصل وهو مريض قد أشرف على الموت ، فتوفي ولم يدخل بها . فلما توفي تزوجها أخوه الملك قطب الدين مودود ، فكان أولاده الملوك منها .

ذكر غزو الفرنج ببصرى (٤) وما جرى لهم فيها

في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، سار نور الدين محمود ابن الشهيد رضى الله عنهما (٥) إلى بصرى (٦) ، وقد اجتمع بها الفرنج في قبضهم وقضيضهم (٧) ، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام (٨) . فلما سمع نور الدين خبرهم سار نحوهم ، فالتقوا هنالك واقتتلوا أشد قتال ، ثم أنزل

(١) في ، الكامل (١٨/٩/ص) أن سيف الدين سار إلى ماردين في سنة ٥٤٢ هـ ، بعد استيلائه على دارا .
(٢) بالأصل : صاحبها . (٣) بالأصل : فيه . (والتصحيح من ، الروضتين ، ج١/١/ص ٦٥) .
(٤) بالأصل : بغيرى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ج١/١/ص ٥٥) . وأبو شامة يصرح بأنه ينقل الخبر من « الأتابكة » . ونلاحظ أن ابن الأثير ، ذكر في ، الكامل ، (ج١/٩/ص ٢٢) أن نور الدين انتصر بغيرى أيضاً . وهذا خطأ من ابن الأثير ، لأن نور الدين انهزم من الفرنج في معركة بغيرى ، وقد حدثت سنة ٥٤٣ هـ ، كما في ابن الفلانى (ص ٣٠٢) . وينقل أبو شامة عن ابن أبي طى ، تقاعس أسد الدين شيركوه فيها عن القتال رغم هزيمة المسلمين . يقول أبو شامة : « وذكر ابن أبي طى أن أسد الدين ، لما كان في نفسه على نور الدين ، من تقديم ابن الداية عليه ، لم ينصح يومئذ — وهى وقعة يغرا — (هكذا ، بالألف) . ومربى به نور الدين ، فقال له : ما هذا الوقوف والغفلة فى هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا . فقال : يا خوند ، إيش تنفع نحن ، إنما ينفع مجد الدين أبو بكر ، فهو صاحب الأمر ، فاستدرك نور الدين ذلك ، وطيب قلب أسد الدين بعد ذلك ... » . ويورد أبو شامة أيضاً ، أبياتا من قصيدة لابن منير الشاعر « تقدمت لاعتذارا عما جرى فى هذه الغزاة » أول بيت منها :

لم يشته من ماء يغراء أن فر (م) الأشابات ذاد عنها انزلاقه

ويورد أيضاً (ص ٥٨) بعض أبيات من قصيدة لبعض الحلبيين يمدح بها نور الدين لانتصاره على الفرنج بأنطاكية ، سنة ٥٤٤ هـ ، أى بعد هزيمة بغيرى ، أول بيت منها :

لن كان آل فرنج أدركوا فلجا فى يوم يغرا ونالوا منية الظفر

(٥) بالأصل : عنه ها . (٦) بالأصل : بغيرى . (٧) بالأصل : وقضيضهم . (٨) فى ، الكامل (ج١/٩/ص ٢٢) ، أن الفرنج تجمعوا ليقتصدوا أعمال حلب ليغبروا عليها .

الله تعالى نصره على المسلمين ، وانهزم الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين ، فكانوا بين قتل وأسير (١٠٦- أ) وأما السالم منهم من المعركة فقليل ، ولهذا يقول القيسراني (١) في هذه الواقعة من قصيدة [يقول] في أولها (٢) :

يأليت إن الصدد مصدود
إلى متى يعرض عن مغرم
أولا فليت اليوم مردود
في خده للدمع أخدود

ومنها (٣)

وكيف لا نثنى (٤) على عيشنا الد
وصارم الإسلام لا ينثنى
مناقب لم تلك موجودة
وكم له من وقعة يومها
والقوم إما مرهق صرعة
محمود والسلطان محمود
إلا وشلو الكفر مقودود
إلا ونور الدين موجود
عند ملوك الشرك مشهود
أو موثق بالقيد (٥) مشدود

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي

في أواخر جمادى الآخرة (٦) من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، توفي سيف الدين غازي بن أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر . وكان مرضه حمى حادة ، فأرسل إلى بغداد وأحضر أوحده الزمان الطبيب ، ولم يكن في زمانه (٧) أعرف منه بالطب (٨) ، (١٠٦- ب) فلما رأى شدة مرضه علم أن الأغلب عليه العطب ، فأعلم جمال الدين وزين الدين حاله ، وقال لهما : ليس له علاج غير شيء واحد ، وهو خطر فعالجه ، فتوفي . وكان عمره نحو أربعين سنة . وكان من أحسن الناس صورة . ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل . وخلف ولدا ذكرا أخذه عمه نور الدين محمود ورباه وأحسن تربيته ، وزوجه بياضة عمه قطب الدين مودود ، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي . وانقرض عقب سيف الدين رحمه الله تعالى .

في ذكر بعض سيرته وأخلاقه رحمه [الله]

كان رحمه الله تعالى كريماً ، شجاعاً ، عاقلاً ، ذا حزم وعزم ، ولما (٩) توفي والده الشهيد ، استوزر جمال الدين أبا جعفر المقدم ذكره ، وحكمه وأعطاه عشر دخل بلاده ، وأقر زين الدين

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير بن خالد بن القيسراني ، توفي سنة ٤٤٨ هـ . وترجمته في ، شذرات الذهب (ح/٤/ص/١٥٠) . (٢) بالأصل : أولها يقول . (٣) بالأصل : ومنها في ذكره . (وقد حذف المحقق اللفظين : في ذكره ، لأنهما لا يدلان على شيء) . (٤) بالأصل : لا نثنى . (٥) بالأصل : بالقيد . (٦) بالأصل : جمدى الآخر . (٧) بالأصل : يزمانه . (٨) بالأصل : بالطلب . (٩) بالأصل : لما .

على ولاية قلعة الموصل ، وكان له إربل ، فزاد إقطاعه وأعلى محله . وأقطع عز الدين أبا بكر الديبسي جزيرة ابن عمر وجميع قلاع الزوزان وغيرها ، وقرر أمر المملكة فلم يتغير شيء بقتل والده .

(١٠٧— أ) حكى لي والدي : إنه كان راتبه كل يوم لسماطه مائة شاة بكرة ، ينزل الجند في خدمته كل يوم ويأكلون الطعام ، وكان له سماط آخر النهار ، يذبح له كل يوم ثلاثون رأساً من الغنم الجيد ، سوى الخيل والبقر .

وهو أول من حمل (١) على رأسه سنجق (٢) من أصحاب الأطراف ، فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية .

وهو أول من أمر عسكره أن لا يركب أحدهم إلا والسيف في وسطه والدبوس تحت ركابه سافراً وحضراً ، ولم يكن يفعل قبل ذلك في سائر البلاد إلا في السفر ، فلما أمر هو عسكره ، إقتدى به غيره من أصحاب الأطراف .

وبنى بالموصل المدرسة الآتابكية العتيقة ، وهي من أحسن المدارس وأوسعها ، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين .

وبنى أيضاً رباطاً للصوفية بالموصل (٣) وهو الرباط المجاور لباب المشرقة ، ووقف عليها الوقوف الكثيرة .

(١٠٧— ب) قال : وكان جمال الدين ، وزين الدين ، وعز الدين الديبسي ، قد اتفقت كلمتهم في أيامه ، واضطر إلى مداراتهم ، لأنهم كانوا يخوفونه السلطان ، فلما طال ذلك عليه ، عزم على المسير إلى السلطان مسعود وقال لهم : أنا كنت من أقرب الناس إلى السلطان ، ومنزلتي عنده مشهورة ، ولا بد لي من المسير إليه ، فخافوه إن هو سار إليه ، أن يعود وقد أمن جانبه فلا يبقى عليهم ، فسكانوا لا يزالوا يمنعونهم عما يريد من ذلك إلى أن أدركه أجله .

وكان كريماً ، قصده شهاب الدين الحيص بيص (٤) وامتدحه بقصيده المشهورة التي [يقول في (٥)] أولها : شعر .

إلام يراك المجد في زى شاعر وقد نخلت شوقاً فروع المنابر

(١) بالأصل : احمل (٢) السنجق : لفظ تركي ، معناه : الرمح . والمراد هنا العلم الذي هو الراية ، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح ، عبر بالرمح نفسه عنها . والسنجقدار ، هو حامل السنجق . (صبح الأعشى ، ٥/ص ٤٥٨) . (٣) بالأصل : بالموصل أيضاً . (وقد أسقط المحقق اللفظ : أيضاً لتكراره في الجملة) . (٤) هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صفي التميمي الشاعر المشهور توفي سنة ٥٧٤ هـ ، وترجمته في شذرات الذهب (٤/ص ٢٤٧) . (٥) بالأصل : التي أولها يقول شعر . (٦) بالأصل : الإكم (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص ٦٥) .

وهي من جيد شعره ، فأعطاه جائزته ألف دينار أميرى ، سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه ، وسوى الخلع والثياب من سائر الأنواع .

فى ذكر ملك أخيه قطب الدين (١٠٨ — أ)

لما توفى سيف الدين غازى ، كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل ، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين (١) على تملكه طلباً للسلامة منه ، فإنه كان لين الجانب ، حسن الأخلاق ، كثير الحلم ، كريم الطباع ، فأحضروه من داره وحلقوه لهم وحلقوا له ، ونزل بدار المملكة وحلف له الأمراء والأجناد ، واستقر فى الملك ، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين ، لأن المرجع كان فى جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين . ولما ملك واستقر فى الملك ، تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التى (٢) كان سيف الدين تزوجها ولم يدخل بها ، فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده على ما نذكره . ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد من غير أولادها .

فى ذكر فاطمة ابنة عبد الملك (معرفة حسنة تذكر)

قد ذكر أصحاب التواريخ والمعارف ، أن فاطمة (٣) بنت عبد الملك بن مروان (٤) بن الحكم ، وأمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية (٥) بن أبى سفيان (٦) — جد أمها لأبيها — ، وابنه يزيد — وهو (١٠٨ — ب) — جدها لأمها — ، ومعاوية بن يزيد — وهو خالها — ، ومروان بن الحكم — وهو جدها لأبيها — ، وعبد الملك بن مروان (٧) — وهو أبوها — ، والوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك — وهم إخوتها — ، وعمر بن عبد العزيز — وهو زوجها — والوليد (٨) بن يزيد بن عبد الملك — وهو ابن أخيها — ، ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد بن عبد الملك — وهما ابنا أخيها — أيضاً . ولم يبق من بنى أمية الذين ولوا الأمر ، من كان يحرم عليها أن تضع خمارها عنده ، إلا مروان بن محمد ، المعروف بالجار لاغير . وهذه الخاتون (٩) كان يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكاً ، وهم : نجم الدين إيلغازى بن أرتق — وهو جدها لأبيها — ، وسقمان بن أرتق — وهو عم (١٠) أبيها — ؛ وحسام الدين تمرتاش — وهو أبوها — ، ونجم الدين ألبى — وهو أخوها — ، وقطب الدين إيلغازى بن ألبى — وهو ابن

(١) فى الكامل ، (٩/ص/٢٤) : جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش . (٢) بالأصل : الذى .

(٣) بالأصل : فطمه . (٤) بالأصل : مروان . (٥) بالأصل : معاوية . (٦) بالأصل : سفيان .

(٧) بالأصل : مروان . (٨) بالأصل : واليد . (٩) المقصود بها زوجة قطب الدين مودود .

ابنة حسام الدين تمرتاش . (١٠) بالأصل : وهو عام .

أخيها - ، وحسام الدين ، وناصر الدين - وهما أولاد قطب الدين - ، وسيف الدين غازي ،
الوقطب الدين مودود (١٠٩ - أ) إبن الشهيد زنكي - وهما زوجها - ، وعماد الدين
شهيد - وهو حوها - وولداها سيف الدين غازي (١) ، وعز الدين مسعود (٢) - إبن قطب
الدين مودود - ، ونور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود (٣) - وهو ابن إبنها - ،
وإبنه الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين (٤) [أرسلان شاه] ، ومعرز الدين سنجر
شاه بن سيف الدين غازي (٥) - وهو ابن إبنها - ، وإبنه معز الدين محمود (٦) ، وعماد الدين
زنكي بن قطب الدين مودود (٧) - وهو ابن زوجها - ، وولده قطب الدين محمد (٨) .

ذكر ملك نور الدين محمود ابن الشهيد مدينة سنجار

وما كان بينه وبين [أخيه قطب الدين]

لما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي ، كان نور الدين
محمود بحلب - وهو أكبر من قطب الدين - فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم ، وكانهم
حسدوا زين الدين وجمال الدين ، وأرادوا أن يحكم عليهم ابن صاحبهم . وكان فيمن كاتبه ،
المقدم (٩) والشمس الدين ابن المقدم - وهو حينئذ دزدار سنجار - (١٠٩ - ب)
واستدعاه ليسلم إليه سنجار ، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارساً في أكابر دولته ، منهم .
أسد الدين شيركوه ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما ، فوصل إلى ماكسين في ستة أنفس .
في يوم شديد المطر وعليهم اللبايد ، فلم يعرفهم (١٠) الذين بالباب ، وأرسلوا إلى الشحنة وأخبروه
بوصول نفر من الأجناد وكانهم تركان ، فلم يستقم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين ، فحين رآه
الشحنة قبل يده وخرج عن الدار ، فزله نور الدين حتى لحق به أصحابه ، وسار مجداً إلى سنجار ،
فوصلها وليس معه غير نفر يسير ، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفور صغير (١١) من شدة
تعبه ، وأرسل إلى المقدم بالقلعة يعرفه وصوله . وكان المقدم قد استدعى إلى الموصل ، لأن خبره

-
- (١) هو سيف الدين غازي (الثاني) . وقد ملك الموصل بعد أبيه ، من سنة ٥٦٥ حتى سنة ٥٧٦ .
(٢) ملك عز الدين مسعود الموصل ، من سنة ٥٧٦ حتى سنة ٥٨٩ . (٣) ملك نور الدين أرسلان
شاه الموصل ، من سنة ٥٨٩ حتى سنة ٦٠٧ . (٤) ملك الملك القاهر الموصل ، من سنة ٦٠٧ حتى سنة ٦١٥ ،
والذي ينتهي « تاريخ دولة الأتابكة » بنجر ماسكه لها . (٥) صاحب جزيرة ابن عمر ، ٥٧٦ - ٦٠٥ .
(٦) صاحب جزيرة ابن عمر ، ٦٠٥ - ٦٣٩ . (٧) صاحب سنجار ، ٥٦٦ - ٥٩٤ .
(٨) صاحب سنجار ، ٥٩٤ - ٦١٦ . (٩) في الكامل (ح / ٩ / ص / ٢٤) : « وفيمن كاتبه المقدم
عبد الملك والشمس الدين محمد » . (١٠) بالأصل : تعرفه . (والتصحيح من الروضتين ، ح / ١ / ص / ٦٨) .
(١١) في الروضتين : (ح / ١ / ص / ٦٨) محفورة صغيرة . والأصوب أن يقال : حفر صغير . ففي (لسان العرب) ،
مادة : حفر : الحفر ، بالتعريك ، هو التراب المخرج من الشيء المحفور .

مع نور الدين بلغ من بها ، فأرسلوا إليه وأحضره (١) ، فتوقف عدة أيام فلم يصل نور الدين ، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسنجار ، وقال له (١١٠ - أ) : أنا أتأخر (٢) في الطريق ، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني . فلما فارق سنجان وصل نور الدين . فلما علم شمس الدين بوصوله ، أرسل قاصداً مجدداً إلى أبيه بالخبر ، وأنهى الحال إلى نور الدين فسقط في يده وخاف فوات الأمر . ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه ، فأدركه بتليغفر (٣) ، فعاد إلى سنجان وسلمها إلى نور الدين ، فمكاتب [نور الدين] نحر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجد ، وبذل له قلعة الهيثم ، فسار إليه بجنده . ولما سمع أتاك قطب الدين الخبر ، جمع عساكره وسار عن الموصل نحو سنجان ومعه جمال الدين وزين الدين ، ونزلوا بتل يعفر ، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذ ما ليس له ، ويهددوه بقصده وإخراجه عن البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً (٤) ، فأعاد الجواب : إني أنا الأكبر ، وإنى أحق أن أدبر أمر أخى منكم ، وما جئت إلا لما تتابعتم إلى كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم (١١٠ - ب) — يعني زين الدين وجمال الدين — نخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر عن أيدينا . وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال ، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم — وكان قدهرب إليه جماعة من أجنادهم — نخافوا أن يلقوه لثلاً يخامر عليهم باقي العسكر ، ودخل الأمراء في الصلح وأشار به جمال الدين ، وقال : نحن نظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين ، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويتهدم بنا ، فإن كاشفناه وحاربناه ، فإن ظفر بنا (٥) طمع فينا السلطان ، وإن ظفرنا به (٦) طمع فيه الفرنج . ولنا بالشام حمص وقد صار له عندنا سنجان ، فهذه أنفع لنا من تلك ، وتلك أنفع له من هذه ، والرأى أن نسلم (٧) [إليه (٨)] حمص ونأخذ سنجان ، وهو في ثغر يازاء الفرنج ويتعين مساعدته ، فاتفق الجماعة على هذا الرأى . وسار إليه جمال الدين فأكرمه نور الدين وبالغ في تعظيمه (٩) وإكرامه ، وعاتبه جمال الدين وقال : كنت أرسلت إلى في شيء تريده من البلاد حتى كنت أفعل ما تريد (١١١ - أ) ولا تطمع فيك الأعداء وفينا ، وطال الحديث بينهما . وأجاب نور الدين إلى ما طلب منه ، واستقر الصلح على ذلك ، وتسلم نور الدين

(١) هكذا بالأصل . (٢) بالأصل : إذا تأخره . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٦٧) .
 (٣) وترسم أيضاً : تل يعفر ، وهو الأكثر استعمالاً . وفي (ياقوت) : تل أعفر ، هكذا تقول عامة الناس .
 وأما خواصهم فيقولون : تل يعفر . وقيل إن أصله : التل الأعفر ، لونه ، فغير بكثرة الاستعمال وطلب الحقة . وهو اسم قلعة وربض بين سنجان والموصل في وسط واد فيه نهج رجار . وهي على جبل منفرد حصينة محكمة ، وفيها نخيل يجلب رطبها إلى الموصل . (٤) بالأصل : باختياراً . (والتصحيح من الروضتين ، ١/ص/٦٧) . (٥) بالأصل : ظفرنا به . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٦٧) . (٦) بالأصل : ظفرنا . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٦٧) . (٧) بالأصل : يسلم . (٨) الإضافة من الروضتين (٩) بالأصل : تعظيمه .

حمص (١) ، وسلم سنجار إلى أخيه . وعاد نور الدين إلى الشام ، وأخذ ما كان بسنجار من المال ، ولما أراد العود ، قال لجمال الدين : لا بد من أن تكون عندي ، فلي من الحق مثل ما لأخي ، وأنا أحوج إليك منه . فقال له جمال الدين : أنت فيك من الكفاية ما يستغني [به (٢)] عن وزير ومشير (٣) ، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك ، لأن عدوك كافر فالناس يدفعونه ديانة ، وأعداء أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم ، وإذا كنت عند أخيك فالنفع عائد إليك ، وأريد من بلادك مثل ما لي من بلاد أخيك معونة على كثرة خرجي ، فأجابه إلى ذلك . فقال له جمال الدين : أنت عليك خرج كثير لأجل الكفار ويجب مساعدتك ، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة ، فأمر له بها . فكان نائب جمال الدين يقيضها (٤) كل سنة ويشتري بها أسرى (٥) (١١١ - ب) من الفرنج ويطلقهم .

ولما تسلم قطب الدين سنجار أقطعها زين الدين ، لأن حمص كانت لأخيه وهو مقيم بها . واتفقت كلمتهم ، واتحدت آراؤهم ، فكان كل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه .

ذكر قضية قلعة سنجار

قال . فلما مات سيف الدين وتولى أخوه (٦) قطب الدين ، أحضر شمس الدين محمد بن المقدم عبد الملك من سنجار — وكان هذا شمس الدين خصيصاً بسيف الدين — . وسبب وصلته به أنه لما قصد [سيف الدين] خدمة السلطان مسعود السلجوقي ، رتب في خدمته عشرة من الجندارية ، وكان عبد الملك واحداً (٧) منهم ، ومعه ولد له ملبح الصورة ، فكلف به وأحبه (٨) واستصحبه معه إلى الموصل . ولما انفرق عبد الملك من الجندارية وتبع سيف الدين إلى الموصل ، استخلف سيف الدين ، عبد الملك في سنجار .

فلما توفي سيف الدين وتملك قطب الدين ، أرسل إلى سنجار واستطلب إليه شمس الدين ابن عبد الملك فاستحضره (٩) ، وحلفه على أنه لا يمكن والده من تسليم (١٠) سنجار إلى غيره ، خلف له (١١٢ - أ) . ثم هرب من عند قطب الدين إلى (١١) سنجار . فعندما استوثق أمر قطب الدين بالموصل واستقرت (١٢) له المملكة ، كتب (١٣) [عبد الملك] لنور الدين أن يسلمها إليه ، ويعلمه أن

(١) في الكامل ، (ح / ٩ / ص / ٢٤) أن نور الدين تسلم حمص والرحبة . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، (ح / ١ / ص / ٦٧) . (٣) بالأصل : وشير . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٦٧) . (٤) بالأصل : بقضها . (٥) بالأصل : ويشتري به ما اشترى . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ٦٨) . (٦) بالأصل : أخاه . (٧) بالأصل : واحد . (٨) بالأصل : ووجه . (٩) بالأصل : فاستخضره . (١٠) بالأصل : تسلم . (١١) بالأصل : لا . (١٢) بالأصل : واستمرت . (١٣) بالأصل : كاتب .

خزائن بيت أتاك جميعها في سنجار . فلما بلغ قطب الدين (١) ذلك ، سير إليهما ولاطفهما ودخل لهما في كل ما اقترحا عليه ، وحلفا له بمحض من قاضيا (٢) وأعيان شهودها . واقترح الرسول أن يستصحب معه شمس الدين إلى الموصل فأبى عليه ، وادعى الحياء من قطب الدين لكونه خرج هارباً منه ، فاتفق عند (٣) خروج والده عن سنجار مرحلة ، قدمها نور الدين من حلب في مائتي فارس (٤) ، فنفذ شمس الدين إلى والده المقدم (٥) عبد الملك [من] يعرفه بوصوله ، فخرج ولم يقدر الرسول على منعه (٦) .

وكان شمس الدين عند قدوم نور الدين قد فتح الخزائن ، واختار منها من نفائس الجواهر وأخير (٧) الذخائر ما يعز وجوده ، وكتب إلى نور الدين في تسليم البلد إليه ، على أن لا يطالبه بشيء مما أخذه ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم البلد يوم الإثنين (١١٢ - ب) عاشر رجب ، وحصل ابن المقدم على ما في يده من الذخائر .

ولما بلغ قطب الدين ما اتفق ، بعث وزيره جمال الدين الأصفهاني ليفرغ (٨) ما كان في الخزائن من الأموال والأقشة والجواهر ، ومعه جريدة تتضمن (٩) ذلك المال [وعند لقائه بنور الدين (١٠)] قال له : هذا مال المسلمين ولا يحل لك إطلاق شيء منه . فقال نور الدين : إن كان أخذ شيئاً من مال المسلمين بالغدر ، ففي عنقه .

ثم إن جمال الدين قرر الصلح بين نور الدين وبين أخيه قطب الدين ، على أن يأخذ نور الدين الخزائن التي في سنجار ، ويأخذ الرقة والرحبة وحمص ، ويعطيه سنجار ، وتبقى الرها في يد نور الدين على ما كانت أولاً .

ثم رحل نور الدين وترك نائبه فيها حتى يتسلم البلاد ، وعاد إلى حلب (١١) ، ومعه خزائن سنجار على ستمائة جمل — ما خلا البغال وما فرقة على أولاد الملوك والأمراء — وستة وتسعين (١٢) بغلاً محملة ذهباً (١٣) .

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية

في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، سار نور الدين إلى حصن حارم وهو للفرنج ، فحصره وخرّب (١١٣ - أ) ربضه ونهب سواده .

-
- (١) بالأصل : لقطب الدين . (٢) بالأصل : قاضيا . (٣) بالأصل : على .
 (٤) في ص/٩٥ ، أنه خرج في سبعين فارساً من أكابر دولته . (٥) بالأصل : مقدم .
 (٦) العبارة « خرج ولم يقدر الرسول على منعه » إذا كان المقصود منها ، أن الرسول لم يستطع إعادة والد شمس الدين إلى سنجار ، فإنه ينقضها ما سبق (ص/٩٦) . (٧) بالأصل : وخاير . (٨) بالأصل : ليفرغه .
 (٩) بالأصل : جريدة فـا يتضمن . (١٠) الإضافة من « دي سلين » (ص/١٧٦) .
 (١١) بالأصل : أحلب . (١٢) بالأصل : وتسعون . (١٣) بالأصل : ذهب .

ثم رحل عنه إلى حصن إناب (١) فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إناب فلم ير حل بل لقيهم ، وتصاف الفريقان (٢) واقتتلوا وصبروا ، وظهر (٣) من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه (٤) ما تعجب الناس منه . فانجلى الحرب عن هزيمة الفرنج وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً . وفيمن قتل ، البرنس صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج وذوى التقدم فيهم والملك (٥) .

ولما قتل البرنس خلف ابناً صغيراً وهو يميند ، فبقى مع أمه بأنطاكية ، فتزوجت أمه (٦) بـ برنس آخر ، وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاثل بهم إلى أن يكبر يميند ابن البرنس المقتول .

ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى (٧) ، فلقيه فرسان الفرنج وقاتلوه ، فهزمهم وقتل منهم وأسره ، فكان في الأسرى البرنس الثانى زوج أم يميند ، فلما أسره تملك يميند أنطاكية بلد أبيه وتمسك منه ، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١١٣ — ب) على ما ذكره إن شاء الله تعالى . فأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح وقتل البرنس ؛ فن قال فيه : القيسراني الشاعر ، [في] قصيدته المشهورة التي أولها هذه الآيات (٨) :

هذى العزائم لا ما تدعى القضب	وذى المكارم لاما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت (٩)	تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صاغت يا ابن عماد الدين ذروتها	براحة المساعي دونها تعب
ما زال جدك يبني كل شاهقة	حتى ابنتى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة	قواد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة	أودى بها الصلب وانحطت لها (١٠) الصلب
طهرت أرض الأعدى من دمائمهم	طهارة (١١) كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قاذحة	فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها (١٢)	قوائم خانن الركض والخبب

(١) حصن إناب : في (ياقوت) : بكسرتين وتشديد النون والباء الموحدة . حصن من أعمال عزازمن نواحي حلب .
(٢) بالأصل : الفريقين . (٣) بالأصل : وظهره . (٤) كان نور الدين في نحو الخامسة والثلاثين من عمره فقد كان مولده سنة ٥١١ . (٥) في ابن القلانسي ، (ص/٣٠٥) أن الموقعة كانت في يوم الأربعاء الحادى والعشرين من صفر من السنة . (٦) هي كونستانس ، وقد تزوجت في مقامراً لاسمه «رينودى شانيون» (حبشى : نور الدين والصلبيون ، ص/٨٤) . (٧) لم يحدد ابن الأثير هنا ، ولا في «الكامل» مكان هذه الغزوة . غير أن ابن القلانسي (ص/٣٠٥) ، يذكر أن نور الدين نزل بعد موقعة «إناب» على أنطاكية ، فتم الصلح بينه وبين صاحبها . (٨) بعد هذا اللفظ ، بالأصل ، لفظ : «يقولها» . وقد حذفه المحقق لأنه زائد .
(٩) بالأصل : خطيت . (١٠) بالأصل : بها . (١١) بالأصل : طهارت . (١٢) بالأصل : بها .

والنقع فوق صقال البيض منعقد
 (١١٤- أ) والسيف هام على هام بمعركة
 والنبل كالوبل هطالا وليس له
 وللظبا (١) ظفر حلوا مذاقته
 وللأسنة عما في صدورهم
 من كان يغزو بلاد الشرك مكثسبا
 ذو غرة (٣) ما سمت والليل معتكر
 أفعاله كاسمه في كل حادثة
 كما استقل دخان تحته لهب
 لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
 سوى القسي وأيد فوقها سحب
 كأنما الضرب فيما (٢) بينها ضرب
 مصادر ألقوب تلك أم قلب
 من الملوك فنور الدين محتسب
 إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
 ووجهه نائب عن وصفه اللقب

وهي طويلة جداً . وما قال فيها بعض الشاميين وأنسيت اسمه : (٤)

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته
 وانتاش دين محمد محموده
 ردت على الإسلام عصر شبابه
 أرسى قواعده ومد عماده
 وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا
 وعلا الهدى وتبليجت قسماته
 من بعد ما علت دما عبراته
 وثباته من دونه وثباته
 صعدا وشيد سوره سوراته
 إصلاحه وصلاته وصلاته

(١١٤ - ب) وهي أيضا طويلة .

ذكر ملك حصن (٥) أفامية

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة (٦) ، سار نور الدين إلى حصن أفامية ، وهو للفرنج أيضا ، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة . وهو حصن منيع (٧) على تل مرتفع عال ، من أحسن القلاع وأمنعها . وكان من به من الفرنج (٨) يغيرون (٩) على مدينة حماة وشيزر وينهبونها ، وأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار ، فسار نور الدين إليه وحصره وضيق عليه ، ومنع من به القرار ليلا ونهارا ، وتابع عليهم القتال لينزعهم الاستراحة ، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها ، وساروا نحوهم ليزحوه عنه (١٠) ، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن ، وملاه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال ، وجميع ما يحتاج إليه . فلما

(١) بالأصل : وللظبي . (٢) بالأصل : فيها . (٣) بالأصل : ذو غزمة . (والصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٥٩) . (٤) في ، الروضتين (ح/١/ص/٦٠) ، أنه الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي . (٥) بالأصل : حصين . (٦) في ، الكامل (ح/٩/ص/٢٧) ، أن فتح أفامية كان سنة ٥٤٥ هـ . وما هنا يطابق ما في ، ابن القلانسي (ص/٣٠٥) . (٧) بالأصل : منع . (٨) بالأصل : للفرنج . (٩) بالأصل : يعبرون . (والصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٢) . (١٠) بالأصل : عنها .

بلغه قرب الفرنج منه سار نحوهم، حين رأوا جده (١) في لقاءهم، رجعوا القهقري واجتمعوا إيلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ. ومدحه (٢) الشعراء فأكثروا، فمن ذلك (١١٥ - أ) قول ابن منير (٣) في قصيدته التي أولها :

أسنى الممالك ما أطلت منارها	وجعلت مرهقة الشفار دسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها	رهوف تكنف عدله أقطارها
أدركت ثأرك في البغاة وكنت يا	مختار أمة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سما لها (٤)	منك المعير فاسترد معارها
صارت (٥) نجومك فوقها ولربما	باتت تنافسها (٦) النجوم سرارها
أمت مع الشعري العبور وأصبحت	شعراء تستقلى (٧) الفحول شوارها (٨)

وهي طويلة .

ذكر الحرب بين نور الدين وجوسلين

وانهزام نور الدين رضى الله عنه

في سنة [ست وأربعين وخمسمائة (٩)] سار (١٠) نور الدين إلى بلاد جوسلين، وهي القلاع التي شمال حلب، منها : تل بشار، وعين تاب (١١)، وعزاز (١٢) وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج. وأخذ جوسلين، سلاح دار (١٣)، كان لنور الدين أسيرا وأخذ ما معه من السلاح، فأنفذه (١١٥ - ب) إلى السلطان مسعود بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب قونية (١٤) وأقصر

(١) بالأصل : وجده . (٢) بالأصل : وادمحه . (٣) بالأصل : ابن الرومي . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٢) . (٤) بالأصل : سماكها . (٥) في الروضتين ، (ح/١/ص/٦٣) ضاءت . (٦) بالأصل : تنافسها . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) . (٧) بالأصل : تستغلى . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) . (٨) بالأصل : سوارها . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٦٣) . (٩) بياض بالأصل . (والإضافة من ، الكامل ، ح/٩/ص/٢٩) . (١٠) بالأصل : فيها سار . (وقد حذف المحقق ، اللفظ : فيها ، لأنه زائد) . (١١) عين تاب : في (ياقوت) : قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية ، وكانت تعرف بـ « دلوک » ، و « دلوک » رستاقها . (١٢) عزاز : في (ياقوت) : بفتح أوله وتكرار الزاي ، وربما قيلت بالألف في أولها . بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب ، بينهما يوم . (١٣) السلاح دار . هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذي هو في خدمته . ومن وظيفته أيضاً ، الإشراف على السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك . ولفظ السلاح دار ، مركب من كلمتين ، أولاهما عربية ، ومعناها آلة القتال ، والثانية فارسية ، ومعناها ممسك ، ويكون المعنى ، ممسك السلاح . (السلوك ح/١/ص/٦٥/حاشية ٣) . (١٤) بالأصل : فنية . (والتصحیح من ، الكامل ، ح/٩/ص/٢٩)

وغيرها من تلك الأعمال - وكان نور الدين قد تزوج ابنته - وأرسل مع السلاح إليه يقول : قد أنفذت لك سلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره ، فعظمت هذه الحالة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على جوسلين حتى أسره على ما ذكره .

في ذكر أسر جوسلين ومملك بلاده

لما بلغ نور الدين ما فعله جوسلين من إرسال سلاحه إلى حميه السلطان مسعود ، قام لذلك وقعد ، وهجر الراحة للأخذ بثأره ، وأزكى (١) العيون على جوسلين ، وأحضر جماعة من التركان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال ، إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً أو أسراً ، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصدده ، جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع ، فأخذ إلى أعمال الحيلة . فاتفق أن جوسلين خرج متصيداً متنزهاً في نفر يسير ، فظفر به طائفة من التركان [فأخذوه أسيراً (٢)] فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه (١١٦ - أ) وأجابوه إلى ذلك وأخفوا أمره عن نور الدين ، وأرسل جوسلين في إحضار المال ، فأتى بعض التركان إلى نائب نور الدين بحلب (٣) فأعلمه الحال ، فسير معه عسكرياً أخذوا جوسلين من التركان قهراً ، وكان نور الدين حينئذ بمحمص . وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين ، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها ، وأصبحت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت (٤) المصيبة [عليهم (٥)] بفقدته ، وخلت بلادهم من حامياها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين بعده ، وكان كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهده ، طالما صالحه نور الدين وهادنه ، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقبه غدره ومكره ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله (٦) .

فلما أسر (١١٦ - ب) تيسر ففتح كثير من بلادهم وقلاعهم ففتحها : تل باشر ، وعين تاب ،

(١) بالأصل : واذكي . (٢) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/٧٢) وقد ذكر أبو شامة ، أن سبب أسره ، أنه « خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركان فذهب وسبى ، فاستحسن من السبى امرأة منهم خلا معها تحت شجرة ، فعاجله التركان ، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً » . ويذكر أبو شامة أنه نقل خبر أسر جوسلين من ابن الأثير ، ومعنى هذا ، أن ناسخ المخطوط ، تصرف في الخبر . (٣) هو أبو بكر بن الداية . (الكمال ، ٩/ص/٢٩) . (٤) بالأصل : وعظمة . (٥) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/٧٢) . (٦) في ابن الوردي (٢/ص/٥١) أن جوسلين بذل نور الدين أموالاً لا تحصى لإطلاق سراحه ، فاستشار نور الدين أمراءه في ذلك فلم يوافقوا على إطلاقه ، فخالفهم وأطلقه ، فمات قبل أن يخرج من الشام (أى من حلب) وانتفع المسلمون ، وعد ذلك من كرامات نور الدين .

وإعزاز ، وقورس (١) ، والراوندان (٢) ، وحصن البارة (٣) ، وتل خالد (٤) ، وكفر لاثا (٥) ، وكفر سوت (٦) ، وحصن بسر فوث (٧) بجبل بنى عليم ، ودلوك (٨) ، ومرعش (٩) ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص (١٠) . وكان نور الدين ، رحمه الله تعالى ، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين ، خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين ، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة إلى شيء .

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثرُوا ، فمن ذلك قول القيسراني من قصيدة ، أولها هذه الأبيات حيث يقول :

دعا ما لدعى (١١) من غره النهى والأمر	فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت (١٢) الدنيا إليه عنانها	تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
كما أهدت الأقدار للقمص أسره	وأسعد قرن من حواه (١٣) لك الأسر
طغى وبغى عدواً على غلوائه	فأوثقه الكفران ، عدواه (١٤) والكفر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة	تشق (١٥) على النسرين لو أنها وكر
(١١٧-أ) فسر واملاً (١٦) الدنيا ضياء وبهجة	فبالألق الداجي إلى ذا السنافر (١٧)
كأنى بهذا العزم لا فل حده	وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً	وليس سوى جارى الدماء له طهر

- (١) قورس : بينها وبين حلب يوم (الاصطخري، ص/٤٩) .
 قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة ، من نواحي حلب .
 (٢) الراوندان : في (ياقوت) :
 (٣) بالأصل : حصن الباده . والبارة ، كما في (ياقوت) : بليدة وكورة من نواحي حلب ، وفيها حصن ، وهى ذات بساتين ، ويسمونها زاوية البارة .
 (٤) تل خالد : : في (ياقوت) : قلعة من نواحي حلب .
 (٥) كفر لاثا : في (ياقوت) :
 بالناء المثلثة والقصر . بلدة ذات جامع ومنبر ، في سفح جبل عال من نواحي حلب ، بينهما يوم واحد ، وهى ذات بساتين ومياه جارية زهية طيبة ، وأهلها إسماعيلية .
 (٦) كفر سوت : بالأصل كفر سود (والتصحيح من ، ياقوت) . بضم الدين ثم واو وآخره ناء مثناة ، من أعمال حلب الآن (أى في زمن ياقوت) قرب بهسنا . بلد فيه أسواق حسنة عامرة .
 (٧) حصن بسر فوث : بالأصل : سرفوت . (والتصحيح من ، ياقوت) ، وهو حصن من أعمال حلب في جبال بنى عليم .
 (٨) دلوك : في (ياقوت) : بضم أوله وآخره كاف . بليدة من نواحي حلب بالعواصم .
 (٩) مرعش : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة . مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم ، ولها سوران وخنق ، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالرواني ، بناه الخليفة مروان بن محمد ، المعروف بمروان الحمار .
 (١٠) برج الرصاص : في (ياقوت) : قلعة ولها رساتيق ، من أعمال حلب قرب أنطاكية .
 (١١) بالأصل : ادعا .
 (١٢) بالأصل : بنت .
 (١٣) بالأصل : جواه .
 (١٤) بالأصل : عدواه .
 (١٥) بالأصل : يشق .
 (١٦) بالأصل : واملك .
 (١٧) بالأصل : قفر . (والتصحيح من ، الروضتين ،
 ١/ص/٧٣) .
 ١/ص/٧٣) .

وقال بعض الشاميين (١) أيضاً في هذا المعنى ، هذه الآيات :

هيهات يعصم من أردت (٢) حذار	أنى ومن أوهالك الأقسار
همم تحملك كل يوم رتبة	تسرى (٣) فيصبح دونها الأقرار
ومطامح في العز إذ هي صوبت	فلهن في الفلك الأثير قرار
طلعت عليك بجوسلين ذريعة	لا سجل أنشاها (٤) ولا إمرار
وسعادة ما زلت تمرى (٥) خلفها	فيشف وهو النائق (٦) المدرار
فأرتك ما يجنى الوفى وفاؤه	وأرته كيف يحين (٧) الغدار

وهي طويلة .

ذكر المصاف بين نور الدين والإفرنج بدلوك

لما سار نور الدين إلى قلاع جوسلين ليمتلكها ، ملك بعضاً وبقي بعض (١١٧ - ب) فاجتمعت الفرنج وسارت نحو الباقي لتمعنه (٨) منه ، وظنوا أنه يمتنع باجتماعهم ولا يقدم عليهم في عقر ديارهم ، فلما بلغه خبرهم سار إليهم ، وصمم العزم على لقاءهم ، فالتقوا بدلوك واقتتلوا ، وكان بين الطائفتين حرب يشيب لها الوليد ، ففتح الله المسلمين أكتاف الفرنج ، فهزموهم هزيمة أنت على كثير منهم وسلم الباقيون ، واستولى نور الدين على دلوك وغيرها . وفي ذكرها وذكر غيرها قال بعض الشعراء الشاميين (٩) قصيدة فيها :

أعدت بعصرك هذا الأنيق (١٠)	فتوح النبي وأعصارها
فواطأت يا حبذا (١١) أحديها (١٢)	وأسررت (١٣) من بدر (١٤) أنوارها (١٥)
وكان مهاجرها تابعيك	وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إسلام سلبانها (١٦)	وعمر جدك عمارها

(١) هو أحمد بن منير الشاعر . (الروضتين ، ح/١/ص/٧٥) . (٢) بالأصل : ارغت . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٧٥) . (٣) بالأصل : يسرى . (٤) بالأصل : أنساها . (٥) بالأصل : تمرى ، (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٧٥) . (٦) بالأصل : النائق . (٧) بالأصل : محين . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٧٥) . (٨) بالأصل : لتمعنه . (٩) هو أحمد بن منير الشاعر . (الروضتين ، ح/١/ص/٧٦) . (١٠) بالأصل : الايق . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/٧٦) . (١١) بالأصل : تاجيد . (١٢) الإشارة هنا إلى غزوة أحد . (١٣) بالأصل . واسرت . (١٤) الإشارة هنا ، إلى غزوة بدر . (١٥) بالأصل : ايدارها . (١٦) الإشارة هنا إلى الصغاني المشهور ، سلمان الفارسي .

وما يوم إنب إلا كتيك (١) بل طال بالبوع أشبارها
 وأيامك الغر من بعده تعيد إلى الطي أغرارها
 (١١٨ - أ) ويوم على الجون جون السراة عز فسعطها عارها
 صدمت عريمتها صدمة أذابت مع الماء أحجارها
 فصبحت بالخمس أحفاضها ومسيت بالخمس أبكارها
 وفي تل باشر باشرتهم بزحف تسور أسوارها
 وإن دالكتم دلوك فقد شددت فصدقت أخبارها

ذكر وفاة السلطان مسعود بن محمد بن السلطان

ملكشاه السلجوقي بهمدان

في سنة سبع (٢) وأربعين وخمسمائة ، توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمدان . وكان مرضه حى حادة نحو أسبوع ، وعهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود وخطب (٣) له ببلاد الجبل .

وكان الغالب على البلاد والعساكر في أيام السلطان مسعود خاصبك (٤) بن بلنكرى ، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه ، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن السلطان محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له (١١٨ - ب) بالسلطنة ، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً ، ويخلو وجهه من منازع من السلجقية ، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه . فلما كاتب محمد أجابه إلى الحضور عنده ، وسار إليه وهو بهمدان واجتمع به ، وخدمه خاصبك خدمة عظيمة وحمل إليه التحف الكثيرة ، فلما كان الغد من يوم وصول الملك محمد ، دخل إليه خاصبك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه ففترقوا ، واستقر محمد وثبت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها ، وكان قتله سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقتل معه زنكى الجاندار . وبقي خاصبك مطروحاً حتى أكلته الكلاب .

وكان ابتداء حاله ، أنه كان من أولاد بعض التركان ، فخدم السلطان فقال إليه وقدمه حتى

(١) بالأصل : كتيك . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/٧٦) .

(٢) بالأصل : سنة أربع . (والتصحيح من ، الكامل ، ٩/ص/٣١) . (٣) بالأصل : وخوطب .

(٤) بالأصل : خاصبك . (والتصحيح من ، تاريخ دولة آل سلجوق ، ١٨٠/ص) . وابن الأثير يرسم الاسم

في الكامل (٩/ص/٣٢) خاص بك .

فاق سائر الأمراء ، فتقدم (١) تقدماً عظيماً ، واستولى على أكثر البلاد . وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود ، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتباعه ، لما كان يعاملهم به من الهوان (١١٩ — أ) والتكبر عليهم .

وفيها ، أعنى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وصل إلى الموصل الأمير إياز قفجاق — وهو من أكابر أمراء العجم — شاكياً من شمس الدين إيلدكز ، ومستغيثاً عليه ومستشفعاً إليه ، وإنجاده (٢) بعساكر يفتح بها ما بيده من البلاد ، فجهزت العساكر معه ، وجعل مقدمها الأمير قراجة تجنه ، مقطوع بلد الهكارية ، فوصلوا إلى سلخاس وأقاموا معه وأصلحوا حاله معه إيلدكز ، وهو صاحب تلك البلاد جميعها ، وكان هذا قبل أن يستولى على همذان وأصفهان وسائر بلاد الجبل . وفيها توفي حسام الدين تمر تاش صاحب ماردين ، وولى بعده ابنه نجم الدين ألبى .

في ذكر ملك نور الدين دمشق

في سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ملك نور الدين مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد بن بوري (٣) بن طغتكين أتابك . وكان الذي حمل نور الدين على الجند في ملكها ، أن الفرنج ملكوا في السنة الحالية مدينة عسقلان (١١٩ — ب) وهي مدينة فلسطين حسناً (٤) وحصانة ، ولما كانوا يحصرونها ، كان نور الدين يتلف [عليها] ولا يقدر على إزعاجهم عنها ، لأن دمشق في طريقه ، وليس له طريق على غيرها لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط ، فقوى الفرنج بها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها والنهب والسبي ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويحببها من أهل البلد . ثم اشتد (٥) البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ممن أخذ من سائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند (٦) مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار (٧) إليه ، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم يقال له مؤيد [الدين (٨)] ابن الصوفي . فلما كانت (١٢٠ — أ) الأمور بها هكذا ، خاف أهلها وأشفقوا من العدو ، فجأروا (٩) إلى الله تعالى ودعوه في أن يكشف ما بهم من الخوف ، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم

(١) بالأصل : فتقدم . (٢) بالأصل : وإنجاده . (٣) بالأصل : نوري . (٤) والتصحیح من ، الكامل ، ٩/ص ٤٥ . (٥) بالأصل : أشد . (٦) بالأصل : وعند . (٧) بالأصل : صار . (٨) الإضافة من ، ابن القلانسی (ص ٣٢٩) . (٩) في الروضتين (٩٥/ص ١) فلجأوا .

مما هم فيه على يد أحب عباده إليه ، وأحسنهم طريقة ، وأمثلهم سيرة ، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود ، فحسن له السعى في ملك البلد وألقاه في روعه . فلما خطر له ذلك أفكر فيه فلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه ، لأن صاحبه كان متى رأى شيئاً من ذلك ، راسل الفرنج واستمالهم واستعان بهم . وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعقلهم وليست له فكيف إذا [أخذهاو (١)] قوى بها . وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين ، فإن الدم كان عنده عظيماً لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل ، فلما رأى الحال هكذا عدل إلى أعمال الحيلة ، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله ، وواصله بالهدايا وأظهر له المودة (١٢٠ - ب) حتى وثق إليه ، ثم صار يكتبه في بعض الأوقات ويقول له [إن] فلاناً — ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين — قد كاتبني في الخامرة عليك فأحذره ، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم ، وتارة يقبض عليه . فلما خلت دمشق من الأمراء ، قدم أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم (٢) ، وكان شهماً شجاعاً ، وفوض إليه أمر دولته ، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه ، فقبض عليه مجير الدين وقتله ، فقال له عند قتله : إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني ، واستبقني فإنه سيظهر لك ما أقول ، فلم يصنع إلى قوله وقتله . فلما قتل [عطاء] قوى طمع نور الدين في البلد ، فراسل أحداث البلد (٣) وزناطرتة (٤) واستمالهم ، فأجابوه إلى تسليم البلد . فسار إليهم وحصرهم عدة (٥) أيام ، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، وإلى أن جمعوا وجاءوا ، بلغهم أخذ نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين .

(١٢١ - أ) وأما نور الدين فإنه لما حصر البلد وضيق على من به ، ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلخوا إليه البلد من الباب الشرقي ، فدخله بالأمان عاشر صفر . وحصر مجير الدين في القلعة ، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير ، من جملته مدينة حمص ، فأجاب إلى تسليم القلعة ، فسلمها إليه وسار إلى حمص .

ولما استقر نور الدين في البلد ، عمل مع أهله مكرمة عظيمة ، وأظهر فيهم عدلاً عاماً سيرد ذكره سنة تسع وستين ، عند [ذكر] سيرة نور الدين رحمه الله تعالى . وألقى الإسلام (٦) بدمشق

(١) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص ٩٥) . (٢) بالأصل : الخادم . (والتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص ٤٦) . (٣) الأحداث : رجال الشرطة المكلفون بإخضاع الفتن والاضطرابات وعقاب مثري الشعب : أو هم رجال الحرس الإقليمي في العصور الوسطى . (الروضتين ح/١/ق/١/ص ٨٥/حاشية ٤) . نقلاً عن : Dozy, Supp. Dict. Ar : Reinud, J. A. 1848, II, 281 . (٤) بالأصل : وزناطرتيه . (والتصحيح من ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩) ، والزناطرة : طبقة معينة من سكان المدن مولعة بتجريك الفتن والقتل . (المصدر السابق ، ص ٨٥/حاشية ٥) . نقلاً عن : Dozy, Supp. Dict. Ar : (٥) في الروضتين (ح/١/ص ٩٦) : عشرة أيام . (٦) بالأصل : إلا الإسلام .

جرانه ، وثبت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين .

وأما مجير الدين فإنه أقام بجمص ، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة ، فأنهى الأمر إلى نور الدين ، يخاف أن يحدث ما يشق تلافيه بل ربما تعذر ، لا سيما مع مجاورة الفرنج ، فأخذ حصص من مجير الدين وعوضه عنها مدينة بالس فلم يرضها ، وسار عن (١٢١ - ب) الشام إلى العراق ، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاوز (١) المدرسة النظامية وتوفى بها .

ذكر القبض على سليمان [شاه] وحمله إلى الموصل

في جمادى الأولى من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، قبض زين الدين [على كوجك (٢)] نائب أتابك قطب الدين مودود ، على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد وحمله إلى الموصل فسيجنه بها . وسبب ذلك أن سليمان شاه إستأذن الإمام المقتنى لأمر الله في قصد خدمته . وسأل أن يشرفه (٣) ويخطب له ويمده (٤) بالعساكر ليقصد بلاد الملك محمد ابن أخيه السلطان محمود ، فأجيب إلى ذلك وأذن له ، فسار إلى بغداد فوصل إليها في المحرم سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وأحضر بدار الخلافة ، وجمع النقباء والقضاة والشهود ، وحلف سليمان شاه للخليفة على قواعد استقرت بينهما ، وخطب له ببغداد في المحرم ، ولقبه شاهنشاه المعظم غياث الدنيا والدين ، وخلع عليه الخليفة وعلى الأمير قويدان [وجعل الأمير قويدان ، صاحب الحلة أمير حاجب معه (٥)] وسار نحو [بلاد (٥)] الجبل عازماً على قصد بلاد الملك محمد ، وخرج الخليفة (١٢٢ - أ) إلى حلوان ، وأرسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخى سليمان شاه واستدعاه ، فحضر ومعه (٦) ألفا فارس فقرر الخليفة القواعد بينه وبين سليمان شاه ، وحلف كل واحد منهما للآخر ، وسيرهما في العساكر وقواهما بالأموال والعدد .

وبلغ الخبر إلى الملك محمد ، فجمع عساكره ولقى سليمان شاه وملكشاه بقرب همدان وتصافوا ، فأنهزم سليمان شاه وملكشاه ، وظفر الملك محمد بعسكرهما وما معهما وعادوا منهزمين إلى بغداد .

وأما سليمان شاه فإنه سار على شهر زور قاصداً نحو بغداد ، وكان الملك محمد قد أرسل [إلى] أتابك قطب الدين وزين الدين واستمالهما فأجاباه إلى موافقته ، وسار زين الدين نجدة له في عسكر كثير ، فبلغه خبر الهزيمة وأن سليمان شاه قد سار على شهر زور ، وهى لزين الدين ونائبه بها

(١) بالأصل : محاول . (٢) الإضافة من ، الكامل (٤٨ / ص / ٩ / ح) . (٣) بالأصل : يشرف . (٤) بالأصل : ويمد . (٥) الإضافة من ، الكامل (٤٩ / ص / ٩ / ح) . (٦) بالأصل :

الأمير بوزان ، فوقف زين الدين على طريقه ، فلما وصل إليه أخذه وقبض عليه ، وحمله إلى الموصل فحبسه بها مكرماً معظماً ، وكانت الخطبة له ببغداد .

في ذكر حصر نور (١٢٢ - ب) الدين قلعة حارم

في هذه السنة ، سار الملك العادل نور الدين محمود إلى قلعة حارم ، وهي للفرنجة ثم لبيمنند صاحب أنطاكية فحصرها — وهذا الحصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية — وضيق على أهلها ، وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين ، فاجتمعت الفرنجة من قرب منها وبعد ، وساروا نحوه لمنعه . وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنجة يعرفون عقله وحسنه ، وحسن رأيه ، ويرجعون إلى قوله ، فأرسل إليهم يعرفهم قوتهم ، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة ، ويشير عليهم بالمطاوله وترك اللقاء . وقال لهم : إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها ، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه . ففعلوا ما أمرهم به وأشار عليهم ، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصنة من أعمال حارم ، فأبى أن يجيبهم إلا على مناصفة الولاية ، فأجابوه إلى ذلك ، فصالحهم وعاد ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء (١) ، من أبيات له يقول فيها (٢) : شعر .

(١٢٣ - أ) ألبست دين محمد يا نوره	عزا له فوق السها إسداد
مازلت تمسكته بمناد القنا (٣)	حتى تشفق عوده المناد
لم يبق مذ أرهقت (٤) عزمك دونه	عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تسكلم	حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة	فلهم إلى المرعى (٥) الوبي معاد
ملق بأطراف الفرنجة كل كلال (٦)	طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى	حاموا برائش (٧) كيدهم أوكادوا
ورأى البرنس (٨) وقد تبرنس ذلة	حرما بجارم (٩) والمصاد مصاد
عجبا لقوم حاولوك وحاولوا	عودا فواتهم إليه مراد
من (١٠) متكرأن ينسف السيل الربى	وأبوه ذاك العارض المداد

(١) في الروضتين (ح / ١ / ص / ١٠١) ، أنه أحمد بن منير الطرابلسي .
 (٢) بالأصل : الفتى . (٤) بالأصل : ارهقت . (٥) بالأصل : المراعى . (٦) بالأصل : كل كلال .
 (٧) بالأصل : خاموا فرايس . (والنصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٠١) . (٨) بالأصل : الرئيس .
 (والنصحيح من ، الروضتين ، ح / ١ / ص / ١٠١) . (٩) بالأصل : لحارم . (١٠) بالأصل : في .

أو أن يعيد (١) الشمس كاسفة السنة نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما سمكوا من الـ علياء حتى ترفع الأولاد
وهي طويلة .

في ذكر الزلزلة التي (٢) جرت في الشام ونواحيها

في سنة اثنين (٣) وخمسين وخمسة ، كان بالشام زلزلة شديدة (١٢٣ - ب) ذات رجفات
عظيمة متتابعة ، أخرجت البلاد وأهلكت العباد . وكان أشدها بحماة وحصن شيزر (٤) ، فإنهما
خربتا بكرة . وكذلك ماجاورهما حصن (٥) بارين ، والمعرة وغيرها من البلاد والقرايا . وهلك
تحت الهدم من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع . ولولا أن
الله من على المسلمين بنور الدين ، جمع العساكر وحفظ البلاد ، وإلا كان دخلها الفرنج بغير قتال
ولا حصار .

ولقد بلغني من كثرة الهلكى ، أن بعض المعلمين بحماة ، ذكر أنه فارق المكتب لمهم عرض له ،
بجاءت الزلزلة فأخرجت الدور ، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم . قال المعلم : فلم يأت أحد يسأل
عن صبي كان له في المكتب ، وأشبه هذه الحكاية من الأخبار الدالة على أن كثرة الهلكى كثيرة جداً .

ذكر ملك نور الدين المرحوم حصن شيزر

نبتدىء بذكر حصن شيزر ولمن كان قبل هذا الوقت الذى ملكه نور (١٢٤ - أ) الدين فيه ،
فنقول : هذا الحصن قريب من حماة ، بينهما نحو نصف نهار ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها ، على
حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل ، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من
خشب ، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه ، وكان لآل منقذ الكنتانيين (٦) ، يتوارثونه من أيام
صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرفف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ
ابن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن على ، فبقى به مدة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى
وتسعين وأربعمائه . وكان شجاعاً كريماً صواماً قواماً ، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير
أبا سلامة مرشد بن علي ، فقال : [والله (٧)] لا وليتها ولا أخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وكان عالماً
بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح ، فولأها أخاه الآخر أبا العساكر (٨) سلطان بن علي ، وكان أصغر
منه ، فاصطحبها أجمل صحبة مدة من الزمان ، فأولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور (٩) ، فكبروا

(١) بالأصل : يعيد . (٢) بالأصل : الذى . (٣) بالأصل : اثنين . (٤) بالأصل : وحصن شيزر .
(والصحيح من ، الروضتين ، ١/ص ١٠٥) . (٥) بالأصل : حصن . (٦) بالأصل : الكنتانيين .
(٧) الإضافة من ، الروضتين (١/ص ١١١) . (٨) بالأصل : بالعسكر . (والصحيح من ،
الروضتين ، ١/ص ١١٢) . (٩) بالأصل : ذكوره .

وسادوا ، منهم : عز الدولة أبو الحسن (١٢٤ - ب) على ، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما ، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر ، فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك ، وكان كلما رأى صغرا (١) أولاده وكبرا أولاد أخيه وسيادتهم ، ساءه ذلك وخافهم على أولاده ، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعرا يعاتبه على أشياء بلغته [عنه فأجابه (٢)] بأبيات جيدة في معناها ، رأيت إثبات بعضها ، وهى هذه الأبيات ، شعر :

ظلم أبت في الظلم إلا تماديا	وفي الصد والهجران إلا تناهيا
شكت هجرنا في ذلك والذنب ذنبها	فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين في وطالما	عصيت عدولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه (٣) الجمال إلى القلى	وهيات أن أمسى لها الدهر قاليا (٤)
ولا ناسيا ما أودعت من عهدها	وإن هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتانى من قريضك جوهر	جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حيناً لأنه	تولى برغى حين ولى شبائيا
(١٢٥-أ) وأين من الستين (٥) لفظ مفوف	إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى	ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيم (٦) مالم أكلفه فعله	لنفسى فقد أعددت من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى (٧)	وثلم (٨) منى صارما كان ماضيا
تكررت حتى صار برك قسوة	وقربك منهم جفوة وتنائيا (٩)
فأصبحت صفر الكف مارجوته	أرى اليأس قد عفى سبيل (١٠) رجائيا
على أننى ما حلت عما عهدته	ولا غيرت هذى السنون وداديا
فلا غرو عند الحادثات فإننى	أراك يمينى والأنا م (١١) شماليا
تهن بها عذراء لوقرت بها	نجوم سماء (١٢) لم تعد دراريا
تحملت بدر من صفاتك زانها	كما زان منظوم الآتى الغوانيا
وعش بانيا للوجود ما كان واهيا	مشيدا من الإحسان ما كان هاويا

- (١) بالأصل : اصغر . (٢) الإضافة من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢ . (٣) بالأصل : بهايته . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٤) بالأصل : قاليا . (٥) بالأصل : السين . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٦) بالأصل : وبجرهم . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٧) بالأصل : صعدتى . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٨) بالأصل : قلم . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (٩) بالأصل : وثائيا . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١٠) بالأصل : سبيل . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١١) بالأصل : والأيام . (والتصحیح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١١٢) . (١٢) بالأصل : السماء .

وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر ، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن (١) ، وبادهام (٢) بما يسوءهم (١٢٥ - ب) ، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قوى عليهم فأخرجهم من شيزر . وكان أعظم الأسباب في إخراجهم ، ما حدثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ، قال : كنت من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس ، فبينما أنا بشيزر ، وإذا قد أتاني إنسان ، فأخبرني أن بدجلة ، يقاربها ، أسداً ضارياً . قال : فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله ، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أمتع من ذلك ، فلما قربت من الأسد ، نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه ، فلما رأيته قصدني ووثب علي ، فضربته بالسيف على رأسه فانفلق ، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت إلى شيزر ، ودخلت على والدتي (٣) وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال ، فقالت : يا بني تجهز للخروج من شيزر ، فوالله لا يمكنك عملك من المقام ولا أحداً من إخوانك ، وأتم على هذه الأحوال من الإقدام والجرامة . فلما كان الغد وإذا قد أمر عمي بإخراجنا من عنده ، وإلزامنا به إلزاماً لا مهلة [فيه] فتفرقنا في (١٢٦ - أ) البلاد ، فقصدوا الملك العادل نور الدين ، وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الكفار ، وخوفه من أن يسلم شيزر إلى الفرنج ، وبقي في نفسه منه أثر . وتوفي الأمير سلطان وولى بعده أولاده ، فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج ، فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة لم يسلم منها أحد كان في الحصن ، فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده ، وعمرها وعمر أسوارها وأعادها كأن لم تحرب . وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت .

ذكر وفاة عز الدين الديبسي وحصر الجزيرة

في ذي الحجة من سنة اثنتين (٤) وخمسين وخمسمائة ، توفي الأمير عز الدين أبو بكر الديبسي صاحب جزيرة ابن عمر ، فسار قطب الدين أتابك مودود ابن (٥) الشهيد إليها ، ظناً منه [أنها] لا تمتنع عليه ، لأنها كانت بيد الديبسي إقطاعاً منه ، فلما وصل إليها رأى [أنه] قد (١٢٦ - ب) تغلب عليها مملوك للديبسي اسمه أغليك ، وقد أطاعه الجند وامتنعوا بالمدينة ، وكان الديبسي لم يخلف ولداً ، فلهمذا تغلب أغليك بعده . وأقام أتابك قطب الدين محاصراً للمدينة عدة شهور لأنه لم ير أن يضع من قدرها بالإسراع في ملكها ، ثم تسلمها (٦) وترك بيد أغليك القلاع المختصة

(٣) بالأصل : والدي .

(٦) في السكامل

(٢) بالأصل : وناداهم .

(٥) بالأصل : وابن .

(١) بالأصل : المجن .

(٤) بالأصل : اثنين .

(٦/٩/ص/٥٥) أنه تسلمها في شهر صفر سنة ٥٥٣ .

بها وهى : كواشى (١)، والزعفران ، وفرح ، وجميع قلاع الزوزان وغيرها . وعاد أتابك إلى الموصل بعد الإستيلاء على الجزيرة ، وكانا لديسى من أكابر الأمراء ، يأخذ نفسه مأخذ الملوك . حكى لى والدى . إنه لم يضع علامته على إطلاق (٢) مال أبداً قل أم كثر . وكان عاقلاً حازماً ، ذا رأى وكيد ومكر .

ذكر حصار الملك محمد وزين الدين دار السلام بغداد

فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، سار الملك محمد بن السلطان محمود إلى بغداد ليحصرها ، وأرسل إلى أتابك قطب الدين يستمده ، ويطلب منه أن ينجده بإرسال العساكر . فجهز إليه عسكراً كثيفاً ، وجعل مقدمه زين الدين نائبه (١٢٧ — أ) فى جميع بلاده وسيرهم إليه . واجتمعوا بالملك محمد بنواحي حربى (٣)، وساروا فى الجانب الغربى إلى بغداد فوصلوها فى ذى القعدة . وبلغ الخبر إلى المقتدى لأمر الله ، فأمر بإخرا ب قصر عيسى ، والمربعة ، والقرية ، والمستجدة ، والنجمى ونهب أصحابه ما وجدوا فى الدور من الأموال والآثاث وغير ذلك ، وخرب عسكر الملك محمد نهر القلائين ، وألتوثة ، وباب الميدان ، وقطفتا (٤) ، ولم يتعرض أحد للسرخ وباب البصرة ، وخرج أهلها (٥) إلى العسكر فاتجروا وكسبوا معهم الأموال الكثيرة . وجد المقتدى لأمر الله فى حفظ بغداد وجمع الغلات ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة فى هذا الأمر المقام الذى يعجز عنه غيره .

ولما وصل العسكر إلى بغداد نصبوا جسراً على دجلة ، وعبراً كثر العسكر إلى الجانب الشرقى وأقام زين الدين وعسكر أتابك قطب الدين بالجانب الغربى ، نازلين تحت الصراة ، وكان القتال فى الماء على باب البلد ، ولم يقتل بين الفريقين إلا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيراً . وأمر المقتدى لأمر الله فنودى ببغداد : [كل] من جرح (١٢٧ — ب) فله خمسة (٦) دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه . فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحاً ، فقال له الوزير : هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً . فعاد إلى القتال فضر ب فى جوفه فخر جت أمعاؤه ، فعاد إلى الوزير وقال له : يامولانا الوزير : يرضيك هذا . فضحك منه ، وأمر له بصلة وأحضر من عاجله .

(١) كواشى : فى (ياقوت) : الكواشى ، بالفتح وشين معجمة . قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرق الموصل ، ليس إليها طريق إلا لرجل واحد . وكانت قديماً تسمى « أردمشت » . وكواشى ، لى لها محدث . (٢) بالأصل : الإطلاق . (٣) لعلها « الحربية » الواردة فى الاصطغرى (ص/٥٨) . وهى إحدى القطائع التى بناها الخليفة المنصور العباسى (١٣٦ — ١٥٨ هـ) حول بغداد ، لحاشيته ومواليه وأتباعه . (٤) بالأصل : وقطيناً . (٥) بالتصحيح من ، الكامل ، ح/٩/ص/٥١ . (٦) بالأصل : خمس .

ولم يزل الخليفة يرسل زين الدين ويستميله ، إلى أن تغيرت نيته في القتال ، وثبط الملك محمد عنه أيضاً (١) ، وكانت كتب الخليفة ورسله ، صادرة إلى جميع أصحاب الأطراف المجاورين للملك محمد ، يحثهم على قصد بلاده ، وأقطع كل صاحب طرف ما يليه منها ، فتحرك أصحاب الأطراف . وكان قد طال المقام على بغداد ولم ينل [الملك محمد] منها غرضاً ولا غلابها سعر ، لأن الوزير كان يعطى الأجناد الغلات عوض الأموال ، فيبيعونها لينفقوا ثمنها ، فكانت (٢) الأسعار لا تزال رخيصة بهذا السبب .

ثم إن الخبر وصل إلى الملك محمد ، بأن أخاه ملكشاه قد قصد همدان ودخلها في عسكر (١٢٨ - أ) كثير ونهبها ، وأخذ نساء الأمراء الذين معه وأولادهم فاختلف العسكر وتفرقوا ، وعاد الملك محمد نحو همدان ، وعسكر الموصل مع زين الدين نحو الموصل ، وعاد كل أمير إلى بلاده على عزم العود إلى بغداد ، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر والمنقطعين ، وشعثوا دار السلطان .

ذكر وفاة المقتدي لأمر الله وخلافة ابنه المستنجد بالله

[في] ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، توفي أمير المؤمنين المقتدي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله بعلية التراقي . وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة . وأمه أم ولد تدعى ياغى . وكانت خلافته أربعا (٣) وعشرين سنة وشهرين (٤) . ولما توفي جددت البيعة لولده أبي المظفر يوسف ولقب المستنجد بالله ، وكان قد عهد إليه قبل وفاته ، وبايعه الأمراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وأعيان الناس . وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة له فلم يمتنع أحد من ذلك . وأقر عون الدين بن هبيرة على وزارته .

(١٢٨ - ب) في ذكره مسير سليمان شاه إلى همدان

في أوائل سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وردت رسل الأمراء الأكبر من بلاد الجبل إلى أتابك قطب الدين ، يطلبون منه إنفاذ الملك سليمان شاه بن محمد إليهم ليولوه السلطنة ، وترددت

(١) في الكامل (٥١/ص/٩/ح) : « وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين في القتال لأجل الخليفة والمسلمين ، وقيل لأن نور الدين محمود بن زنكي — وهو أخو قطب الدين صاحب الموصل الأكبر — أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتر وأقصر » .
(٢) بالأصل : فكان .
(٣) بالأصل : أربع . (٤) في الكامل (٦٨/ص/٩/ح) ، وثلاثة أشهر وستة عشر يوما والصواب ، شهرين وخمسة عشر يوما ، لأنه يوبع بالخلافة في ١٨ ذى الحجة سنة ٥٣٠ . (الكامل ، ٨/ص/٣٥٥) .

الرسول في ذلك حتى استقر الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً ، وقطب الدين أتابكه والمرجع إليه في جميع مملكته ، وجمال الدين وزيره ، وزين الدين مقدم عسكره . وتحالفوا على هذا وجهاز سليمان شاه ، وحمل إليه أتابك قطب الدين من الأموال والثياب والخيل والآلات ما يصلح للسلطين ، وسار ومعه زين الدين في عسكر الموصل نحو همدان ، فلما قاربوا بلاد الجبل ، أقبلت العساكر إلى خدمة سليمان شاه أرسلالاً (١) ، كل يوم يلقاه طائفة وأمير ، فاجتمع معه عسكر عظيم ، فخافهم زين الدين على نفسه وعلى الموصل أيضاً ، لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للأدب ما أوجب الخوف ، فعاد عنه إلى الموصل . فحين فارقه (١٢٩ - أ) زين الدين لم ينتظم أمره ولم يتم له ما أراد . حكى لي والدي قال : استدعاني جمال الدين الوزير بعد مسير سليمان شاه وقال : قد استقر الأمر كيت وكيت ، فنعود إلى الجزيرة وتقطع علائقك وتقضى أشغالك ، فإنني أريد أن أجعلك نائبي بالعراق . قال : فسرني [ذلك] من وجه وسأني من آخر ، إلا أنني لم أر من طاعته بدأ . قال : ثم استدعاني بعد ذلك ، وقال لي : عد إلى بلدك ، فإن سليمان شاه لم ينتظم حاله ففارقته (٢) وعدت .

وفيها أعني سنة خمس وخمسين ، حج (٣) زين الدين نائب قطب الدين ، وحذره أصحابه من الحج لأجل مساعدته (٤) الملك محمد في حصر بغداد ، فلم يلتفت إلى قولهم وسار . فلما وصل بغداد أكرمه [الخليفة] المستنجد [بالله] ، واجتمع به وأمر بالخلع عليه ، فلما لبس الخلعة كانت طويلة — وكان هو قصيراً جداً — فمد يده إلى كمرانه وأخرج ما شد به وسطه وقصر الجبة ، فنظر المستنجد إليه فاستحسن ذلك منه ، وقال لمن عنده : مثل هذا يكون الأمير والجندي لأملاككم . فلما دخل عليه (١٢٩ - ب) قبل يده ، ثم خرج من عنده بعد أن حادثه بالتركية — وكان المستنجد بالله يتكلم بها جيداً — فلما خرج نظر إليه المستنجد من شباك ، [وكان زين الدين] قد أخرج شيئاً من السيف الذي أنعم به عليه من الديوان ، فلم يره جيداً وهو يوميء برأسه — يعني أنه غير جيد — فأرسل إليه سيفاً آخر ، وقال الرسول : يقول لك أمير المؤمنين ، ذاك السيف يترك ، وهذا يقاتل به أعداء أمير المؤمنين وأعداء المسلمين . فرد وجهه وقبل الأرض وتقلده . وأحسن إلى الناس في الطريق ، وأكثر الصدقات .

(١) بالأصل : دارسالا .

(٢) بالأصل : مساعدته .

(٣) بالأصل : حجى .

(٤) بالأصل : ففارقته .

في حصر نور الدين قلعة حارم

في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، جمع نور الدين العساكر بحلب ، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجد في قتلها ، فامتنت عليه لخصاتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم . فلما علم الفرنج خبرها ، جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا ، وأعدوا واستعدوا ، وساروا نحوه ليرحلوه عنها . فلما قاربوه طلب منهم (١٣٠ - أ) المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك ، وراسلوه وتلطفوا الحال معه . فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده .

ومن كان معه في هذه الغزوة ، الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ - وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها - فلما عاد إلى حلب ، دخل مسجد سيرين (١) - وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج - فلما دخله الآن ، كتب على حائطه ، يقول ، شعر :

لك الحمد يامولاي كم لك منة	علي وفضل لا يحيط به (٢) شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً (٣)	من الغزو وفور النصيب (٤) من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي	مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضي وأسقطت ثقل ما	تحملت من وزر الشبيبة (٥) عن ظهري

في ذكر إنهمزام نور الدين بحصن الأكراد وما جرى (٦) له

في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، جمع الملك العادل نور الدين محمود بن الشهيد زنكي عساكره جميعها ودخل بلاد الفرنج ، فنزل بالبقعة (١٣٠ - ب) تحت حصن الأكراد (٧) - وهو للفرنج - عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس (٨) ، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار ، لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن . وكان سبب ذلك ، أنهم

(١) بالأصل : مرر . (والتصحیح من . الروضتين ، ١/ص/١٢٧) .
 (٢) بالأصل : بها . (٣) بالأصل : قايلاً . (٤) بالأصل : النصب . (٥) بالأصل :
 السيئة (والتصحیح من ، الروضتين ، ١/ص/١٢٧) . (٦) بالأصل : جراً . (٧) حصن الأكراد
 في (ياقوت) : حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حصص من جهة الغرب ، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان .
 وهو بين بعلبك وحمص . وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً وجعل فيه قوماً من الأكراد طليعة بينه وبين
 الفرنج . وأجرى لهم أرزاقاً فتدبروها بأهاليهم ، ثم خافوا على أنفسهم في غارة ، فجعلوا يحصنونه إلى أن صارت قلعة حصينة
 منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم فنازلوه ، فباعه الأكراد منهم ورجعوا إلى بلادهم وملكوه الفرنج ، وهو في أيديهم
 إلى هذه الغاية (أى إلى زمن ياقوت) . وبينه وبين حصص يوم ، ولا يستطيع صاحبها إنتراعه من أيديهم .
 (٨) بالأصل : طرابلس .

اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين في النهار لأنهم يكونوا آمنين ، فركبوا نحوهم ، فلم يشعر
بذلك (١) المسلمون إلا وقد قاربوهم ، فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك ، وأرسلوا إلى نور الدين يعلمونه الخبر ،
فرهقهم الفرنج [بالحملة (٢)] وأخذوهم بين أيديهم ، فوصلوا معاً إلى العسكر النوري ، فلم يتمكن المسلمون من
ركوب الخيل وأخذوا السلاح إلا وقد خالطوهم ، فكان أقصى (٣) رأيهم الإنزاع ، ووضع الإفرنج
فيهم السيف وأكثروا (٤) القتل والأسر ، وكان أشد شيء على المسلمين الدوقس الرومي ، فإنه كان
قد خرج إلى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم ، فلم يبقوا على أحد ، وقصدوا
خيام الملك العادل (١٣١ — أ) نور الدين فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قباء (٥) فركب فرساً
هناك للنوبة ، وسرعه ركه وفي رجله شجرة (٦) ، فنزل إنساناً من الأكراد فقطعها ، فنجى نور الدين
وقتل الكردي ، وكان أكثر القتل في السوقة والغلمان . ولما نجا نور الدين سأل عن مخلفي ذلك
الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله .

وسار نور الدين إلى مدينة حمص وأقام بظاهرها ، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على
بحيرة قدس ، على فرسخ من حمص ، وبينها وبين مكان الواقعة أربع فراسخ ، فكان الناس لا يظنون
أنه يقف دون حلب ، فكان رحمه الله أشجع من ذلك وأقوى عزماً .

ولما نزل على بحيرة قدس ، اجتمع إليه كل من نجا من المعركة ، فقال له بعض أصحابه : ليس من
الرأي أن تقيم ههنا ، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على الجيء إلينا ونحن على هذه الحال ، فوبخه
وأسكته وقال : إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بهم قتلوا أم كثروا (١٣١ — ب) والله
لا أستظل بجدار حتى أخذ بشار الإسلام وثأري .

ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق ، وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج
إليه الجند فأكثر ، وفرق ذلك جميعه على من سلم ، وأما من قتل أو أسر فإنه أقر إقطاعه على
أولاده ، فإن لم يكن [له] ولد فعلى بعض أهله ، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد .

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة ، لأنها أقرب البلاد إليهم ، فلما بلغهم
مقام نور الدين عندها ، قالوا : إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوة أن يمنعنا .

وكان نور الدين قد أكثر الخرج ، إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار حرم ، سوى غيرها

(١) البرك : لفظ فارسي معناه ، طليعة الجيش (Dozy : Supp Dict Ar) وفي «الحوادث الجامعة» (ص/٢٩)
حاشية/٢) ، أن البرك عند الترك ، كالسرية عند العرب . (٢) الإضافة من ، الكامل (ص/٨٣) .
(٣) بالأصل : اقصا . (٤) بالأصل : وأكثر . (٥) القباء ، نوع من الثياب ، مشتق من ذلك
لاجتماع أطرافه . والجمع أقبية . (لسان العرب) . (٦) شجرة الفرس : سائلة يربط بها قدم الحصان ، وفي أحد
طرفيها عروة تزر في القدم ، وفي الآخر وتد يذق في الأرض . (Dozy : Supp Dict Ar)

من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك . وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا (١) كل واحد منهم عن الذى أخذ [منه] ومهما (٢) ذكر شيئاً أعطوه عوضه (٣)، فحضر بعض الجند وادعى شيئاً كثيراً علم النواب كذبه فيما ادعاه لمعرفتهم بحاله ، فأرسلوا (١٣٢ - أ) إلى نور الدين ينهاون إليه القصة ، ويستأذنه فى تحليفه على ما ادعاه ، فأعاد الجواب : لا تكذبوا عطاءنا بالأذى ، فإنى أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره . وقال له أصحابه : إن لك فى البلاد إدارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل ، فغضب من هذا وقال : والله [إني (٤)] لا أرجو النصر إلا بأولئك ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عنى وأنا [نائم (٤)] فى فراشى بسهام لا تخطئ ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطئ وتصيب ، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ، فسيكفوا .

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيئاً بماء فعادوا بعد أبوالا (٥)

هكذا هكذا وإلا فلا .

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين فى المهادنة فلم يجبهم إليها ، فتركوا عند الحصن من يحميه ، وعادوا إلى بلادهم وتفرقوا .

فى ذكر القبض على جمال الدين الوزير

ابن على الأصفهاني

(١٣٢ - ب) فى هذه السنة أيضاً ، قبض أتابك قطب الدين على وزيره جمال الدين محمد بن على الأصفهاني . وكان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين فظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة فأبان عن كفاية وعفة ، وكان من خواصه وأكبر ندمائه ، فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكمه تحكماً لا مزيد عليه . فحكى لى والدى ، قال : أرسلنى دزدان الجزيرة إلى الوزير ضياء الدين الكفرتوشى — وهو وزير الشهيد والحاكم فى بلاده قبل أن أتصل أنا بخدمة جمال الدين وأنوب عنه — يقول له : قد بلغنى أن جمال الدين يقصدنى ويريد أن يعزلى ، وأنا متعلق بك وبنصير الدين ، ومن أصحابك ، فكيف ترى الحال . قال : فلما أبلغت الوزير هذه الرسالة ، قال لى : ما سمعت من جمال الدين شيئاً من هذا عند أتابك ، ومع هذا ، فالرجل يدخل قبلى ويخرج بعدى ، فما أعلم

(١) بالأصل : ويسأله . (٢) بالأصل : مهما . (٣) بالأصل : عوضه .

(٤) الإضافة من ، الروضتين (ح/١/ص/١٢٨) . (٥) ورد بالأصل ثراً ومحرفاً هكذا : هذى المكارم

لافتعان من ابن شهاب فعادوا بعد أبوالا . (والتصحيح من البيهقي : الخاسن والمساوى ، ح/١/ص/٧٤) .

ما يكون منه . ولم يزل كذلك (١٣٣ - أ) إلى أن قتل الشهيد ، وكان منه ما قد تقدم ذكره في حفظ الدولة . ووزر لولده سيف الدين ، ثم لقطب الدين . وكان بينه وبين زين الدين عهد ومواثيق على المصافاة والإتفاق . وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدين فنهاهم . وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمن لكل خائف ، فسعى به الحساد إلى أتاكك حتى أوغروا صدره عليه ، وقالوا : إنه يأخذ أموالك فيتصرف بها ، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفائه مع زين الدين ، فوضع على زين الدين من غيره عن مصافاته ومؤاخاته ، فقبض عليه وحبس بقلعة الموصل ، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه ، لأن خواص أتاكك وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قبض أنبسطوا في الأمر والنهى على خلاف غرض زين الدين ، فكان زين يذم أصحابه على تحسين الموافقة على قبض جمال الدين .

(١٣٣ - ب) ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر

في سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١) سار أسد الدين شيركوه بن شاذى - وهو من أكابر الأمراء الذين في خدمة الملك العادل نور الدين محمود - إلى الديار المصرية عازما على ملكها واستضافتها إلى المملكة النورية .

ونحن نبتدىء قبل ذكر مسيره وما كان منه ، بذكر حاله وتنقله واتصاله بالخدمة النورية ، فنقول : كان أسد الدين شيركوه [وأخوه (٢)] نجم الدين أيوب - وهو أكبر (٣) أبناء شاذى - من بلد دوين [وهى بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم (٢)] وأصلهما من الأكراد الروادية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد ، فقدما العراق وخرما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق ، فبرأى من نجم الدين عقلا ورأيا وحسن سيرة ، فجعله دزدار تكريت ، وهى له ، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتاكك الشهيد رضى الله عنه بالعراق من قراجة الساقى على ما ذكرناه قبل ، وصل إلى تكريت ، فخدمه نجم الدين وأقام له السفن ، فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم (١٣٤ - أ) ثم إن أسد الدين قتل إنسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، فقصدا أتاكك الشهيد ، فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما ، وأقطعهما إقطاعا حسنا ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزدارا فيه . فلما قتل الشهيد حضره عسكر دمشق ، فأرسل إلى الملك سيف الدين غازى

(١) فى الكامل (٨٣/ص/٩/ح) أن مسيره كان فى شهر جمادى الأولى من السنة .
(٢) الإضافة من ،
الروستين (١٢٩/ص/١/ح) .
(٣) بالأصل : الأكبر .

— وقد قام بالملك بعد والده — ينهى الحال إليه ويطلب العسكر (١) ليرحل صاحب دمشق عنه، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في بداية ملكه ، وهو مشغول بإصلاح السلطان وأصحاب الأطراف الذين يجاورونه، فلم يتفرغ (٢) لبعليك، وضاق الأمر على من بها من الحصر، فلما رأى نجم الدين الحال ، وخاف أن تؤخذ قهراً وعنوة ويناله أذى ، أرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك ، وحلف له صاحب دمشق عليه وتسليم القلعة، وفي (٣) له بما جلف عليه من الإقطاع والتقدم (١٣٤ — ب) وصار عنده من أكابر الأمراء (٤) ، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد — وكان يخدمه في أيام والده — فقربه نور الدين وأقطعته ، ورأى منه في حروبه ومشاهدته آثاراً (٥) يعجز عنها غيره لشجاعته وجراته ، فزاده إقطاعاً وقرباً، حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما ، وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلققت المهمة النورية بملك دمشق ، أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين أيوب — وهو بها — في ذلك . وطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب إلى ما يراد منه ، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأموال ببلد دمشق وغيرها ، فبذل لهما ما طلبا (٦) منه ، وحلف لهما عليه ، ووفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده في أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدين ، فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين، إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، إلا (٧) نجم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك .

فلما كان هذه السنة وعزم نور (١٣٥ — أ) الدين على إرسال العساكر إلى مصر ، لم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين فسيره . وكان سبب ذلك أن شاور السعدى — وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر — عزل من الوزارة (٨) ، فسار إلى الملك العادل نور الدين ، فوصل إليه وهو بدمشق ، والتجأ إليه واستجار به ، فأحسن لقاءه وأكرم مشواه ، وأنعم عليه إنعاماً غمره به . وكان وصوله سنة ثمان وخمسين وخمسة (٩) ، وطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ويكون له فيها حصّة ذكرها له ، ويتصرف على أمره ونهيه واختياره (١٠) ، ونور الدين يقدم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور

(١) بالأصل : للعسكر . (٢) بالأصل : يتفرغوا . (٣) بالأصل : ووفى .
(٤) في السكامل (١٥٠/ص/٩/ح) سنة ٥٤١) أن صاحب دمشق أعطى نجم الدين « إقطاعاً ومالاً وملكه عشر قرى من بلاد دمشق ، وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها » . (٥) بالأصل : أناره .
(٦) بالأصل : طلب . (٧) بالأصل : إلى . (٨) في السكامل (٨٤/ص/٩/ح) أن ضرغاماً نازع شاور الوزارة وغلبه عليها ، فهرب منه شاور إلى الشام ملتحجاً إلى نور الدين .
(٩) في السكامل (٨٤/ص/٩/ح) أن وصوله كان في ربيع الأول من السنة .
(١٠) في السكامل (٨٤/ص/٩/ح) « ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقبلاً بعسكره في مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين » .

[بابة (١)] وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الإفرنج فيه ، إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا للخطر (٢) آخر مع الخوف من الفرنج أيضا (٣). ثم استنار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه (٤) ، وكان هوى أسد الدين في ذلك (١٣٥ - ب) وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالي بمخافة ، فتجهز وسار مع شاور في جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين ، وأمره نور الدين بإعادة شاور إلى منصبه ، والانتقام ممن نازعه في الوزارة ، فساروا جميعا ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان ظن نور الدين صحيحا (٥) ، فسار (٦) الفرنج لحفظ بلادهم من نور الدين . ووصل أسد الدين إلى مصر سالما هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة ، وعاد شاور وزيرا وتمسك من منصبه . وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور لما عاد إلى منصبه ، وعاد عن ما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا ، وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام . فأنف أسد الدين من هذه الحال ، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر ، فلم يجبه شاور إليه . فلما رأى ذلك ، أرسل نوابه قتلوا مدينة بليس ، وحكم على (١٣٦ - أ) البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمددهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون ، فلما أرسل شاور إليهم يستجدهم ويطلب أن يساعده على إخراج أسد الدين من البلاد ، جاءهم فرج لم يحسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته ، وطمعوا في ملك ديار مصر ، وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه ، فتجهزوا وساروا . فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير ، سار بعساكره إلى طرف بلاده مما يلي الفرنج ليمتنعوا عن المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر ، أشد من الخطر في مسيرهم (٧) ، فتركوا في بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس في الباقيين (٨) إلى مصر . وكان قد وصل إلى الساحل جميع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس ، فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانوه ، وسار بعضهم معه ، وأقام بعض في البلاد لحفظها (٩) ، فلما قارب الفرنج مصر ، فارقه أسد (١٣٦ - ب) الدين وقصد مدينة بليس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهرا له يتحصن به . فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بليس

(١) الإضافة من ، الكامل (٨٤/ص/٩) . (٢) بالأصل : بخطر . (٣) في الكامل (٨٤/ص/٩) سبب آخر عن خوف نور الدين من إرسال أسد الدين إلى مصر ، وهو الخوف من « أن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفي » . (٤) في الروضتين (١٣٠/ص/١) ، أن نور الدين أرسل أسد الدين إلى مصر « قضاء الحق الوافد المستصرخ ، وجسا للبلاد وتطلعا على أحوالها » . وينقل أبو شامة (١٣٢/ص) عن العماد الكاتب ، أن نور الدين أرسل أسد الدين مع شاور « على قرار عينه ، وأمر بينه ، وبغية يدركها ، وخطة يملكها ، وبحجة واضحة في الملك بسلوكها » . (٥) بالأصل : صحيح . (٦) بالأصل : فصار . (٧) بالأصل : لمسيرهم . (٨) بالأصل : الباقيين . (٩) بالأصل : يحفظها .

وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع بها أسد الدين ، وسورها من طين قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يغاديرهم القتال ويرأوهم ، فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيئا . فبينما هم كذلك ، أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس ، فحينئذ سقط في أيديهم ولات حين مناص ، فأراد الفرنج العود إلى بلادهم ليحفظوها ، ولعلمهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل . فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج (١٣٧- أ) من بلبس ، قال : رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم ، ويده لت حديد يحمي ساقهم ، والمسلمون (١) والفرنج ينظرون . قال : فأتاه إفرنجي من الفرنج الغرباء ، فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء - المسلمون والفرنج - وقد أحاطوا بك [وبأصحابك (٢)] فلا (٣) يبقى لكم معهم بقية . فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا حتى كنت ترى (٤) ما لم تر مثله ، كنت والله أضع [فيهم (٢)] السيف ، فلا يقتل منا رجل حتى يقتل [منهم] رجالا ، وحينئذ (٥) يقصدهم الملك العادل نور الدين - وقد ضعفوا وفنى أبطالهم - فيملك بلادهم ويفنى (٦) من بقى منهم ، والله لو أطاعني هؤلاء - يعني أصحابه - لخرجت إليكم [من (٧)] أول يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلب الفرنجي على وجهه ، وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ، ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك ، والآن فقد عذرناهم (٨) . ثم رجع عنه (٩) وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالما (١٠) .

في ذكر فتح (١٣٧ - ب) حصن حارم من الإفرنج

في هذه السنة في رمضان ، فتح الملك العادل نور الدين قلعة حارم وملكها من الفرنج . والسبب في هذا الفتح ، أن نور الدين لما عاد منهزما على ما ذكرناه (١١) قبل ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثأره ، وغزو العدو في عقر داره ، وليرفو ذلك الخرق ، ويرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة (١٢) الوهن ، ويعيد رونق الملك ، فراسل أخاه قطب الدين (١٣) بالموصل ،

- (١) أي المصريون . (٢) الإضافة من ، الروضتين (١/ص/١٣٢) . (٣) بالأصل : ولا . (٤) بالأصل : ترا . (٥) بالأصل وحينئذهم . (٦) بالأصل : وبملك . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/١٣٢) . (٧) الإضافة من ، الكامل (٩/ص/٨٥) . (٨) بالأصل : غدرنا بهم . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/١٣٢) . (٩) بالأصل : عنهم . (والتصحيح من ، الروضتين ، ١/ص/١٣٢) . (١٠) في الكامل (٩/ص/٨٥) أن شيركوه خرج من بلبس في شهر ذي الحجة من السنة . (١١) أي هزيمته عند البقيعة تحت حصن الأكراد . (١٢) بالأصل : اسمه ، (١٣) هو قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل (٥٤٤ - ٥٦٥) .

ونجر الدين قرا أرسلان (١) بالحصن ، ونجم الدين ألبى (٢) بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف [يستنجدهم (٣)] .

فأما قطب الدين أتابك ، فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه .
وأما نجر الدين قرا أرسلان فبلغني عنه أنه قال له ندماءؤه وخواصه : على أى شيء عزمت ، فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك . فكلهم وافقه (٤) على ذلك ، فلما كان الغد ، أمر (١٣٨ - أ) بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة . فقال له أولئك : ما عدا مما بدا ، فارقناك بالأمس على حال نرى (٥) الآن ضدها . فقال : إن (٦) نور الدين قد سلك معى طريقا ، إن لم أنجده ، خرج أهل بلادى عن طاعتي ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين (٧) عن الدنيا ، يذكر لهم مآلتي (٨) المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر والنهب ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب [منهم (٩)] أن يحثوا المسلمين على الغزاة (١٠) ، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويكون ، ويلعنوني ويدعون (١١) على ، فلا بد من إجابة دعوته . ثم تجهز أيضا وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا . فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم ، في كل بطل بسلاحه شاكى ، ولشدة المراس غير شاكى ، [كما] يقول [الشاعر] :

في كل أروع يرتاع المنون له إذا تجرد لانكس (١٢) ولا جهد
(١٣٨ - ب) يكادحين يلاقى القرن من حنق قبل السنان إلى حوبائه (١٣) يرد

وكانوا حقا جيش الطواويس (١٤) ، وكل منهم في بيض (١٥) الحديد وألوان التشاهير يختال ويميس ، وأشرق عليهم الشمس فرقت لها الأحداق ، وتألأت الآفاق ، ونزل عليها وحصرها ، وأطار إليها من القسى والمجانيق سهامها وحجرها .

- (١) هو نجر الدين قرا أرسلان بن داود بن سقان بن أرتق ، صاحب حصن كيفا (٤٣٩ - ٥٦٢) .
(٢) هو نجم الدين ألبى بن تمر تاش بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب ماردين (٥٤٧ - ٥٧٥) .
(٣) : الإضافة من ، السكامل (٨٦/ص/٩) . (٤) بالأصل واقفه . (٥) بالأصل : بدى .
(٦) بالأصل : انه (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .
(٧) بالأصل : والمقطعين . (٨) بالأصل : لسق . (٩) الإضافة من ، الروضتين ،
(١٠) (ح/١/ص/١٣٣) . (١٠) بالأصل : القرآء . (والتصحيح من ، الروضتين ، ح/١/ص/١٣٣) .
(١١) بالأصل : ويدعونى . (١٢) بالأصل : نلس . (١٣) بالأصل جوابية . (١٤) جيش
الطواويس : فى الكامل (ح/٤/ص/٧٤ - ٧٥ ، حوادث سنة ٨٠) ، أن الحجاج بن يوسف الثقفى أرسل جيشا لقتال رتبيل — وفى رواية أخرى لقتال هيمان بن عدى السدوسى — ثم أمد الحجاج الجيش « بالخيال الرائقة والسلاح الكامل » فسمى « جيش الطواويس لحسنه » . (١٥) بالأصل : ويض .

وبلغ الخبر إلى الفرنج من بقى منهم بالساحل لم يسر (١) إلى مصر ، فجاءوا في حدهم وحديدهم ،
وعدهم وعديدهم ، وقضهم وقضيضهم ، وملوكهم وفرسانهم ، وأساقفتهم ورهبانهم ، قد حشدوا
حتى أرباب الصوامع ، ولم يشعروا أنهم رزق الذناب والخوامع ، وأقبلوا (٢) إليه رجالا وعلى كل
ضامر (٣) ، في كل قرن مساور وبطل مهاصر ، قد ألف النزال ، واعتاد اقتناص الأبطال ، فهم
لكثرتهم من كل حذب (٤) ينسلون ، فارتاع لكثرتهم المسلمون . وكان مقدم الفرنج البرنس صاحب
أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين — وهو من مشاهير (١٣٩ — أ)
الفرنج وأبطالها ، والدوك — وهو رئيس الروم ومقدمها — وجمعوا معهم من الراجل مالا
يقع عليه الإحصاء ، قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ، فخرض نور الدين أصحابه ،
وأطمع فيهم أحزابه ، وفرق نفائس الأموال ، على شجعان الرجال ، فلما قاربه الفرنج رحل عن
حارم إلى أرتاح (٥) ، وهو إلى لقاءهم قد ارتاح ، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه ، ويتمكن منهم ببعدهم عن
بلادهم إذا لقوه ، فساروا حتى نزلوا على « عم (٦) » ، وهو على الحقيقة تصحيف مالمقوه من الغم ،
ثم تيقنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير ،
وحملت إليهم كل وهن وضير ، فلما عادوا عن « عم » تبعهم نور الدين في عساكر المسلمين ، وأبطال
الموحدين على تعبئة الحرب ، فلما تقاربوا إصطفوا للقتال ، وتهيأوا للنزال ، وتدانست الخطى ، وكشف
الغطا ، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين ، فبددوا نظامهم ،
وزلزلوا (١٣٩ — ب) أقدامهم ، وولولهم الأدبار ، وركنوا إلى الفرار [فتبعهم الفرنج (٧)] .
وكانت تلك الفرقة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ، وهو أن يبعدهم عن
راجلهم ، فيميل عليهم من يبق من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا
عاد فرسانهم من أثر المنهزمين ، لم يلقوا راجلا يلجأون إليه ، ولا وزرا يعتمدون عليه ، ويعود المنهزمون
في آثارهم ، يكسعون أديبارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم ، فيعجل لهم بوارهم
وحقتهم . وكان الأمر على مادبر ، والحال على ما قدر ، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين ، عطف زين الدين
في عسكر الموصل على راجلهم فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت (٨) خيالتهم ولم يعمعوا (٩) في الطلب خوفا على
راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد مغفرين (١٠) ، وبدماهم مضر جين (١١) ، فسقط في (١٢)

(١) بالأصل: ير . (٢) بالأصل: واقتبلوا . (٣) بالأصل: ضام . (٤) بالأصل: حرب .

(٥) أرتاح : في (ياقوت) : بالفتح ثم السكون وتاء فوقها نقطتان وألف وحاء مهملة . لاسم حصن منيع كان من
العواصم ، من أعمال حلب . (٦) عم : في (ياقوت) : بكسر أوله وتشديد ثانيه . ولا أراها إلا أعممية لأصل
لها في العربية . وهي قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية ، بين حلب وأنطاكية ، وكل من بها اليوم (في زمن
ياقوت) نصارى . (٧) الإضافة من ، الكامل (ح/٩/ص/٨٦) .

(٨) بالأصل: وعاد . (٩) بالأصل: يعمعوا . (١٠) بالأصل: م مرفين .
(١١) بالأصل: مصرخين . (١٢) بالأصل: ما في . (وقد أسقط المحقق ، اللفظ : ما ، لأنه زائد) .

أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، وخضعت رقابهم وذلوا ، فلما رجعوا عطف حينئذ المنهزمون أعنتهم ، وعاودوا كرتهم بعد فرتهم ، فبقي العدو (١٤٠ - أ) في الوسط وقد أهدق بهم المسلمون من كل جانب ، وحمل الوطيس ، وبأشر الحرب المرءوس والرئيس ، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة ، واشتد الزحام ، وعظم الزمام ، وبطل العامل (١) وعمل الحسام ، وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضا الصقور على إناث الطيور ، فزقوهم بددا ، وجعلوهم طرائق قددا ، وألقى الفرنج بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، فأكثر المسلمون فيهم القتل ، وأوردوهم (٢) مناهل الفناء والهلك ، فزادت عدة (٣) القتلى على عشرة ألف وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، وكيفيك دليلا على كثرتهم ، أن ملوكهم أسروا ، مثل : البرنس يميند صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس ، والدوك مقدم الروم ، وابن جوسلين ، وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فلكها في الحادى والعشرين من رمضان .

وأشار أصحابه عليه (٤) بالمسير إلى أنطاكية ليلمكها لخلوها (٥) من يحميها ويدفع عنها ، (١٤٠ - ب) فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التى لها ففى منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ، وبجأورة يميند أحب إلى من جوار ملك الروم . وبث (٦) سراياه فى تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا لاذقية ، وسويدا (٧) وغير ذلك وعاودوا سالمين .

ثم إن نور الدين أطلق يميند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

فى ذكر خبر الواقعة (٨) التى (٩) جرت فى حرب قلعة حارم (١٠)

قال صاحب التاريخ . وحكى أن السلطان نور الدين الشهيد — رحمه الله — لما كسرت ميسرة عسكره (١١) ، نزل عن فرسه وكشف رأسه وسجد لله عز وجل فسمع يقول : يا إلهى وسيدى ومولاى ،

(١) العامل : عامل الرمح ، ما يلى السنان وهو دون النعلب . (٢) بالأصل : وأوردوهم . (٣) بالأصل : فزادة عدده . (٤) بالأصل : إليه . (٥) بالأصل : لخلوها . (٦) بالأصل : ووثب . (٧) لعلى ابن الأثير يقصد « السويداء » وهى حصن وميناء لأنطاكية (السلوك ، ج ١ / ص ٥٦٧ / م ١ / م ١) التى تقع شمال اللاذقية . أما سويدا — أو — السويداء ، لم تكن ، أحدهما بلدة قرب حران والآخر ، قرية بجوران من نواحي دمشق . وهما كما نرى ، بعيدان عن مكان المعركة (٨) بالأصل : وقعت (٩) بالأصل : الذى . (١٠) بالأصل : قلعة الروم . وهذا هو من ابن الأثير أو خطأ من الناسخ ، ويثبت هذا الوهم أو الخطأ سياق الخبر نفسه . وقلعة الروم (كما فى باقوت) تقع غربى القرات فى شماله بين ألبيرة وسميساط . (١١) يدل هذا الخبر على أن ابن الأثير لم يبطنا تفاصيل حرب حارم كاملة ، لا فى نصنا هذا ولا فى السكامل ، إذ لم يرد فى حرب حارم خبر هزيمة ميسرة جيش نور الدين ، ولما ورد خبر هزيمة ميمنة الجيش التى كان متفقا عليها ، كما فى النص .

من محمود عبدك ابن زنيكي بن آقسنقر حتى لا تخذله ، إن تنصره تنصر دينك الذي أظهرته (١) لنبيك الذي أرسلته ، استجب دعائي ، وأحسن من قلبي ومثواني (١٤١ - أ) ولا تشمت [بي] أعدائي ، ولم يزل متضرعا بأكيا (٢) ، ويقلب وجهه على التراب ودموعه تجري على خديه ، إلى أن بلغه الله مراده من خذلانهم ونصره عليهم .

ومن عجائب (٣) الاتفاق ، ما حكاه كمال الدين بن العديم في كتاب « أخبار حلب » ، أن الزكي أحمد ابن مسعود الموصل المقلد أخبرني ، قال : كنت ألم بعلم الدين سليمان بن الجندار ، قال : فاتفق أن خرجت معه إلى حرب حارم في سنة تسع (٤) وخمسين وخمسمائة ، وجلست معه تحت شجرة هناك ، ومجد الدين أبو بكر بن الداية — داية الشهيد رحمه الله — وصالح الدين يوسف بن أيوب تحت هذه الشجرة نتحدث ، ونور الدين الشهيد يحاصر حارم وهي في أيدي الفرنج ، فقال مجد الدين : أتمنى أن يفتح نور الدين حارم (٥) ويعطيني إياها نيابة . فقال صالح الدين يوسف : أتمنى على الله تبارك وتعالى أن يفتح نور الدين الشهيد مصر ويعطيني إياها . ثم قال : تمن أنت أيضا بما تريد ، قلت : يامولاي ، إذا كنت أنت صاحب مصر ومجد الدين (١٤١ - ب) صاحب حارم ، ما أصنع (٦) بينكما . فقالا : لا بد أن تتمنى شيئا ، فقلت : إذا كان ولا بد من ذلك ، فأتمنى « عم » ، [وبينما نحن (٧) في الكلام — والله تعالى قاض (٨) بما أراد في حكمه — فقدر الله عز وجل ، أن نور الدين كسر الإفرنج وفتح حارم ، وأعطاهما مجد الدين بن الداية ، وأعطاني قلعة « عم » ، وقدر الله ، أن أرسل نور الدين الشهيد رحمه الله تعالى ، أسدين شيركوه إلى مصر وفتح مصر على يده ، ثم آل الأمر إلى أن ملكها صالح الدين يوسف بن أيوب ، على ما نذكر إن شاء الله تعالى الرحمن في وقته ، وتملك مصر ، والشام ، والشرق (٩) والسكر ، واليمن ، وبلاد الشرق وغرض الملوك والسلاطين ، وحاصر القلاع ، وفتح البلاد ، وجند الأجناد ، وهذه الجراكسة التي (١٠) هي اليوم ملوك مصر والشام ومحامي (١١) الحرمين الشريفين ، بمالك نسل وذرية الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل أبي المعالي (١٢) ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر (١٣) بن أيوب ، أبو الملوك الأيوبيين .

(١) بالأصل : ظهرته

(٢) بالأصل : بالياء . (٣) بالأصل : العجايب . (٤) بالأصل : سبعة ، وهذا تحريف من الناسخ والنس يؤكد تصحيحنا . (٥) بالأصل : لحارم . (٦) بالأصل : لا أصنع . (٧) بالأصل : ونحنوا . (٨) بالأصل : قاضي . (٩) لعل صيغة اللفظ : الشوبك . لأن في النص أنه ملك « بلاد الشرق » ، أي الجزيرة . (١٠) بالأصل : الذي . (١١) بالأصل : محامين . (١٢) بالأصل : أبو المعالي . (١٣) بالأصل : أبا بكر .